الغد

السباحة فى قمقم على قاع المحيط



هالة البدرى

كتاب الغد ٨

السباحة فى قمقم على قاع المحيط

هالة البدرى

هذا الكتاب إهداء من
مكتبة يوسف درويش

تقديم : د . يوسف ادريس

تقديم

حين انتهيت من قراءة هذه الرواية وعدت إلى عنوانها « السباحة فى قمقم » وجدت أن المؤلفة قد استدرجتنا إلى « فخ » بعنوانها هذا فلم أقرأ رواية أولى لشابه فى مثل هذا الانفساح الشديد ، ولا ضوء النهار الساطع ولا هذا الكم من مشغوليات براعم الحياة ، الأجساد السابحة الشابة ، والأرواح المنطلقة فى عالم أليف بعيد تماماً عن جرائم الكبار وفضائح الكبار وعالم الغابة الذى يحيا فيه المخضرمون والشائخو العقل والبدن ربما قبل الأوان .

هذه رواية أولى قل أن تكتب ، لأن الفترة التى تتناولها قلّ أن تكتب كواقع حى ولكنها فى العادة يتذكرها الإنسان ، ويكتب عنها أو يستوحى الكتابة منها بعد مرورها بسنين طوال ، ولهذا ففيها طزاجة البراعم ، وقطرات الندى الأولى ، ورعشة الخجل أول رعشة خجل . وبنات غير معقدات أنهن بنات ، بالعكس فخورات أنهن كذلك .

والحب هنا ، والغيرة ، والصلح والخصام والقيم فى باكورتها الأولى تلك التى ألهمت خيال الشعراء والكتاب بكلمة « عذراء » كالطبيعة العذراء ، كالإيمان العذراء ، كالصبى العذراء إذ لا أجد مذكراً للكلمة ، لأن فى العذرية يتساوى الجنس واللغة

والأديان ، بمعنى أدق ، الإنسان قبل أن يتفرد تفرداً مغروراً خطيراً وقبل أن تغلظ ملامحه الداخلية والخارجية وقبل أن يتعلم الكذب المتعمد .

أهنىء « كاتبتنا الشابه » « هالة البدرى » بهذا العمل الجرىء الفريد فى الكتابة العربية . أهنئها أنها أمسكت بحذق غريب بهذه الفترة من حياة البشر ، وروتها بكل حذافيرها ، بالمهم تماماً ، وأحياناً بغير المهم ، ولكنى لم أنس أبداً وأنا أقرأ أنه العمل الأول للكاتبة ، ولذلك فهو عمل مجيد .

ترقبوا من هالة البدرى الكثير فهى قد صعدت إلى المسرح لتبقى بطلة .

« **يوسف إدريس** » ..

● ربما أسدل البريق ستاراً

يختفي خلفه كثيف الظلام ....



الفصـل الأول

١

البحر .. كان هو أول كائن يجذبنى إليه بعد أمى وأبى .

لذلك لم يكن عجيبا أن تكون الصفحة الأولى من « البوم » الأسرة هى صورة الزفاف التقليدية التى تجمع بين عروسين هما أبى وأمى ، وأن تكون الصفحة الثانية هى صورة لى فى الشهور الأولى بعد مولدى ، وأن تكون الصفحة الثالثة هى صورة تجمع بيننا نحن الثلاثة مع البحر على شاطىء ستانلى بالاسكندرية .

يقول أبى وهو يتذكر طفولتى المبكرة أننى كنت مجنونة بالبحر وأنا بعد طفلة ..

كان هو الكائن المحبوب الذى جذبنى إليه من بين كل كائنات الطبيعة . وقد نما هذا الشعور بالحب مع نمو علاقتى بالبحر ، طفلة عابثة على الرمل عند آخر دفقات الموج عليه .

فى البداية كان حبى للبحر أشبه بالحب من طرف واحد . أنا أحب البحر ..

بعد ذلك استطعت أن أجعل البحر يبادلنى الشعور بالحب ، أو هكذا خيِّل إلىَّ ..

البحر يبدو لى صدرا كبيرا عريضا حنونا لا حدود لحنانه وعواطفه .. وفيضا من السرور الدائم يشيعه فى النفس والجسم معا ..

كنت فى طفولتى أتعجل الوصول إلى أفقه البعيد المتألق ، الغامض ، الساحر ، حيث يلتقى بالسماء بينما أنا ألعب على الشاطىء الهادىء ..

وقد استبدت بى هذه الرغبة حتى حققتها .

غير أن علاقتى بالبحر لم تكن علاقة طفل وحيد بكائن يحبه ، بل كانت علاقة مجموعة أطفال بصديق عزيز ، يتسع قلبه لهم جميعا ..

كنا ثلاثة أنا وأيمن وطلال ..

أيمن هو أخى الذى يصغرنى بعام واحد .. طفل أسمر غزير الشعر ، فى نظراته تحدٍ وذكاء ..

أما طلال فكان ابن صديق لأبى .

على الشاطىء ، كان يجمعنا حبنا للبحر ، فقد كانت كابين أسرة طلال تجاور الكابين الذى ننزل فيه على شاطىء « ستانلى » الذى كان يمتاز بتنوع فى التضاريس .

وسطه شاطىء عادى مثل سائر شواطىء الاسكندرية .. رمال منبسطة يأتى بعدها البحر متدرج العمق ، وليس من أثر للصخور فى هذا الجزء من الشاطىء ..

الجانب الأيمن صخور مستوية عريضة يكاد مستواها أن يكون فى نفس مستوى الماء ،

غير أنها تنحدر فجأة مكونة شلالات جميلة ..

الجانب الأيسر منه كان له تركيب مختلف . على بعد خمسمائة متر من الشاطيء تنبثق مجموعة من الصخور على هيئة حاجز للأمواج . هكذا شاءت الطبيعة أن تنعم على هواة السباحة بحمام سباحة طبيعى يمتد من قوائم الكبائن حتى حاجز الصخور .. فى هذا الحمام كان أبى يدربنا على العوم .

حين انقضى ذلك الصيف الذى دربنا فيه أبى على السباحة تقمصتنى شخصية السباحة .. كنت فى التاسعة من عمرى ، وتخيلت منذ ذلك الوقت أننى قد حددت مستقبلى . أن أكون بطلة سباحة .

وعندما أعلنت المدرسة عن بطولة المدارس ، تقدمت إلى معلمة التربية الرياضية أطلب تسجيل اسمى ضمن فريق السباحة .

مازلت أذكر نظرة المعلمة المذهولة وهى تتأمل جسمى النحيل الذى كان أقرب إلى عود قصب يابس ..

قالت : هل تحسنين السباحة حقا ياأنچى ؟!

قلت فى استعلاء : بالطبع .. ! لقد دربنى عليها أبى ..

بعد أيام كنت مع الفريق فى حمام سباحة نادى رعاية الشباب بالجيزة حيث تجرى التصفيات الأولى لفرق المدارس ..

حين وقفت على حافة الحوض ونظرت إلى المياه من تحتى تملكتنى رهبة ، قررت أن أطردها بعيدا فى هذه اللحظة الحاسمة من حياتى .

شددت قامتى ، ووقفت منتصبة كالرمح ، أتطاول فى محاولة يائسة لتتساوى رأسى مع رءوس البنات اللاتى وقفت بينهن .. كان واضحا أنهن أكبر سنا وأقوى بنيانا .

كان ما يجمع بين المتسابقات فى أول تصفية أنهن بالمرحلة الابتدائية ، واعتبرت ذلك ظلما صارخا ، ولكننى فى قرارة نفسى كنت واثقة من أننى سأتغلب على الظلم واكتسح ..

انتقل اهتمامى من مراقبة زميلاتى إلى مراقبة كائنات أخرى كانت تسبح بنشاط على حافة الماء مباشرة ، قرب جدران الحوض . كان واضحا أنها نوع من الحشرات ، سوداء ، تلمع فى الشمس ، لا تتجاوز حجم الواحدة منها حبة « اللوبيا » تمتد من جسمها أطراف طويلة كثيرة ، نشيطة . كان واضحا أنها سعيدة بالسباحة واللعب فى الماء .

انتابنى اشمئزاز شديد ، وسألت زميلة تقف بجوارى .

قالت : هى صراصير الماء . اطمئنى لن تؤذيك .

خرجت من حالة الاشمئزاز إلى حالة تعاطف مع هذه الكائنات الصغيرة التى تحب السباحة مثلنا . تأملتها بعطف ، وتخيلت أننى أمام شاشة تليفزيون تعرض فيلما ممتعا من الرسوم المتحركة . نسيت كل شىء حولى إلا الشاشة ، وأبطال الفيلم ، وأفقت على صيحات تدعونا إلى الإستعداد .

كانت المعلمات اللاتى تزاحمن حول الحمام تنبهن البنات إلى بدء السباق ، وراحت كل معلمة تشجع تلميذاتها ، فى حين وقف رجل هائل الجسم يرتدى سروالا أسود أقرب إلى سراويل صيادى بحيرة المنزلة ، يطبق قبضته على عصا طويلة تنتهى بمصيدة من القماش الرقيق ، أشبه بمصيدة الفراشات ولكنها أكبر حجما بكثير .. وبالطبع لم أفهم سببا لوجوده ولا معنى لهذا الشئ الغريب الذى يحمله.. وتصورت أنه متفرج متطفل جاء يشهد حدثا مثيرا ..

ـ استعدوا يابنات ..

ثم انطلقت الصفارة ..

حشدت نفسى وارادتى وقفزت بكل حيويتى إلى حيث تلقفنى ماء الحمام لأول مرة ..

أحسست كأن كتلة الماء قد أطبقت على كل جسمى بذراعين من حديد ، ولم أكن أعلم أننى هويت مثلما يهوى حجر إلى قاع بئر .

استجمعت طاقتى وقاومت الغرق . نسيت فى لحظة ، أحلامى بالنصر وتعلقت بحلم واحد أن أنجو من كتلة الماء التى أطبقت بخناقى. حينما طفا جسمى رأيت الآلة التى كان يمسك بها صاحب السروال على مقربة منى ، تعلقت بالحلقة الكبيرة وفهمت معنى وجود الرجل والشبكة . جذبنى نحو حافة الحوض ، وحين رفعت رأسى وجدت نفسى أتوسل إليه أن يمنحنى فرصة ، بعد أن وصلت إلى سطح الماء وأصبحت السباحة سهلة .

قلت : أتركنى وسأعرف كيف أسبح الآن .

لم تنفع توسلاتى ، كان الرجل كأنه آلة صماء ، يتعامل معى كغريق أو سمكة وقعت فى الشبكة فكيف يترك صيده وفريسته ، وحين تعلقت يداى بالحافة وجذبت جسمى خارج الحمام ، أدركت أن الصياد كان على حق حين تجاهل توسلاتى . كنت قد شربت من ماء الحمام مقدار جالون . وتحسست بطنى المنتفخة ..

قرفانة ، رحت أفرغ ما فى جوفى بارادتى ، وخرج الماء على دفقات . رحت أتأملها وأنا أقاوم الأغماء .

استقبلنى البيت بعطف مشوب بالسخرية .. اعترفت بينى وبين نفسى أن الحادث لا يمكن أن يمر بدون نكتة ، ولكننى كنت أكابر وأنسج دفاعا من الأعذار .. تحدثت عن قرفى من الصراصير .. ، وماء الحمام الثقيل .. ، والمنافسات اللاتى يتجاوزننى فى العمر والجسم .. وطريقة أبى فى تعليم السباحة ..

واعتقدت أننى كسبت جولتى واحتفظت بحقى فى أن أحلم بالبطولة .

هكذا بدأت قصتى مع أول حمام سباحة حاولت أن أعقد بينى وبينه أواصر صداقة مثل التى عقدتها مع البحر .

ولكن الأمر بدا لى بعد ذلك كأن الحمام أراد أن يبدأ رحلة الصداقة بمداعبة ثقيلة

ومقدمة مثيرة لصداقة حقيقية توثقت عراها مع الأيام والسنين ..

عندما حان موعد ذهابنا إلى الاسكندرية فى الصيف كنت قد صممت على اتقان السباحة والتدريب على القفز .

وفى ذلك الصيف بدأت أمارس العابى الخطرة فى الماء .

زادت جراتى ، وأصبحت أتجاوز مساحة الماء المسوَّرة بالصخور لأواجـه البحر الحقيقى ..

كان هناك جسر خشبى يمتد من الشاطىء إلى مسافة بالبحر ، وعرفنا نحن الثلاثة أيمن وطلال وأنا الطريق إلى نهاية الجسر ، وغامرنا بالقفز إلى الماء ، وذقنا فرحة استقبال الموج لنا ونحن نسقط عليه من مكان مرتفع .

وعرفنا الجانب الأيمن من الشاطىء بعد أن أتقنَّا لعبة القفز .. جذبتنا شلالات الصخور ، وعرفت أقدامنا اللعب عليها ومصارعة أمواجها .

كنا نسبح فى الماء أمام الصخور .. وعندما يقبل المد نترك أجسادنا لتطفو فوق السطح وتحملها المياه برفق فوق الصخور ، وعندما نشعر بأن الصخور قد أصبحت تحت أجسامنا مباشرة نتعلق بها ، ونستوى واقفين عليها ، ونقاوم الموج المتدافع الذى يرتطم بها . نرتاح قليلا ثم نلقى بأجسامنا مع الجزر إلى الماء الهادر ..

كان أغلب يومنا تستغرقه هذه اللعبة . أن يحملنا المد إلى الصخور ثم يعود بنا الجزر إلى موج البحر ، ولم تكن اللعبة تمضى بغير مخاطر . عرفت أجسامنا كل أنواع الجروح الخفيفة والكدمات العنيفة ، ولكننا كنا نعود فى اليوم التالى بنفس الحماس ، مخلفين على الشاطىء كل صيحات الانذار والتحذير التى كنا نسمعها والأهل يضمدون جراحنا ..

هكذا اختلط دمى بماء البحر ، وضمدت أملاحه جراحى ، وعرفت فى وقت مبكر طعم اللذة التى ينطوى عليها الخطر !

سرقنا البحر من عالم الكبار .. أصبحت قنوات الصلة بيننا وبينهم هى الطعام وتضميد الجراح ، وفى اللحظات القليلة التى كانت تجمعنا بهم كانوا يستقبلوننا ثائرين . كانوا يعتقدون أننا نلعب لعبة أكبر من أعمارنا ..

وكنا نواجه ثورتهم بالفرار إلى صديقنا البحر ، ولكن لحظة الضعف الوحيدة التى كانت تجعلهم يتحدثون من مركز قوة كانت حين يكفهر البحر ثم تتصاعد الصرخات ويحتشد المصطافون وينفجر نبأ الغريق .. لقد افترس البحر شخصا ما .

غير أننا وجدنا أسلحتنا التى نواجه بها هذه اللحظات الحرجة .. من حسن حظنا أن أغلب الغرقى كانوا كبارا ، فكنا ندافع عن أنفسنا بأن الخطأ هو خطأ الغريق وليس خطأ البحر ، ومادمنا لا نخطىء فلا خوف علينا .

كان عالم الكبار يقدم لنا الطعام فى أوقاته والنصائح فى أوقاتها ، وكان أبى يشكو مر الشكوى من كثرة استهلاكنا لشرائط التضميد التى كانت تنفد بسرعة على جراحنا

اليومية .. فقد حولنا تضميد جراحنا إلى لعبة ضمن ألعاب الماء . نصاب بالجروح ، نسرع إلى تضميدها بالشرائط المعقمة ، نعود إلى الماء فتنزلق الشرائط من على أجسامنا بالبلل والحركة فنعود نضمدها مرة أخرى ..

ثم عرفت فى البحر متعة الوحدة والانفراد بالنفس ..

عشقت طرقا فى الماء تؤدي إلى أماكن منعزلة حين أبلغها أستلقى على ظهرى ليحملنى الماء والأحلام ..

ولكن هوايتى الجميلة كادت توردنى موارد التهلكة ..

على شاطىء ميامى سبحت مرة حتى وصلت إلى صخرة عالية يسمونها هناك الجبل .. ارتحت قليلا فوق الصخور ثم انطلقت فى الماء بعيدا عن الضوضاء والزحام إلى حيث مكان هادىء أعرفه على يمين الصخرة .

تركت نفسى أسبح وأحلم ، وشعرت أن الأحلام تسبح بى .. انقضت فترة طويلة دون أن أدرك مدى المسافة التى قطعتها ، فقد كنت أترك حركة جسمى على سجيتها ، بينما عيناي مغمضتان لتتجسم الأحلام الوردية التى كانت تفصلنى عن العالم ..

أيقظنى من أحلامى صوت هدير عالٍ ، تصورت لأول وهلة أن قاربا بخاريا يقترب . فتحت عينىَّ لأحدد موقعى من قاطع الطريق على أحلامى وأتفاداه .

كانت المفاجأة مشهد صخور غريبة لم أبلغها سباحة من قبل . تلفتّ نحو الشاطىء فلم أجد أثرا لشىء .. وجدت نفسى فى عرض البحر وحدى مع الأمواج والصخور .. انتابنى رعب قاتل .. كان المكان موحشا والخطر محدقا .. هتف فى داخلى هاتف يقول أننى قد ضعت ، وأن هذا هو غدر البحر ، وهذا هو الغرق فى أعماقه البعيدة عن متناول الغواصين ..

أصابنى رعب قاتل .. استدرت فى الماء نحو الاتجاه المضاد . الاكتشاف المرعب كانت مقاومة الماء العدائية لحركتى . لأول مرة أعلم أن البحر خصم عنيد وأحسست أن صداقتنا غاصت فجأة إلى أعماق لا نهاية لها ..

جمعت أطراف عزيمتى وبدأت المعركة . كنت أشبه بسمكة وقعت فى شباك صيادين لا يرحمون ، كنت أسمع قهقهاتهم الساخرة .

استطعت بجهد جهيد أن أقاوم التيار ، ولكن التقدم كان بطيئا . هل كان البحر يعجم عودى ، أم كان يغدر بى ؟ هكذا أخرجنى التساؤل من حالة اليأس إلى حافة الأمل .

رويدا رويدا عادت لى ثقتى بنفسى ، تحولت القهقهات الساخرة إلى وشوشة غامضة مع ابتعادى عن الصخور ، غير أن الشاطىء كان بعيدا ، والنجاة محفوفة بالمفاجآت .

أخيراً لمحت أطرافا من الشاطىء ، وشد ذلك من عزيمتى ، ورغم الإرهاق زادت قدرتى على مغالبة الماء حتى وصلت إلى الشاطىء فى النهاية ..

لكن هذه الحادثة لم تقطع بينى وبين الأحلام ، كان الحلم فى البحر لذة لا أقدر على مقاومتها .. وتعلمت أن أحلم مفتوحة العينين .

أقنعت نفسى بأن البحر هو الآخر كان يعجم عودي ليمنحنى صداقته الأبدية ، وشيئاً فشيئاً اقتنعت بأن البحر هو أكثر الأماكن أمنا وطمأنينة .. تعرفت أكثر فأكثر عليه ، على زرقته الصافية وعتمته الغامضة .. نزلت إلى قاعه أتحسس رماله النظيفة الناصعة .. اعتادت عيونى على لذعة الملح فيه ، وكذلك اعتاد حلقى .

لعبت بأشعة الشمس تحت الماء ، لعبت بالرمل والقواقع ، وازداد إحساسى بأننى جزء من كائناته المائية ..

لم يكن الخوف يزورنى فى البحر إلا قليلا ، وبالذات حين كنت أدخل أثناء العوم فى منطقة أعشاب كثيفة ، حيث يتحول لون الماء إلى لون زيتونى غامق وغامض . عندئذ كانت تهاجمنى خواطر بأن فى قاع هذه الأعشاب تقبع وحوش بحرية . وكنت أسرع قبل أن يصيبنى الخوف بشلل الماء ، حتى أغادر منطقة الأعشاب بما فيها من أسرار وأخطار . وحين كنت أصل إلى البحر ذى القاع الرملى الناصع البياض فى ضوء الشمس ، أتنفس الصعداء ، وأضرب الماء بذراعىَّ ضربات عشوائية احتفالا بالنجاة ، وأعود أستلقى على ظهرى لأحلم حلما جديدا ..

كنت أحلم بأننى التقيت على جزيرة بعروس البحر ، التى تخيلتها كما رسمها الناس فتاة لعوبا لها ذيل سمكة ، أو امرأة ناضجة ترضع أطفالها بينما زعانفها وذيلها تداعب الماء . وكنت أحلم باللعب مع سمكة الدرفيل المرحة ، بهلوان البحر الذى سمعت عنه كثيرا من الحكايات ولكننى كنت أفزع حين يمتد بى الحلم لألتقى بسمكة القرش المتوحشة ..

ولكن أحلامى لم تكن قاصرة بالطبع على أهل البحر ، فقد كان لأهل البر نصيب .

٢

كنت أعشق ذلك المكان ..
كنت أفضله على البيت وعلى المدرسة ..
ورغم أن بيتنا كان بيتا سعيدا ومريحا .. ورغم أن مدرستى كانت حبيبة إلى نفسى .. إلا أننى كنت أشعر أن حياتى هناك .

ارتبطت بالمكان حتى أصبح هو المحور الذي تدور حوله كل التفاصيل .

دخلته لأول مرة طفلة تحب رياضة السباحة وتأمل الانضمام إلى فريق يخلق منها بطلة ..

كان النادى الذى يضمنا من نوع خاص ..

لم يكن من نوادى الطبقة الراقية .. وأيضاً لم يكن من النوادى الشعبية الطراز ..

كان نادينا وسطا .. يضم خليطا من طبقات مختلفة ..

كان بالنسبة للعائلات الميسورة الحال من الطبقة الوسطى أشبه بالترانزيت إلى النوادى الاستقراطية التى تتحرق شوقا إلى عضويتها .. هو محطة انتظار للحاق بقطار النوادى البرجوازية .

أما أبناء الطبقة الشعبية فكانوا جزءاً من النواة النشطة فى نادينا يتحركون اجتماعيا على استحياء ولكنهم فى مجال الرياضة يندفعون إلى الأمام فيما يشبه التحدى ..

أما الارستقراطيون فأعضاء رمزيون فيه .. وهم عادة ينتمون إلى نواد أخرى تناسب طبقتهم ، يمارسون فيها هواياتهم الرياضية .

يقع النادى على حافة حى شعبى عريق فى القاهرة ، دارت فى مكانه أحداث معركة بين قوات الحملة الفرنسية على مصر وبين أبناء الشعب ..

تراصت المساكن الشعبية البيضاء العالية خارج سور النادى لتعلن عن حمايتها له .. وأيضاً لتكون جمهور النادى الأساسى الذى يشجعه بانتظام ، وعندما تقام على أرض النادى إحدى المسابقات تمتلىء الشرفات بالمشجعين كما تمتلىء الأسوار بشباب المساكن الشعبية .

السور المقابل لهذا السور يقع فى حى آخر جديد ، تسكنه الارستقراطية تنتشر به الفيللات الجميلة ذات الحدائق الواسعة ، حتى أن فيللا بذاتها يمتد جدار حديقتها موازيا ثلثى سور النادى .

ورغم أننى عشت طفولتى كلها وصباى أيضاً أتردد يومياً على هذا النادى إلا أننى

لا أعرف بالضبط حقيقة هذه الفيللا !

هل هى فيللا لمخرج كما يقال ، أم هى لرجل ثرى عجوز يعيش بمفرده ؟

وكل ما أعرفه أننى لم أرولو لمرة واحدة طوال هذه الفترة أحد سكان هذه الفيللا .. وكنا نطلق عليها « الفيللا الغامضة » .

السور الثالث يطل على شارع هادىء ، يفصل النادى عن مستشفى كبير هو جزء من الحى الارستقراطى ، وعلى بعد خطوات من النادى يمتد النيل الذى يفصل بين الحى الشعبى وبين أرقى أحياء القاهرة .

يقع باب النادى فى الحى الهادىء .. والبناء الرئيسى مكون من طابقين :

الطابق الأول يضم مكتب مدير النادى وصالة الاستقبال و البدالة والمطعم وصالونا شتويا واسعا وشرفة عريضة ..

أما الطابق الثانى فيضم المكتبة وصالة البلياردو وشرفة كبيرة تستخدم أحيانا كمكان لأحياء الأفراح ..

من الشرفة فى الطابق الثانى نرى حمام السباحة وهو حمام صغير طوله خمس وعشرون متراً ، مقسم إلى ثمان حارات ، يعلوه برج الغطس ، وهو بناء مقسم إلى ثلاثة طوابق على ارتفاع خمسة وسبعة وعشرة أمتار على التوالى .

أحد جوانب الحمام بني على شكل مدرجات حتى تسمح لأكبر عدد من المشاهدين بمتابعة السباقات ..

تقع غرف خلع الملابس أسفل هذه المدرجات ، أما جسم الحمام نفسه فهو يقع فوق صالات لعبة كرة المنضدة والمصارعة ، ومخازن الأدوات الرياضية ..

المياه فى الحمام لونها أخضر زرعى فى ضوء الشمس ، تتحول مع ارتحال الشمس عنها إلى لون الزيتون ، ثم إلى لون العشب الداكن الذى ينمو فى قاع المحيطات والأقرب إلى لون الليل ..

تبدو المياه ثقيلة إذا نظرت إليها من أى مكان ، تماما كمياه النيل . كان يخيل إلىّ كلما نظرت إليها أنها جسم يصعب زحزحته عن مكانه وحتى إذا نظرت إليها من ارتفاع عشرة أمتار من فوق برج الغطس فإنك لن ترى قاع الحمام فى هذا الجزء ، بل سترى انكسار أشعة الشمس إلى فراغ .

جاء هذا اللون من ركود الماء ، لأن الحمام لا يحتوى على فلتر لتنقيته ، ويلجأ المشرفون على نظافته إلى تغيير الماء . بشكل دورى يوم الاثنين من كل أسبوع ، وإلى أضافة مادة الكلور المطهرة وكبريتات النحاس الخضراء إلى المياه يوميا .

حافة الحمام يمر بها أنبوب من الألومنيوم مثقوب على أبعاد متساوية ، تخرج منه المياه ؛ ليتحول الحمام إلى نافورة جميلة ، ينطلق الماء من جميع جوانبها ؛ ليصب فى القلب

ويحدث هذا فى المناسبات فحسب ..

كان حمام السباحة يعكس التركيب الاجتماعى للنادى الصغير .. فقد كان فريق النادى يضم عددا من أبناء الطبقة الجديدة التى تزاحم الارستقراطية التقليدية .. ولكنه يضم أيضا بعض أبناء الطبقات الشعبية .

على يسار حمام السباحة تقع الحديقة الرئيسية تتناثر بها مناضد متباعدة يستعملها عادة الأعضاء من غير اللاعبين ، وذلك لأن أعضاء كل فريق يتواجدون دائماً فى أرض ملعبهم حتى فى أوقات الراحة .. كانت المناضد تظلها فى الصيف مظلات بهيجة الألوان ..

تنتهى الحديقة إلى ملعب كرة القدم وهو ملعب صغير يستغله فريق من دورى الدرجة الثانية هو فريق النادى . خلف مدرجات الملعب تراصت خانات بنيت من الأسمنت على شكل ممرات لتشكل ملعب الجولف .

كان نادينا الصغير بسيطا ....
يوحى بالسلام على عكس الأندية الكبيرة ....

ورغم أن مساحته كانت قليلة إلا أنه لم يكن يعطى الإحساس بالازدحام ..

البساطة كانت طابعه السائد ، وخاصة أن النادى كان يخلو من المجتمع النسوى الذي يشكل عصب أندية الارستقراطية . ذلك أن كل عضو بالنادى كان يمارس لعبة .. ولم يكن هناك متسع من الوقت لثرثرة لا طائل تحتها إلا التنغيص على الآخرين .. لم تكن الشائعة من سمات النادى الصغير ولا حكايات التجريح والنميمة . كان الشباب قد طبع النادى بطابعه ، مرح وقصص حب بريئة ، وغالبا مكتومة ، لهذا يمكن القول أن النادى الصغير قد استطاع المحافظة على الهدف الأصلى من المنتديات وهو أن تسود الروح الرياضية ، وأن يكون رئة اجتماعية صحيحة فى أوقات الفراغ للجنسين ..

كان لشلل الشباب فيه تقاليد وقوانين غير مكتوبة ..

كان من الممكن لقصة حب أن تظل محصورة فى حدود شلة معينة . الجميع يحافظون على أن تبقى سراً ..

كانت المعاكسات المألوفة فى النوادى الكبيرة والاقتحامات كلها مرفوضة من مجتمع النادى الصغير ..

الحب الرومانسى كان هو الشيء الوحيد المشروع والصداقات البريئة الصحيحة بين الشباب ..

بدأت شيئاً فشيئاً أندمج فى هذا الوسط الجديد بعد أن كنت أرقبه من بعيد ..

كنت مشدودة أول الأمر إلى حمام السباحة ، فقد كان التدريب عليها هو السبب الذى من أجله تدخل والدى ليلحقنى « بالنادى الصغير » . ذلك أن « نادينا الكبير » لم يكن قد

انتهى من بناء حمام للسباحة بعد ، ولم أتحمل الصبر حتى ينتهى بناء الحمام ، ولم يتحمل أبى الحاحى ..

تلك كانت بداية قصتى مع النادى ..

تخطيت الحواجز حاجزا بعد حاجز ، وتعرفت على المراقب الصباحى للحمام عم « أحمد » وكانت مسئوليته هى تدريب الأطفال الذين لا يحسنون السباحة ، وتصحيح أخطائهم فى فترة الصباح .. التحقت بهذه المجموعة ..

كان عم أحمد رجلا فى الخامسة والستين من عمره ، بدينا ثقيل الحركة ، طيب القلب ، له وجه أحمر وملامح تصلح لوجه شرير شرس ، ولكنه فى الحقيقة كان شيئاً آخر .

واظبت على التدريب فى حماسة ، وكان عم أحمد يقف على حافة الحمام ويطلب منا أن نسبح بعرض الحوض مع انطلاق صفارته ، وبالتدريج بدأت أشعر بانتظام حركة جسمى فى الماء وبتناسق هذه الحركة . وهو دين حملته فى عنقى لأول مدرب بعد والدى ..

ولكننى لم أكن أكتفى مثل أغلب الأطفال بفترة التدريب تحت اشراف عم أحمد ، كنت أستمر فى الحمام ، وأقوم بنوع من التدريب الذاتى ، وكنت أجد متعة فى ذلك ..

كنت أستعد لأكون بطلة ..

بعد فترة قصيرة اتسعت علاقاتى لأتعرف على سمير وسعيد وسلوى ، كانوا أخوة . كانوا يكبروننى بقليل . وهم أعضاء فى الفريق الأساسى الذى يشرف عليه كابتن فكرى ..

كان أبى هو الذى قام بواجب التعريف ، فقد كان الثلاثة أبناء صديق قديم له من الوسط الرياضى ، كنت أسميهم الثلاثى المرح ، ومن خلال علاقاتهم الواسعة دخلت عالما أرحب هو عالم الفريق الأساسى ..

فى عالمى الجديد استمعت إلى أول حكايات الكابتن فكرى . وقبل الحكايات كانت الصورة التى رسمها أعضاء الفريق لشخصية الرجل : صارم ، دقيق فى تنفيذ تعليماته ، يعقد للفريق اجتماعات يومية ، يلقن أبناءه تعاليمه عن الرياضة ، ولكنهم تحدثوا أيضاً عن عقوباته الشديدة إذا أخطأ أحد أفراد الفريق ، ودماثته ومكافئاته للذين ينفذون التعليمات ويتقدمون فى التدريب .

لخصوا علاقتهم به فى كلمتين : الخوف والحب ..

بهرتنى شخصية كابتن فكرى ، كنت أرقبه وهو يدرب فريقه بعد الظهر وأمنى النفس بأن أصحح أخطائى ليقبل عضويتى فى فريقه ..

كنت أتابع تدريبهم اليومى لأتعلم .. كنت أتجسس عليهم فى الماء . وأسأل عن سبب فوز الواحد منهم على الآخر .. كنت أشفق عليهم وهم يسبحون وفى أيديهم خشبات عريضة أحيانا ، وفى أقدامهم حبال معقودة أحيانا أخرى ، وفهمت أن هذه كلها وسائل مجربة لتقوية العضلات ..

كنت أقلدهم فى تدريبى الخاص ، وأستخدم نفس الوسائل بعيدا عن رقابة عم أحمد ، وكم شر ت من ماء الحوض خلال تلك المحاولات ولكن الأمل فى الانضمام إلى فريق الكابتن فكرى كا ن يجعل الصعب سهلاً .

وانقضت شهور العام الدارسى ، وأقبل موعد السفر إلى الأسكندرية واستقبلنى البحر بترحابه المعهود ، ولكنه لم يكن هذه المرة هو الصديق الوحيد ، كان حمام السباحة يزاحمه فى قلبى ..

استمتعت بالبحر أكثر .. وقد تحسن أسلوبى فى السباحة ، ولكن فترة الصيف مرت وكأنها فترة تدريب استعدادا للالتحاق بفريق الكابتن فكرى ..

عدنا من الاسكندرية ، وفى اليوم التالى لعودتنا أسرعت إلى النادى . كان فريق السباحة فى حالة استرخاء ، فقد كانت بطولة الجمهورية للسباحة قد انتهت ..

قصدت إلى الكابتن فكرى أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، وكأنه أدرك سبب ارتباكى فشجعنى بابتسامته وأخبرته أننى أجيد السباحة وأتمنى الانضمام إلى الفريق .

أجابنى بمفاجأة سارة ، كان يعرف أعضاء مجموعة عم أحمد ، يتابعها من بعيد ويتسقط أخبارها من المدرب العجوز وقال إن المتفوقين منهم سينضمون إلى الفريق الأساسى مع بداية الأسبوع . طرت من الفرح حين عرفت أننى ضمن هؤلاء المتفوقين ..

بدأت أحضر اجتماعات الفريق حتى قبل أن يبدأ التدريب ، وبذلك اقتربت أكثر من كابتن فكرى ..

كانت الحلقة تبدأ بعد التدريب ، وتتسع إلى أن تكتمل ، بعدها يصل كابتن فكرى . نحيف ، أسمر اللون ، متوسط الطول ، له الملامح السائدة لأهل أسوان ، العيون السوداء والأنف الصغير الحاد ، والخدود الغائرة ، تميّز وجهه أسنان طويلة تظهر بكامل طولها عندما يضحك ..

نلتف جميعا حوله مجرد وصوله ، وكان يبدأ اجتماعه بتفقد الحاضرين والغائبين ، يتوجه أولاً بالحديث إلى أعضاء الفريق الصغير على سبيل التشجيع ، ثم يتناول بحديثه ملاحظات على تدريب اليوم للفريق الكبير ..

فى البداية ، كانت المناقشات فنية لا أفهم منها غير القليل ، أغلبها عن الأخطاء . بعد ذلك ينتقل بلباقة إلى موضوعات عامة تتعلق عادة بالقيم الرياضية والأخلاق الشخصية ..

كان يلتقط هذا التصرف أو ذاك من أحد أعضاء الفريق ويبدأ الدرس ، ومن خلال الدرس تتجسم ملامح السباح المثالى كما يراه ..

كانت ممنوعات كابتن فكرى كثيرة وكان الفريق الأساسى يتقبلها صاغرا .

فى البداية ، لم أهتم كثيراً بممنوعاته ، كانت فرحتى بالانضمام إلى الفريق تغطى كل شىء ، وفهمت أن السباح المثالى هو الإنسان الذي يسقط من حسابه كل شىء فى الحياة

يتعارض مع البطولة ومقتضياتها سواء أكان الأمر يتعلق بالعلاقات الشخصية أو الاهتمامات والهوايات والعادات ..

كانت السباحة كرياضة هى الحياة فى نظر الكابتن ، وكان يرى أن كل ما يبعد السباح عن السباحة والفوز هو أمر ممنوع ولا أخلاقى من وجهة النظر الرياضية ..

كان يتحدث عن ممنوعاته كأنها بديهيات ، ويلقى بملاحظاته على أنها أوامر ، وبهذا كان ينتهى الاجتماع اليومى .

حين بدأ تدريب مجموعة الأطفال اكتفى كابتن فكرى بقائمة ملاحظات قصيرة لنا .. كان علينا أن ننام مبكرين ، ونستيقظ مبكرين ونهتم بالتغذية الجيدة .

كان فريقنا الصغير يتجمع كالعصافير على الحب عند حافة الحوض قبل موعد تدريب الفريق الكبير بساعة ، وكانت قلوبنا تقفز طربا حين نسمع صوت الكابتن فكرى وهو يقول : خمسون مترا حرة . خذ مكانك استعد . هوب .

لم يكن هناك جديد علينا بالنسبة لهذه الطريقة فى السباحة فإن السباحة الحرة هى السباحة التى اعتاد عليها الناس . الجسم مشدود والأرجل تضرب الماء ضربات منتظمة لتدفعه إلى الخلف ، بينما تقوم الأيدى بسحب موجات أخرى من الماء فى نفس الاتجاه . بعد نصف ساعة يأتينا صوت الكابتن فكرى قائلا : عروض .

ونسرع لنسبح بعرض الحمام ، وكانت هذه الطريقة هى أسلوب الكابتن فى منحنا قدرا من الراحة قبل نهاية التدريب ..

مع فريقنا الصغير كان كابتن فكرى شديد المرونة ، يتركنا نثرثر أثناء التدريب ، ونطلق صيحات الفرح حين يطلق هو نداءه الثانى الذى يحمل الينا بشرى الراحة ... غير أن الأوامر سرعان ما بدأت تقتحم حياتنا .

بالتدريج غير الملحوظ بدأ كابتن فكرى يشدد قبضته على عودنا الغض ..

بدأ بالتنبيه على من يثرثر بالسكوت ، ثم أصدر أمراً مشدداً بمنع الكلام أثناء التدريب ، وأصبحنا نتجاذب الكلمات خلسة وفى همس .

كانت معلوماتنا عن السباحة تزداد من خلال معاشرتنا للفريق الكبير ، عرفنا مثلا أن السباحة أنواع وأن كل سباح عليه أن يتخصص فى نوع من السباحات الأربع المشهورة ، واكتشفنا أن الفريق الكبير يعوم على شكل مجموعات ، كل مجموعة حسب الطريقة التى تخصصت فيها ، وأن التعليمات التى يصدرها الكابتن تنفذها كل مجموعة بشكل يختلف عن المجموعة الأخرى ..

وبدأنا نكتشف أن بيننا أبطالا يشار إليهم بالبنان على مستوى الجمهورية ، وأن هؤلاء هم النجوم الذين نطمح إلى أن نكون مثلهم ..

ومع ازدياد معرفتنا ازداد ارتباطنا بالحمام وازدادت حماستنا ، ومع ازديادها كانت

قبضة كابتن فكرى تزداد احكاما حول حركاتنا وسكناتنا .. باختصار بدأنا ندخل تحت طائلة قانونه..

بدأ الخريف يزحف وبدأت الدراسة .
فى الشهر الأول لم تكن هناك مشكلة ، كنا نخرج من المدرسة إلى النادى مباشرة ويبدأ التدريب . ولكن عندما بدأت الدراسة تنتظم وتبتلع كل النهار اقتصر حضورنا نحن أعضاء الفريق الصغير على عطلة الجمعة فحسب ..

كنا بين مواعيد التدريب الأسبوعى يتصل بعضنا ببعض بالتليفون أو نتزاور زيارات قصيرة ، وفى يوم الجمعة كان التدريب ينتهى عادة بجلسات عائلية بيننا نحن الصغار والآباء والأمهات .

انقضى الشتاء وأقبل الربيع ، واقتضى الاستعداد للامتحانات أن ننقطع فترة قصيرة ، عدنا بعدها مع بداية الأجازة الدراسية وقد ازداد حماسنا ..
فى تلك الأيام تلقيت أول الصدمات من الكابتن
كنت أحب عقود الخرز والأساور الصناعية والخواتم وأتحلى بها .
بدأ التلميح ، ثم السخرية ، ثم استخدم الأمر القاطع .. ولكننى سرعان ما تغلبت على حسرتي ورضيت بما قرره أستاذى .. وهكذا تخليت عن شىء كان يدخل السرور على نفسى .
كان يسخر من استخدام الماكياج ويستخدم فى ذلك كلمات تثير الضحك .
بالطبع كان موضوع الماكياج يخص الفتيات وليس صغار السن من البنات .
كان يقول مثلا : لا داعى لهذا « البروكير » يقصد صبغة الأظافر ، وكان يلفت الأنظار ساخرا إلى كل فتاة تستخدم الماكياج ، وكان القدر الأكبر من سخريته يصيب سلوى وعصمت وهناء وليلى .

غير أن ملاحظات الكابتن فكرى لم تقتصر على استهجان الماكياج . بدأت انتبه إلى تعليقات يطلقها فى أعقاب كل علاقة يلحظها بين فتى وفتاة .
كان يشرح موقفه بقوله : مفهوم أن يجتمع الفتى والفتاة على هدف عظيم مثل السباحة ، أما الأهداف الصغيرة فهى فساد .

كان مجتمعنا نحن الفتيات الصغيرات يتسلل إلى مجتمع الفتيات الأكثر نضجا وما يدور من همس بينهن حول علاقات الاعجاب بالفتيان ..
فى هذه المسألة كنت أتحمس لملاحظات الكابتن فكرى وأنقلها باعجاب إلى البيت .
كنت فى السن الذى يسهل فيه أن تقتنع الفتاة الصغيرة بمثل هذه الأفكار .. وهكذا استسلمت كأننى تحت تأثير مخدر ، لوصاياه ..
وراحت قبضته تتقلص على أعناقنا نحن الصغار رويداً رويداً .

أصبح يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة من شئوننا ابتداءً من الاعتراض على ضيق البنطلون وقصر البلوزة ، إلى وقوفنا على ظهر الحمام بالمايوه . ويطالبنا بعدم خلع « الترينج سوت » (بدلة التدريب) إلا قبل النزول إلى الماء مباشرة .

غير أن تعليماته تسللت إلى حياتنا المنزلية الخاصة . وأصبح يزاحم الوالدين فى صنع أسلوب هذه الحياة : ممنوع مشاهدة برامج التليفزيون ، ممنوع مصاحبة الوالدين إلى الزيارات العائلية ، وممنوع مصاحبة الأم إلى السوق أو مساعدة الأم فى المطبخ ، كذلك حظر حضور الحفلات العائلية والأفراح لأنها تمتد عادة إلى وقت متأخر وهى مجال للثرثرة بين السيدات بما لها من تأثير سيء علينا ..

باختصار كان الكابتن فكرى يقول إن كل مجهود أو اهتمام خارج حدود الفصل الدراسى وحمام السباحة هو خيانة للنيم الرياضية .

أصبح هو الآمر الناهى فى النادى والبيت ، وتكسرت أمام أوامره كل التوجيهات التى كانت قبل ذلك من حق أبى وأمى ..

أصبحت السباحة هى المحور الذى تدور حوله حياتى ..

والسباحة كما علمنا كابتن فكرى هى المكسب والخسارة والمنافسة الشريفة والتغلب على الطبيعة وأن يكسب الجسم كل يوم قدرة جديدة ..

غير الرياضة والدراسة ليس هذه إلا هامش الحياة ، مثل العلاقات الاجتماعية والاهتمامات الفنية وما يشغل الفتيات فى مثل سننا عادة ..

بدأت حياتى تتشكل وتتحرك بسلاسة على مسارها الجديد . تحولت تعليمات كابتن فكرى إلى عادات سرعان ما بدت لنا طبيعية واحببناها .

كنت أذهب إلى النادى فى الساعة الثامنة صباحا ، وأمارس التدريب الذى يشرف عليه واحد من فتيان الفريق الأساسى ، بعدها أعود مباشرة إلى البيت ، وفى الثالثة ظهرا أعود إلى النادى ليبدأ التدريب المسائى ..

ولم تكن ساعات بقائنا فى النادى يشغلها كلها التدريب . كنا نتحلق حول كابتن فكرى ويروح يشرح لنا الفرق بين فريقنا وفرق الأندية الأخرى وكان هذا حديثه المفضل .

كان رأيه أننا نلعب للرياضة المجردة لا نبحث عن جمع النقط فى السباقات العامة بين الأندية ، بغض النظر عن المكسب والخسارة ..

« اللعب للعب » كان هو شعار فريقنا ، وهكذا عشقت هذه الصورة المثالية ، وارتاح إليها عقلى الخيالى الحالم ..

كان الكابتن فكرى يتحدث بلغة الاشمئزاز عن النوادى التى تخرج على فلسفة اللعب للعب ، وعن اللاعبين الذين يحترفون .. وساعدت أحداث لعبة كرة القدم فى ذلك الشتاء على حسم القضية .

اعتدت أن أشاهد مباريات كرة القدم فى الملعب . اليوم مباراة هامة ، صراع على القمة بين بطلى الدورى . تقاطرت مجموعات الجماهير منذ الصباح الباكر . تركنى أبى مع أخى فى المدرجات بعد أن أوصانا بعدم مغادرة أماكننا بسبب الزحام ، ونزل إلى أرض الملعب ليتابع استعداد فريقه ، تعالت هتافات الجماهير . موجة من الفرح الشعبى عمت تحاول أن تغطى القلق الذى ينام فى الاعصاب منذ أيام .

نزل الفريقان . سجل فريقنا هدفاً أشعل الحماس فى قلوب مشجعيه ، حملنى أحد الجالسين بجوارى ورقص بى ، وفعل آخر مثل ذلك باخى .

لم نستمتع كثيرا بالانتصار وسجل الخصم هدف التعادل واحتبست الأنفاس . كرة من هنا وأخرى من هناك ، زاد الاضطراب كلما مرت دقائق المباراة حتى أن الجمهور وقف مع كل شوطة كرة . تعالت الصرخات تنادى اللاعبين أن هموا واحرزوا هدفا .

رحل لاعبنا بالكرة ، تحاور مع مدافع الخصم ، ثم انفرد وحيداً بالمرمى وسط وجوم كامل من مشجعى الناديين . الكل خائف من النتيجة ، سجل هدف الفوز ..

إنفجر الملعب بالرقص ، تعالت ضجات الطبول ... لم أفهم لماذا يركض الناس نحو الملعب ، سألت أخى . لم يرد . طارت قذائف الحجارة والزلط ، أحاط البوليس . باللاعبين ، اشتعلت الحرائق فى المدرجات . تعالت صيحات الخوف من السيدات والأطفال وصيحات الغضب التى لا أعرف مصدرها تشكك فى صحة الهدف . ضاع الفرح من وجوه الناس ، حاول البوليس منع الجمهور من القفز فوق الأسوار دون جدوى . اختفت صفارات الإنذار التى يطلقها الجنود وسط الصخب العالى ..

جريت وأخى نحو الباب الموصل لأروقة النادى نفسه وجدناه مغلقاً ، دفعتنا الجموع دفعا إلى الطريق العام ، ركض الناس وخلفهم عصى البوليس واحزمتهم التى استعملوها فى التفريق .

— أخى .. ؟

— أركضى بسرعة نحو البيت فلن نجد أبانا فى هذا الوقت . امسكت بيده بقوة ، سمعت صيحة رعب تقول ابتعدا ستنقلب السيارة ، لم أعرف مصدر النداء ، هالنى مشهد العربات المقلوبة أمام باب النادى ، والعربات الأخرى التى يحاولون إحراقها ، ركضت قدر ما استطيع ، وقفت التقط الأنفاس ، دفعنى جندى يحمل فى يده سوطا أو شيئاً يشبهه ، لم أفهم سر دفعه لى ، سببته وأنا أبتعد .

حمل الجنود الحجارة يضربون بها الناس وتبادل الجميع القذف ، وقع البعض ، داستهم الأقدام . تمنيت أن أصل إلى البيت بسرعة ، دمعت عيوننا وراحت صدورنا تختنق تحت الدخان الكثيف للقنابل المسيلة للدموع ، ولم نكن وحدنا الذين نحاول الفرار من أرض المعركة ، كان الناس فى الشوارع يبتعدون بسياراتهم من المنطقة قبل أن تصاب ، واصطفت العائلات فى شرفات المنازل ، تطايرت الأحجار تهشم واجهات المحلات

وأصحابها يستميتون فى محاولة إدخال البضائع وإغلاق الأبواب . موجة غضب مجنون وتعصب أعمى أخرج كل ما فى الإنسان من بدائية وهمجية ، وضاع وسط الأحداث الفن واللعب والجمال التى افتخر بها الإنسان على سائر كائنات الطبيعة ..

ولم يكن أى من الموجودين فى الشارع فى تلك اللحظة يعرف لمن يوجه ضرباته ولماذا ؟

وصلت إلى البيت بصعوبة ، لم يكف التليفزيون طوال المساء عن إعادة عرض الهدف والتعليق عليه بأنه هدف صحيح ، ولم تكف أصوات سيارات البوليس عن التجول فى الشوارع . اظلمت الدنيا فى وقت مبكر ذلك المساء ، وخلّفت المعركة وراءها أشلاء سيارات وبقايا حرائق ودخانا أسود يلف أسوار النادى ومدرجاته ، وبات المكان وكأنه ميدان معركة انتهت بهزيمة الطرفين وغصة فى القلوب جميعها .

بدت لنا الرياضية على هذه الصورة أقرب إلى الصراع بين القبائل الهمجية . وزاد تعلقنا بنظرية كابتن فكرى عن « اللعب للعب » بعد أن رأينا الصورة البشعة للنظرية التى تعاكسها ..

ساعد الواقع الكابتن وزاد استسلامنا لتعاليمه نطبقها فى النادى والبيت والمدرسة والطريق ..

ولكننا اكتشفنا أن عالمنا الخيالى القائم على حافة هذه البحيرة الصناعية .. حمام السباحة كان يضم عدداً لا بأس به من المارقين والخارجين على القانون .

كانت اذاننا الصغيرة تلتقط ونحن فى غرفة خلع الملابس همسات وضحكات وحكايات بين الفتيات تشير إلى وجود علاقات غرامية بين بعضهن وبعض الفتيان ، وكنا نستشعر نحن الذين نقدس الكابتن فكرى أن مجتمع الفتيات والفتيان لا يحمل له نفس المشاعر ودرجة التقديس .. كنا نلتقط بعض عبارات الضجر وتعبيرات الغضب وكلمات السخرية من الأوامر والنواهى التى كنا نحن نعتبرها فوق النقد والتجريح .

كان ذلك يدعونا إلى الدهشة ، فقد كان كابتن فكرى يحب فريقه من السباحين الكبار ، يكاد يعيش معهم كل ساعات راحته القليلة ..

كان يعمل صباحا فى إحدى الشركات ، وبعد الظهر يكرس حياته للنادى ، ولا يرى خارج النادى إلا بصحبة أبنائه من اللاعبين ، يتناولون الغذاء فى بيت أحدهم ، أو يسهرون مساءً فى بيت آخر ، ويتواعدون لقضاء مصالحهم خارج النادى جماعة ، وهو عادة لا يعود إلى بيته إلا بعد أن يكون قد أرهقه التعب وحان وقت النوم .

كان يطبق شعاره الذي يحلم به أمامنا بصوت عال :

– أمنيتى فى الحياة غرفة على بعد خطوات من الحمام وان أعيش وأموت على ظهر الحمام !

كم كانت دهشتنا عندما لمسنا شيئاً فشيئاً أن هناك خوارج على تعاليم كابتن فكرى التى

نؤمن بها وربما لأول مرة فى حياتنا نكتشف معنى المخادعة ، فقد كان الكبار يظهرون غير ما يبطنون فى علاقتهم به ، وكان هذا يؤذى شعورنا نحن الصغار .

غير أن هذا التركيب المزدوج لأبناء وبنات كابتن فكرى سرعان ما تغير .

كان فريق الكبار يدخل مرحلة التفكك من تلقاء ذاته . ودفعة واحدة ، نجح أغلب الفتيان فى امتحانات الثانوية العامة ، والتحق أغلبهم بالكليات العسكرية ، ولم نعد نراهم إلا على فترات متباعدة ..

أما الفتيات فقد تفرقن بطريقة أخرى . تزوجت سعاد واعتزلت عصمت ولحقت بها هناء ..

ومع نهاية ذلك الصيف فقد كابتن فكرى فريقه الأثير لديه ، وفى نفس الوقت انتشر فى النادى نبأ ترشيحه للسفر إلى « ليبزج » فى دورة دراسية للسباحة . وقبل الرحيل قدم بنفسه إلينا كابتن « متولى » المدرب الذى تقرر أن يحل محله فى تدريبنا ..

هكذا رحل كابتن فكرى ، ورحلت معه مرحلة من حياتنا فى النادى الصغير ، ودخلنا مرحلة أخرى ..



الفصل الثاني

١

كان كابتن متولى هو نقيض كابتن فكرى ...

تفككت القيود الحديدية على يديه شيئاً فشيئاً ، وانطبق علينا المثل القائل « غاب القط العب يا فأر » ، وطوال الفترة التى غاب فيها القط عن النادي ، استمتعنا بحياتنا بغير قيود ..

بالصدفة بدأت مرحلة كابتن متولى مع طفرة جديدة في حياتي . فقد قررت أن أستمر في التدريب خلال الصيف وأن أتحمل حرمانى من رحلة الصيف السنوية مع أسرتى إلى شاطىء الأسكندرية ..

لأول مرة ينتصر حمام السباحة على البحر ..

كنت أشعر أننى أقترب بسرعة من مستوى اللاعبين الجيدين ، وقررت ألا أترك هذه الفرصة تفوتنى ، اعترضت الأسرة ولجأت إلى جدي وهو رياضي قديم ، وسرعان ما انحاز إلى جانبي .

كان جدي في زمانه بطلاً مشهوراً في المصارعة ، وعندما اعتزل اللعبة أصبح حكماً دولياً . كان قد شجع أبناءه على ممارسة الرياضة منذ طفولتهم وصنع منهم أبطالاً . وكان أبى وهو أكبر أبنائه بطلاً في الملاكمة ولاعب كرة قدم معروف .

قال جدي لأبي :

ــ هل حرمتك من فرصة اللعب وتحقيق البطولات ؟

أجاب أبي :

ــ بل شجعتنى على ذلك ..

قال جدى : واستمتعت بممارسة الرياضة وعرفت لذة النصر والمنافسة ؟

وأجاب أبي بالإيجاب :

وانفجر جدي ربما لأول مرة فى ثورة على أبي . وتراجع أبي بعد أن قال له جدي :

ــ اتركها لي وسأعرف كيف أصنع منها بطلة مثلما صنعت منك بطلاً ..واستسلمت الأسرة آخر الأمر ،وهكذا قسمت وقتى ذلك الصيف بين بيت جدي في المساء والنادي طول اليوم ..

كان القط قد غاب ، وقررت أن ألعب كما يلعب الفئران في غيابه ..

كان أول قيد نحطمه هو قيد الحجر على الصداقة ..

فقد كان كابتن فكري يحرم عقد العلاقات بيننا وبين أعضاء النادي من غير لاعبي الفريق .

أصبح لنا أصدقاء من فتيات وفتيان النادى يربط بيننا تقارب السن وحبنا للماء .. كنا جميعاً في المرحلة الإعدادية أو بداية المرحلة الثانوية . وكان كابتن متولي قد فتح باب الانضمام لعدد كبير من الفتيات والفتيان بحيث أصبح الفريق جيشاً من السباحين سعيداً ومرحاً ..

تحت إشراف كابتن متولي كان يومنا يبدأ بالتدريب الصباحي ، ثم يمتد اللعب في الماء ساعات طويلة مرحة . وبدأنا نجمع كلمات أغانى عبد الحليم ونجاة وعبد الوهاب ، وأضيف إلى كراستنا المدرسية كشكول الأغاني العاطفية ، وأصبح من المناظر المعتادة على سطح الحمام أن نتجمع في ركن لنغنى الأغانى الجديدة .. بدأنا بصوت منخفض ، فقد كنا أشبه بالكتاكيت التى خرجت لتوها من القشرة ، ثم بدأ صوتنا يلعلع فى أنغام جماعية أشبه بأنغام الكورس .

خرجنا من قفص الدجاج ، أي أسوار النادي ، واتسعت علاقاتنا لتمتد خارج هذه الأسوار . كنا نخرج جماعة بعد انتهاء التدريب واللعب لنتسكع في شوارع وسط البلد التجارية ، نثرثر بصوت مرتفع ونرتاد السينما أحياناً ونتناول وجبتنا ساندوتشات على قارعة الطريق ، حتى يحين موعد تدريب المساء فنعود لنجد كابتن متولي يستقبلنا ببشاشته المعهودة ليبدأ التدريب الشاق .

أصبحت لنا عاداتنا المشتركة ، نشترى ملابسنا جماعة ، ونتعامل مع خياط واحد ، وبقوة الجماعة أصبح في مقدورنا أن نختار الثياب ذات الألوان الفاقعة والموديلات الغريبة وبذلك كنا نتفادى الانتقاد الذي ينصب عادة على الفرد الشاذ ويتراجع إذا واجه المجموع ..

كان فى داخلنا شعار غير معلن هو أن الاتحاد قوة . وهكذا ترك بعضنا شعره ينمو في حرية ، وتعلمنا شد الشعر حول الرأس بواسطة المشابك ، والبقاء فى غرفة خلع الملابس بعد التدريب فترة طويلة فى انتظار أن يجف الشعر ويصبح قابلاً للتصفيف في هيئة جميلة ..

وقبل هذا كنا قد اكتشفنا نادينا لأول مرة ، وتعرفنا على أنشطة الفرق الأخرى ، وحضرنا مباريات الملاكمة وكرة السلة ، وعرفنا الطريق إلى ملعب هوكي الانزلاق المثير ، واكتشفنا صالة البنج بونج وأصبحنا من روادها ..

كل هذه كانت محرمات من قبل . كانت مضيعة للوقت ومفسدة لبناء الجسم ، ولكن كابتن متولى لم يكن يتدخل بالمنع أو القمع وكان يكتفى بتدريبنا في هدوء وسلاسة ، وكنا نشعر رغم ذلك أننا نتقدم في لعبتنا ..

تحطمت مع القيود أغلفة الكلفة بيننا وبين أفراد الفريق من الأولاد . وانتقلت موضوعات الحديث بيننا وبينهم من أرقام السباحة وقصص أبطالها إلى موضوعات الحياة الأخرى التي تهم من هم في سننا ..

كنا ندخل في تلك الأيام عالم المراهقة بكل ما فيه من عظائم الأحلام وتوافه الأمور ، وغرائب الهوايات ، وطرائف الاستعراض ومطاولة الكبار فى شئون الحياة والحب ..

وبدأنا نلاحظ بأنفسنا العلاقات العاطفية التي تنشأ بين فتيان النادي وفتياته ونتناولها بالحديث فيما بيننا بعد أن كنا نتسقط الأخبار من الهمسات التي تدور بين فتيات الفريق الناضجات في غرفة خلع الملابس ..

كان أول عهدنا باكتشاف حقائق الحياة العاطفية للكبار قصة انفجرت في النادي ..

كانت سامية فتاة رقيقة لا تنتمى إلى فريق بعينه ولكن كان لها وجود ملحوظ في النادي ، ولم يكن أحد يتصور أن لها قصة حب خاصة ..

فجأة لقى أحد لاعبي فريق كرة السلة بالنادي مصرعه في حادث وكان شخصية محبوبة جداً لدماثة خلقه وكفاءته الرياضية ضمن الفريق ..

عقب مصرعه مباشرة ظهرت سامية في النادي كأنها طيف حزين يرتدي ثوب الحداد .لم تستطع أن تخفى فجيعتها وأفصحت أكثر من مرة عن لوعتها بالبكاء المر ..

هكذا كشفت عن سرها وتناقل الجميع قصة حبها الذي ظل مكتوماً حتى أعلن عن نفسه تحت وطأة الألم ..

كانت هذه أول قصة نشارك فى اكتشافها خارج غرفة خلع الملابس وندلي بآرائنا الساذجة فيها ..

موقف سامية الذي يمثل ذروة الرومانسية هو ما جذبنا إلى القصة ، أعجبنا هذا الأعلان الصارخ عن الحب بعد فقدان الحبيب . وجدنا فيه قمة الشجاعة وذروة الاخلاص . وكان منظر سامية بوجهها الحزين وثوبها الأسود وبكائها الذي لا تخفيه عن أحد رمزاً لأصدق أنواع الحب في نظر جماعتنا الصغيرة ..

ثم جاءت قصة أكبر أفراد الفريق سناً ، فقد اكتشفنا أنه يحب « ولاء » إحدى فتيات النادي ،فقمنا بتوزيع مهمة مراقبة اللقاءات بدعوى أننا نضحك ونسخر من هذه العلاقة ، بينما كان الواقع أن كلاً منا في قرارة نفسه كان يمنى النفس بقصة حب مشابهة ..

في تلك الأيام فتحنا موضوع الحب على مصراعيه ، وبدأ بعضنا يراقب البعض الآخر ويكتشف علاقات إعجاب محددة بين البنات والصبيان حتى كان يوم قررنا فيه في موجة مرح فتح مصارحة جماعية بهذا الشأن . وأفصحت كل بنت عن اسم فتاها الذي تعجب به .. ببساطة شديدة ، فيما يشبه سباق التتابع وختمت الجلسة بضحكات كانت كأنها احتفال بإزاحة الهموم الصغيرة من على القلوب الصغيرة وإعلان الأسرار بعد كتمانها ..

أسفر هذا الإعلان العاطفي الجماعي عن حالة من التكافل الوجداني بين الجميع ..

كانت كل بنت تشعر بسعادة غامرة حين يصل فتاها إلى النادي ، وأصبح من واجب

الجميع أن يخطروها بذلك حتى لا تفوتها لحظة سعادة . ثم تجاوز هذا الواجب مسألة الإبلاغ عن حضور المحبوب وأصبح الواجب يقضي بتحديد مكان وجوده ولون الرداء الذي يرتديه والمجموعة التي يتحرك بينها ..

وكان هناك اتفاق ضمني بأن تبقى هذه الأسرار داخل أسوار مجموعة البنات ..

هكذا احتلّ موضوع الحب جانباً من حياتنا ، وبدأنا نطرح فيما بيننا نحن البنات أسئلة تدور حول الموضوع .

هل وصلت أسرار قلوبنا إلى الفتيان ؟

هل تفضحنا عيوننا ؟

هل بدر من أحدهم ما يشير إلى اكتشافه سراً من الأسرار ؟ وهل آن أوان البوح بأسرارنا المحفوفة بالخطر ؟

بالطبع كانت عواطفنا بريئة تدور في الخيال ، ولا تتجاوز هذه السعادة التى تتحرك في مجتمع البنات على حدة وأيضاً في مجتمع الصبيان على حدة ..

ولست أدرى لماذا تم اتفاقنا على أن يكون البوح بأسرارنا إلى الصبيان مع دخول الجامعة ، بعد أن لاحظنا أن طبيعة عواطفنا هى التقلب السريع وأن دوام الحال من المحال ، واكتشفنا في هذه السن الصغيرة أن من طبيعة القلب التقلب وتمنينا أن تتغلب مجموعتنا بوجه خاص على طبيعة القلوب هذه ..

كانت الرومانسية هى ديننا ..

كان لروميو وجوليت ، وقيس وليلى .. منزلة تصل إلى التقديس لأننا رأينا الحب عقيدة ..

كانت حياتنا العاطفية نتيجة طبيعية لظروف نادينا الصغير . هناك درجة من الحرية ودرجات من القيود ، وأيضاً نتيجة طبيعية لتلك المرحلة من مراحل الطير التى يهم فيها بالطيران ولا يقوى جناحاه على حمله ..

كانت روايات يوسف السباعي هى أقرب القراءات إلى قلوبنا ..

إنى راحلة ونادية وبين الأطلال وجفت الدموع هى مراجعنا التى نتبادلها ونعيد قراءتها ونتحاور في أحداثها وحول أبطالها ..

كانت بعض بطلات يوسف السباعى لا يزدن في عمرهن إلا قليلاً عن مجموعتنا ..

أحببنا بطلة إنى راحلة وبكينا على ختام الرواية ، وناقشنا بين الأطلال . وأثارتنا التضحية إلى ما لا نهاية . وقلبنا قصة نادية على جميع الوجوه وناقشنا جدوى الحب عن طريق الرسائل المتبادلة ، وكل ما أثاره يوسف السباعى من مفارقات ومفاجآت القدر من موت وانفجار أنابيب بوتاجاز وغرق واستشهاد وغير ذلك ..

وانتشرت بيننا هوايات لا يعرفها عالم الكبار . إحدى هذه الهوايات كانت أشبه بهواية جمع الطوابع ..

كنا نقص من الصحف الأسماء التى تنطبق على أسماء الصبيان من نادينا ونوزعها على المعجبات كهدايا .. وإذا كان الاسم غير شائع لجأنا إلى تركيبه فى صبر من الحروف ، وكانت القصاصات تتحول إلى ما يشبه التمائم والأحجبة سرعان ما تختفى في مخابىء لا تصل إليها أيدى الكبار ..

أصبحت جلساتنا المشتركة صبياناً وبنات يومية تتناول كل شيء بالتعليق . وبعد كل جلسة كنا نركض نحن البنات إلى غرفة خلع الملابس ونعقد اجتماعاً هاماً لبحث ما أثاره الصبيان من موضوعات ، وخاصة أحلامهم عن المستقبل ، ولأننا كنا نرى فيهم تحت تأثير عاطفة « الإعجاب » أجمل الصفات ، ونتوهم فيهم القدرة على اتخاذ القرارات الحكيمة فقد كنا نخرج من اجتماعنا بأن الحظ قد ألقى في طريقنا بمن هم أهل لصنع حياة جميلة لكل منا ..

هكذا عشنا فى أحلام المستقبل قبل الأوان بزمان ..

كانت لنا قدرة هائلة على اختراع ألعاب تخص مجموعتنا وتملأ بالفرح ساعات النهار ..

اخترعنا مثلاً لغة جديدة ، وهى تحويل حرف « الميم » إلى حرف النون في حوارنا ، وتطورت هذه اللغة واستقبلت ابتكارات جديدة ، مثل دخول حرف السين إلى نهاية كل كلمة للدلالة على المبالغة أو الفشر ..

كنا فى أول الأمر نجد صعوبة فى التحدث بها ثم بعد فترة لم نكن نتعثر . أصبحت اللغة تجرى على لساننا فى سلاسة وقد تحولت إلى شيء يشبه طنين النحلة ..

وغير الألعاب المشتركة كان هناك الألعاب التى لا تسمح الظروف بأن تكون مشتركة ..

كنا نحن البنات ننزل إلى الماء جماعة نسبح على هيئة قطار سكة حديد ونغنى أغنية الأطفال : يا وابور يا مولع ..

في البداية كنا نعتبر أن هذه اللعبة تخصنا نحن البنات .. ولكننا مع الوقت أدخلناها في باب الألعاب المشتركة ..

وعلى حافة الحمام بين فترات التدريب كنا نتحلق في كورس مشترك لنغنى أغانى الإعلانات الجديدة في التليفزيون ..

من حين إلى حين كانت تقع حول حمام السباحة فى نادينا حوادث صغيرة ولكنها مثيرة .

ذات صباح وقبل أن يبدأ تدريبنا كالمعتاد فوجئنا بوحدات تصوير سينمائية مركبة على سطح الحمام ، وعلمنا أن أحد الأفلام المصرية سيجرى تصوير بعض لقطاته بنادينا ..

بعد أن انتهى التدريب رابطنا جميعاً على ظهر الحمام ، وقد منينا أنفسنا بساعات حافلة نرى فيها ماكنا نتمنى أن نراه من قبل وهو جانب من حياة عالم الفن ..

وسط هالة من الاهتمام وصلت البطلة . كانت سمراء جميلة . سرعان ما استسلمت

لأصابع الماكييرة استعداداً لتصوير لقطة فى الماء .. أغرقوا شعرها بالكريم ليتخذ شكل الشعر المبلّل .. بعدها خرجت أوامر المخرج ، وكان أهمها الحرص حتى لا يصل رذاذ الماء إلى الوجه والشعر ، وأن تكون حركة الكمبارس الذى يصاحبها بعيدة .

كان أول ما اكتشفناه أنها لا تجيد السباحة . واقتصرت اللقطة على مشهد تبدو فيه واقفة بالمنطقة الضحلة من الحمام ، وعلى بعد كاف منها يمرح الكمبارس من حولها ..

أسعدنا جداً هذا الاكتشاف ، فقد كان يسجل ميزة لنا على بطلة مشهورة ..

اكتشافنا الثانى كان حجم الماكياچ حين أزال الماء أجزاء من الكريم الذي يصبغ جسمها ليكشف عن لون الجسم الحقيقي الغامق ..

استمر التصوير أسابيع بعد ذلك ، كنا خلالها نراقب ونتابع حركة العاملين بالفيلم ، ثم تتجمع الأخبار معنا على ظهر الحمام ..

غير أن أخطر الأخبار كان من نصيبي ..

كان التصوير قد انتقل إلى الدور الثانى من مبنى النادي الرئيسي ..

ولمحنا آلات التصوير وهى تعمل في الشرفة ، فأسرعت وإحدى زميلاتي لنكون عن قرب من عملية التصوير ورحنا نتفرج ..

كانت الكاميرا تدور لتصوير ممثلة وهى بالمايوه البكيني الفرنسي - ورقة التوت - وانتهت اللقطة ، وتسمرت عيوننا على لقطة واقعية خارج التصوير :

من باب الإعجاب والتقدير لإجادة الممثلة لدورها تقدم المخرج منها وفي حركة سريعة لف ذراعه حول خصرها ، ومن شدة الحركة ، انثنى جزعها إلى الخلف مفسحاً المجال للمخرج ليطبع قبلة التقدير على البطن العارى ..

أصابنا الذهول للحظة .. وفى قفزات طويلة وسريعة على الدرج كنا وسط المجموعة على ظهر الحمام نذيع الخبر بأنفاس مبهورة ..

انفسح المجال أمامنا لنتخيل حياة الفنانين ونصدق كل ما تصورناه شائعات قبل ذلك ..

غير أن حياة المرح المثيرة هذه لم تكن تؤثر على تدريبنا العنيف .. وتلك كانت فى تقديرنا المعجزة التى حققها كابتن متولي في غياب كابتن فكري ..

٢

كنت في تلك الأيام مثل الأرنب الذي أخرج رأسه من جحره ، وراح يتلفت ذات اليمين وذات اليسار ، تتألق عيناه وتهتز شواربه في محاولة لاكتشاف العالم الخارجي .. قبل أن يقفز في رحابه ..

في رحلتى اليومية إلى بيت جدي لقضاء فترة الظهيرة قبل أن يستقر قراري على البقاء طوال اليوم في النادي ، تعرفت عن قرب على اثنين من أعضاء الفريق ، كانت هذه أول تجاربي في الاختلاط بزملائى بعيداً عن الحمام . جمعنا الترولى باص في رحلة يومية ، وكان طبيعياً أن نثرثر ..

كان راضي هو الأكبر ، أسمر قصير له جسم أشبه بأجسام رافعي الأثقال ، وكان في عينيه حزن دفين ..

على العكس من ذلك كان أخوه رجاء .. طويل رشيق الحركة ، له عينان خضراوان وشعر أشقر ، شديد المرح عادة ..

بعد أيام من التعارف كان راضي يطلعني على أحد أسراره ، أنه شاعر ..

كان الشعر عاطفياً ، وسرعان ما اتجه خيالي يبحث عن الطرف الآخر دون جدوى ..

امتدت علاقاتى خارج النادي أكثر فأكثر فقد دعتنى شيرين وأخوها مصطفى لقضاء وقت الظهيرة مع عائلتهما ذات يوم ..

كانت شيرين شقراء دقيقة الجسم ، لوزية العينين ، وكانت رغم دقة جسمها تنضح بالحيوية . وكانت سباحة صدر مثل أخيها ..

حين دخلت البيت اكتشفت أننى بين أسرة غير مألوفة الطراز ..

كانت الأم أستاذة بمعهد عال والأب أستاذاً بالجامعة . حين دخلنا تحول البيت إلى خلية نحل ، وأدركت أن العمل المنزلى مقسم بين الجميع ابتداء من الأب والأم إلى الأبناء . أقبلوا على إعداد الغذاء في مرح ودعونى إلى مشاركتهم فاخترت إعداد المائدة ..

كانت العلاقات بين الجميع يسودها التفاهم . وأدركت لماذا تتمتع شيرين بقدر ملحوظ من الحرية تتميز به عن سائر الفتيات ..

أحببت هذا البيت العصري ، وقررت أن تكون علاقتي به طيبة ووثيقة .. وحين انضمت زينب إلى النادي سرعان ما جمعتها بنا ـ أنا وشيرين ومصطفى ـ أواصر الصداقة وبدأت تشترك معنا في وجبة الغذاء التى نصنعها بأنفسنا من حين إلى حين في جو من الحرية والمرح ..

كانت زينب فتاة خشبية الجسم فارعة الطول . ينتشر على وجهها المربع الصريح التقاطيع عدد من الحسنات في نفس مواضع الحسنات المشهورة على وجه الفنانة اسمهان ، ولكن وجه زينب كان جامداً لا يعكس أي تعبير ..

غير هؤلاء كانت هناك هند ودينا شقيقتان جمعتني بهما أواصر الصداقة بحكم الجيرة ، وكانت هناك نادية وعصمت شقيقتان أيضاً من أسرة عمالية تسكن الحي الشعبي القريب من النادي ..

ثم صف طويل من الصداقات كان يزداد طولاً مع الأيام ..

حين انتهت رحلة الظهيرة إلى بيت جدي ، واتسع وقتي بين فترتي التدريب اقتربت أكثر من وجوه كانت علاقتى بها من قبل مجرد علاقة عابرة ..

عرفت الجلوس أنا وبعض أعضاء الفريق حول عم أحمد وعم مرسى وكابتن عثمان وكابتن محمد نستمع إلى أحاديث شتى تدور كلها حول الملاعب واللاعبين ..

كانت ذكرياتهم جذابة ، وأحياناً أشبه بالأساطير ، وكانوا يملكون قدرة كبيرة على تشويقنا نحن الصغار إلى رواياتهم عن أنفسهم ..

كانوا ينتشون وهم يحققون ذاتهم بالحديث عن أمجادهم القديمة . وقد كانوا جميعاً سباحين اعتزلوا السباحة بعد أن حققوا بطولات ، ثم استسلموا للحياة العادية ..

لم يكن عصرهم عصر تكوين الأبطال في النوادي في سن الطفولة . كلهم تعلموا السباحة في النيل وكلهم مارسوها خلسة وفي غفلة من عيون الأهل ، باعتبارها لعبة تؤدي إلى الهلاك .. حرمت عليهم ، فعشقوها وهم يعرفون مخاطرها ..

كانت أنفاسنا تحتبس حين يتحدثون عن غياب رفاقهم في جوف النيل وهم يمارسون اللعبة المحرمة ، حيث لا تطفو أجسامهم بعد ذلك إلا جثثاً على مسافات بعيدة .. وكيف كانت هذه الحوادث المروعة تعجز عن الحيلولة بينهم وبين السباحة في النيل الخطر ..

وكانوا يتحدثون عن حمامات زمان ، التى كانت أشبه بالبرك الآسنة يطفو على سطحها الطحلب ، وكيف تدربوا في مائها ليصبحوا بعد ذلك من أبطال المسافات الطويلة ..

كان عم رجب شخصية من نوع آخر .. يعمل مراقباً لصالة البنج بونج . نحيف قصير ، له ملامح النصاب .. غير أنه كان نصاباً خائباً ..

كل الدلائل كانت تشير إلى ذلك ..

كان واضحاً أنه يشتبك فى مشاجرات كثيرة ، خارج النادي ويخرج منها برأس عليه ضمادات لا تتناسب مع حجم جمجمته ..

كنا نستقبله على أثر كل حادثة ونسأله عن السبب ، وكانت إجابته واحدة دائماً ومعروفة مقدماً .. وهى أنه كان يسير جنب عمارة فى طور البناء وأن حجراً منها سقط على أم راسه ..

لم يكن عقله يتسع لغير هذه القصة التى يبرر بها جراحه وكسوره ، وهكذا كنا نكملها له

نحن مجرد أن يبدأ في حكايتها ..

أما دادة نبوية المشرفة على غرفة خلع الملابس فكانت أشبه بالمؤرخة .. تروى لنا حكايات البنات اللاتى سبقننا إلى ممارسة لعبة السباحة في النادي منذ أن بدأن التدريب وحققن البطولات حتى اعتزلن ..

كان واضحاً انها تمد قرون استشعارها أبعد كثيراً من غرفة خلع الملابس لتعرف المصائر والنهايات وتروى لبناتها حكايات الجيل الذي سبقهن إلى الحمام ..

كانت حكاياتها تغطى ربع قرن من حياة نادينا الصغير ، وخاصة حكايات الحب السعيد الذي ينتهي بالتبات والنبات وخلفة الصبيان والبنات ..

في أحد الأيام دخلت علينا غرفة خلع الملابس سيدة جميلة في نحو الثلاثين من عمرها وبصحبتها ولد وبنت لهما نفس ملامح الأم الجذابة ..

كان اللقاء بين الزائرة ودادة نبوية حاراً وعرفنا من دادة قصتها ..

هى بطلة مسافات طويلة سابقة ، اعتزلت بعد أن خطفها وكيل النادي وتزوجها عن حب . وكان من أنصار عدم الزواج المشهورين في الوسط الرياضي ..

كذلك كان هناك عم محمود الطباخ الذي كان مجرد ذكر اسمه كفيلاً بأن يسيل لعابنا حنيناً إلى أطباقه الشهية ..

كانت له قدرات خاصة أهمها أنه كان يستخدم كفه القوية بدلاً من الساطور في صنع رقائق البوفتيك .. كانت صفعات كفه على شريحة اللحم تحولها إلى شىء شفاف قريب من ورقة السيجارة ..

أما طبق الكنافة الذي كان يقدمه عم محمود فقد كان جائزة حقيقية يرصدها المدربون لأحسن اللاعبين .. كان لوعد المدرب بتقديم طبق كنافة لأحسن لاعب قوة مثل قوة الموتور تضاف إلى قدرة اللاعب أثناء التدريب ..

وطبق الحمام المشوي الذي لا يملك سر صنعته غير عم محمود .. كان فوق طاقتنا المالية .. كنا نكتفى بالسماع عنه من الكبار ونستعيض عنه بكيزان الذرة المشوية التى نحصل عليها من بائع يقف خارج السور ، ثم نأكلها على رائحة الحمام ، قائلين فى مرح : كلها مشويات ...

٣

كان كابتن متولي يتعامل معنا بأسلوب جذبنا إليه وكسب به عواطفنا بسرعة ..

لم يكن له تعليمات خارج الماء . كان يتعمد أن يتقدم بتعليماته في حديث قصير غالباً حول تصحيح طريقة السباحة ، وإذا مر بنا ونحن نمارس ألعابنا الخاصة ونمرح يكتفي بأن يحيينا ويمضي في طريقه ..

ولكن حين كانت تنطلق صفارته كنا ننسى كل شيء ويتحول تدريبنا إلى سباق حقيقي نقوم به في حماس شديد ..

حين اقترب موعد إقامة بطولة المنطقة للسباحة تغير نمط تدريبنا .. بعد أن كان يركز على تقوية العضلات وتصحيح أخطاء السباحة وترويض الجسم على الحركة المتناسقة وحذف الحركات الزائدة التي تؤدي إلى مجهود ضائع أو تعطيل في سرعة الحركة ..

كان شعار المرحلة السابقة هو اختصار حركة الجسم والإقلال من المجهود لقطع أكبر مسافة ..

ورأى كابتن متولي أن شهور الصيف تكفلت بتحقيق نتائج جيدة ، وأن علينا أن ننتقل إلى تدريب يركز على السرعة في نوع السباحة الذي تخصص فيه كل منا والمسافة التي سيتسابق حولها في السباق ..

شرح لنا خصائص المرحلة الجديدة . لقد اطمأن على عضلاتنا وأصبح علينا أن نضع هذه العضلات في امتحان تجربة قبل خوض السباق ..

كان يقف على حافة الحوض فيبدو عملاقاً هادئاً حنوناً . ونصطف نحن في مجموعات وقد عرف كل منا مكانه ننتظر التعليمات ..

كان صوته ينطلق : مائة متر . المجموعة الأولى .

ثم تنطلق صفارته ويقفز أفراد المجموعة الأولى ، ثم تتوالى الإشارات ويتوالى القفز إلى الماء ..

خلال أيام كنا نشعر بأننا نكتسب سرعة أكبر في السباحة . وبدأ الكابتن متولي يطلعنا أولاً بأول على الأرقام التي يحققها كل منا .. وبدأ صراعنا مع الأرقام في محاولة عنيدة لتحطيمها .

أصبحت الأرقام هى شغلنا الشاغل ، الرقم الذي يشير إلى المسافة والرقم الذي يشير إلى الزمن ..

دارت أغلب أحاديثنا وأحلام يقظتنا ، بل أحلام ليالينا حول الأرقام ..

كنا في سباق مع الزمن أيضاً ،.كانت الأيام تمضى بسرعة وتقترب بنا من موعد السباقات ،ورغم أننا جميعاً كنا قد حققنا أرقاماً أكبر للمسافات وأرقاماً أقل للزمن إلا أننا كنا نعيش في مزيج غريب من الحماسة والسعادة والخوف ..

الشيء الوحيد الذي كان يبعث الطمأنينة في قلوبنا كان وجه الكابتن متولي الهادىء الدائم الابتسام ..

كانت ابتسامته تبعث الثقة في النفس وتكاد تشير بأنه متأكد من النصر ، وأن كأس البطولة قاب قوسين أو أدنى من بوابة النادي الصغير ..

كنت سعيدة لأن بطولة المنطقة كانت ستجرى في حمام النادي الكبير الذي تنتمى إليه أسرتي ..كان لي جمهوري هناك ، ولم أكن أشعر بغربة أو بالتهيب الذي كان يبديه بعض أعضاء فريق نادينا الصغير ..

كان حمام النادي الكبير قد افتتح لأول مرة مع بداية الصيف .

السباق غداً ..

في اليوم السابق على السباق قام كابتن متولي بتدريبنا تدريباً خفيفاً . وضع لمساته الأخيرة بنفس روحه السمحة ، بعد التدريب دعانا إلى اجتماع في حلقة كبيرة على حافة الحمام ..

أثنى علينا ، وقال أنه يعتز بالفترة التى أشرف خلالها على تدريبنا ، تحدث بثقة عن الغد ،وعن البطولة .قال انها بين أيدينا ،ثم قدم إلى كل عضو من أعضاء الفريق طاقماً من الملابس الرياضية يتكون من مايوه أزرق اللون وبدلة تدريب سماوية طرز على ظهرها باللون الأبيض اسم نادينا الصغير ، وحذاء كاوتشوك أبيض وثلاثة جوارب بيضاء ..

أسعدتنا الهدية ، كالعصافير انطلقنا إلى غرفة خلع الملابس .. المفاجأة إن المقاسات كانت مضبوطة ..

بسرعة كنا نتحلق حول كابتن متولي نفيض بشاشة لنزف إليه أن مقاسات الهدية على ما يرام .. اتفق معنا على التجمع في نادينا في صباح الغد المبكر لنذهب جماعة إلى النادي الكبير ..

أوصانا بنوم مبكر وإفطار جيد ..

وفى الصباح كنا نقف فى طابور طويل أمام باب نادينا ـ بالمايوه والترييننج سوت ـ « بدلة التدريب »

بدأنا السير في نظام ،وشيئاً فشيئاً ارتفعت درجة الحماسة وارتفعت أصواتنا بالأغاني المرتجلة نعلن بها عن هويتنا وهدفنا وآمالنا ،وسرعان ما لفتنا الأنظار في الشوارع التى كنا نمر بها. فتحت النوافذ وامتلأت الشرفات ، وتلقينا في ذلك الصباح أول اشارات التشجيع من جمهور بسيط وعادي ابتهج وتفاعل بفرحتنا وبالجو الذي خلقناه ..

طوال المسيرة إلى النادي الكبير كنت أغني مع الفريق وأضحك وأمرح وأرد على تحيات ذلك الجمهور الصباحي الذي كان يشيعنا بالبسمات ، ولكننى كنت مشغولة في أعماقي بالمكسب والخسارة ..

ترى هل سأحقق نتائج طيبة في السباقات ؟ أم تنتظرنى مفاجأة غير سارة ؟

لقد دخلت معركة حقيقية مع أسرتي حتى أمكث ذلك الصيف بالقاهرة وأضمن عضوية الفريق وأدخل السباقات ..

ماذا لو فشلت في تحقيق الفوز ؟

أكون قد خسرت معركة الاستقلال والويل حينئذ لي ..

كانت واقعة غرقي وانقاذي بالشبكة مقيمة في قرارة نفسى ، كذلك كانت ضحكات السخرية التى استقبلت بها من أسرتي وقتذاك ترن في أذني ..

كنت أعلم أنه على فوزى يتوقف مصيري ، وهل سأفقد حريتي واستقلالي أم أخرج بحقوقي كاملة ، حقوق الرياضية التى ترتبط بفريقها .. وتعيش الحياة الرياضية الرحبة وتخترق الحاجز الذي تعيش خلفه التلميذة العادية التى تتحرك بين البيت والمدرسة ..

كان أخشى ما أخشاه هو الجمهور ، لقد اعتدت على السباحة دون أن ترقبنى مئات العيون . كان هناك أعضاء الفريق والمدرب وعابر السبيل من أعضاء النادي ، ولكنني الآن سأواجه جمهوراً ينقسم إلى قبائل بعضها معي وبعضها ضدي . سيرصدون حركتي ويتغلغلون إلى أعماقي ..

لأول مرة أشعر بأننى مقبلة على مشهد أحس فيه بالعرى أمام عيون جريئة بعضها سترمقني شذراً إذا تقدمت وبعضها سيرمقنى فى رثاء إذا تأخرت ..

ولكن صوت الكابتن متولي كان يخرجني من هذه الأغوار بتعليقاته الحنون وتشجيعه الهادىء ..

حين دخلنا من بوابة النادي الكبير خرجت من كوابيسي .. شملتني روح الفريق . بدأت أستشعر التحدي ، وأننا نواجه معاً أكثر من فريق يتربص بنا الهزيمة ، وجمهوراً له ألف عاطفة ولون ..

على البوابة كان هناك عدد كبير من موظفي النادي ، راحوا يتحققون من هوية الداخلين ، وقال أحد أعضاء فريقنا أن النادي الكبير هو قلعة مسلحة وليس بنادٍ رياضي ..

ازدادت في نفسي مشاعر التحدي . لم أكن غريبة على النادي ، ولكنني أحسست بأن انتمائى إلى النادي الصغير هو الأصل ..

عبرنا الحديقة الواسعة ونحن نغنى أغنياتنا الخاصة في محاولة لإثبات وجودنا ..

كنا نريد أن نملأ المكان رغم عددنا القليل ، ونريد أن نقول نحن هنا ..

ما أسرع ما اجتزنا الحديقة إلى الدرج الباهر الذي يؤدي إلى الحمام .. وفى نهايته وقفنا نتطلع إلى الجنة . كان الحمام تحفة هندسية ..

سطح الحمام مترامي الأطراف يتوسطه حمام للسباحة وحمام للغطس . القيشاني جديد يلمع في ضوء الصباح . الماء في لون السماء . على سطح الحمام صفوف من المقاعد تتسع لجمهور كبير ، وهناك بيست (صالة) للرقص ، وبين حمام السباحة وحمام الغطس مطعم جميل وكافيتريا ..

رحنا نكتشف المكان .. كأننا وصلنا للتو من مجاهل الريف إلى قلب القاهرة .

اكتشفنا أن تحت حمام السباحة وحمام الغطس ، حماما للأطفال على هيئة قلب . من حوله مربيات يشرفن على أبطال وبطلات المستقبل حسب تخطيط النادي الكبير ..

على سطح الحمام أحسسنا بأننا نغرق فى إطار هائل من الحدائق والملاعب .. نزلنا إلى غرفة خلع الملابس حيث كانت تنتظرنا مفاجآت أخرى ؟

كان المكان غامضاً رائعاً .. كل ركن منه يهتف بالفارق الهائل بين نادينا الصغير والنادي الكبير ..

شتان ما بين دادة نبوية وبين الآنسة عايدة المشرفة على غرفة خلع الملابس : فتاة أشبه بالمانيكان ، تتحرك على أطراف أصابع قدميها ، وتلقي بتعليماتها في ثقة واختصار إلى معاونات أشبه بمضيفات الطائرات ، كن يشرفن على رعاية السباحات في عناية بالغة ويرفلن جميعاً في زي وردي أنيق ..

دخلنا في صخب ، وكنا قد هبطنا الدرج قافزات ضاحكات واستقبلتنا الآنسة عايدة قائلة في تبرم ظاهر :

ـــ البطاقات وبنظام ..

كان الأمر الحازم كفيلاً بانتظامنا في صف وقد أبرزت كل واحدة منا بطاقتها ..

فحصت الهويات ، وسمحت لنا بالدخول مشيرة إلى فتاة حلوة تجلس إلى مكتب ، استقبلتنا مرحبة ، وقدمت لكل منا شماعة ملابس ، وبطاقة تحمل رقم الشماعة .. وأشارت إلى صف طويل من الغرف الصغيرة ذات الستائر الزاهية لكي نبدل ملابسنا ..

لم نكن بحاجة إلى تبديل ثيابنا فقد كنا نرتدي الترننج سوت فوق المايوهات .. كنا نحتاج إلى « دش » خفيف فحسب ..

جاء جرس صغير بفتاة أخرى رافقتنا إلى صف من الحمامات المرصعة بأجمل قطع القيشاني الملون المنقوش ..

استسلمنا لرذاذ الماء البارد ، وارتفعت حناجرنا بأغانينا الخاصة ، وفجأة تسلل إلينا صوت من سماعة صغيرة أعلى المكان يقول :

ـــ الرجاء المحافظة على الهدوء .. !

غادرنا المكان كالأرانب المذعورة بعد أن سلمنا الشماعات ومررنا أمام مرايا سوداء اللون ، كانت تزيّن جدران الدرج لم نلحظها ونحن نهبط راكضات ..

وعند قمة الدرج انفجرت الثرثرة حول هذا الاكتشاف وتساءلنا هل يخبىء لنا النادي الكبير مفاجآت أخرى ..

انتبهنا إلى ضوء الشمس الساطع وهو يفرش سطح الحمام ، ويجذب إنتباهنا إلى اللحظة الحرجة ..

كان أمامنا نصف ساعة من الوقت . نزلنا إلى الماء لنسخن عضلاتنا بالسباحة الهادئة ، ثم انسحبنا إلى المكان المخصص لفريقنا عند أحد جوانب الحوض ..

حول الحمام تراصت المقاعد وبدأ الجمهور يتقاطر بينما اتجهت الأنظار إلى مظلة كبيرة عند صدر الحمام حيث سيتجمع الحكام ، ومذيع المباراة ، وسرعان ما تجمعوا بالفعل ..

دقت الساعة . أعلنت الإذاعة بداية سباقات بطولة المنطقة . أعلنت أسماء النوادي المشاركة . دب نشاط غير عادي في المكان سواء بين المتسابقين أو الجمهور . تمنى المذيع حظاً سعيداً للجميع ..

كان نظام المباراة يقضي بأن من حق النادي المشاركة بثلاثة لاعبين . ولما كان الحمام لا يتسع لأكثر من ثمانية ، فقد أصبح ضرورياً اتباع نظام التصفيات التي تنتهي بخلاصة هى ثمانية لاعبين يشتركون في السباق النهائي ..

كانت أعمار اللاعبين تتراوح بين ثماني سنوات وعشرين سنة .. وكان عددهم ـ بنين وبنات ـ يزيد على الثلاثمائة ..

كان عدد اللاعبين مفاجأة لي . وقفت أرقب مواكبهم مذهولة . كانوا مزيجاً غريباً ورائعاً من الجنسين ، ومهرجاناً من الألوان والمرح والنشاط والانفعالات والحيوية ..

أخرجتني شيرين من حالة الذهول حين قالت :

ـ ماذا تقولين حين تواجهين بطولة الجمهورية ، إن عدد المشاركين بها أضعاف أضعاف هذا العدد ..

إرتعدت فرائصي وقد انتابني شعور بأنني ضائعة حتماً في هذا الزحام . وقدرت أن النجوم التي تستطيع أن تشق طريقها في هذه السحابة البشرية الكثيفة لابد أن تملك قوة خارقة ..

غير أن القضاء كان قد نفذ وهئنذا إحدى المشاركات في السباق ولا سبيل إلى التراجع ..

أعلن الميكرفون بدء التصفيات . وكانت البداية هى سباق المائة متر صدر أربعة عشر سنة بنات ..

كان لنا في هذه التصفية متسابقة هى شيرين وعندما وقفت فوق الحارة غنينا لها ..

كانت أغانينا إرتجالاً طريفاً يعتمد في مادته على أغاني إعلانات التليفزيون وسرعان ما شدت أغانينا انتباه الجمهور الذي اعتبرها شيئاً طريفاً وجديداً على الملاعب ..

كانت شيرين تنظر إلينا وهي تبتسم بسمتها الخجول . كانت رائعة بجسمها الذي يشبه جسم الباليرينا ويضيء في نور الصباح .. وعندما انطلقت أول طلقة من مسدس الحكم اتخذت وضع الاستعداد .. مع الطلقة الثانية شدت كل عضلات جسمها ، وانحنت بجذعها ناحية الماء ، وشدت ذراعيها نحو الأمام وقد اتخذ كفاها صورة الجاروف مقلوباً . ومع الطلقة الثالثة إرتفع جسم شيرين في الهواء كالرمح لتكسب أطول مسافة دون مقاومة الماء لاندفاعها ، وحين اخترق كفاها سطح الماء كان جسمها يتخذ شكلاً إنسيابياً جميلاً .. وينساب الرأس ، ثم سائر الجسم تحت الماء هنيهه ، قبل أن يظهر الرأس فوق سطح الماء مرة أخرى ..

لم نكن نرى إلا شيرين ، ولم نكن نغنى إلا لها ..

كانت تسبح كالضفدعة ..

لم يستغرق السباق إلا مائة ثانية ولكنه علينا كان طويلاً مزدحماً بالأحداث والانفعالات . ورغم أن شيرين أثبتت كفاءتها منذ البداية إلا أن أنفاسنا ظلت معلقة بذات المايوه الأزرق لون نادينا ، بينما حناجرنا لا تكف عن الغناء ..

كانت حناجرنا تشبه الخط البياني خلال الثواني المائة ، ترتفع أصواتنا وتبتهج نغماتها مع كل تقدم تحرزه شيرين وتهبط إذا خيل إلينا أن عضلاتها قد أصابها بعض الارتخاء ..

ولكن شيرين لم تخيب ظننا بها ، وحين انتهى السباق ولمست بكفيها حافة الحوض كان بينها وبين المتسابقات مسافة كبيرة ...

انتعشت آمالنا ونسيت صدمة الزحام وعدد المتسابقين وقد أحسست أن فريقنا له خطره ..

على ألسنة الجمهور تردد اسم نادينا الصغير وشد ذلك من عزائمنا .. وحين وصلت شيرين إلى المكان المخصص لنادينا عانقناها بينما هنأها كابتن متولي قائلاً لها : مبروك يا كابتن ..

جلست شيرين بيننا كأنها ملكة متوجة ولكن للحظة ، عادت بعدها لتتابع بكل حواسها حركة التصفيات . وكذلك انشغلنا جميعاً ..

كانت فترة الصباح مكرسة للتصفيات ، في حين خصصت فترة بعد الظهر للمسابقات النهائية . وكم كنا سعداء حين خرجنا من التصفيات الأولى بنصيب وافر . عدنا إلى نادينا حيث أشرف كابتن متولي على وجبة غذائنا بنفسه ، وأوصانا بالراحة والتجمع في الرابعة عصراً ..

عندما دقت الساعة الرابعة خرجنا في طابور ننشد أغاني النصر .

وقد حف بنا عدد كبير من جمهور نادينا لتشجيعنا في السباقات ..

ولكن بين أنغام الأغاني التي ارتفعت من الطابور كانت هناك همسات لا تصل إلى

أسماء الكبار . كلمات تشجيع خافتة من هذا الصبي لتلك الصبية ومن هذه الصبية لذلك الصبي . وكانت هناك التمنيات الحارة بالفوز وكلها كانت همسات موجهة تفصح عما في الصدور الصغيرة من أسرار صغيرة . كانت نوعاً من إعلان عواطف « الإعجاب » وقد وجدت مناسبة مشروعة لظهورها !!

تسترت العواطف في مجاملات بدت كأنها طبيعية بين أبناء فريق واحد يخوض معركة . ولكنها كانت مجاملات أكثر دفئاً من المعتاد !

تقدم راضى نحوى مبتسما قال :

انجى : اعرف أن الوقت غير ملائم ، ولكنى أتمنى أن تقرأى هذه الأشعار قبل السباق .

قفزت من الفرح : هل ستطلعنى حقاً على الشعر ؟

ابتسم ، ولأول مرة أرى « راضى » وقد شع وجهه بنور أضاء معالم ملامحه التى كنت أراها دائماً وكأنها ترزح تحت عبء سنوات طويلة تجعله أقرب إلى الشيوخ ، عاد راضى اليوم شابا فى الخامسة عشر .. !!

امتدت يده بورقة وردية صغيرة قال وهو يدسها فى يدى :

أرجوك لا تعلنى ذلك ، سأعرف ردك بعد السباق ..

ابتعد بسرعة . لم أفهم السبب . رحت اطمئن نفسى بأنه شخص غريب الأطوار فلم التعجب من تصرفه ؟! وضعت الورقة فى حقيبتى وأنا أتحرق شوقاً لقراءتها .

بينما كان الصباح بالنسبة للمشاركين مجرد جس نبض ، كانت سباقات العصر معارك حقيقية ..

تفشى القلق في الطابور ونحن نقترب من باب النادي الكبير . انقلبت الهمسات إلى أدعية وصلوات كأننا كنا نتقدم إلى باب جامع أو لجنة امتحان . ومع ذلك فقد حرصنا على أن ترتفع حناجرنا إلى أقصى ما تستطيع بالأغاني التي تعلن عن وصول نادينا الصغير ..

كان النادي الكبير أكثر إزدحاماً ، بل كان سطح الحمام أقرب إلى يوم الحشر ..

نزلنا إلى الحمام الواسع لتسخين عضلاتنا . كان العدد كبيراً ، والحمام يكاد يكون علبة سردين من الزحام . وفي تلك الزحمة كان سهلاً أن يتقارب ولد وبنت من نادينا دون أن يلفت ذلك انتباه أحد ويتبادلا التمنيات الخاصة في شبه اعتراف رياضي بالإعجاب المتبادل ..

كان لهذه الكلمات اشعاعات هادئة لها القدرة على بث الثقة والراحة في النفس ، ولكن لم يكن لها القدرة على اختراق الحواجز بأكثر من تبادل مشاعر غامضة مشتركة لذيذة ومنعشة ..

كانت تحوم حول السباق وتترك ما بعده للمجهول !

كان سباق المائة متر فراشة هو أول سباقاتي ..

وسباحة الفراشة يسمونها عادة الدولفين . تتحرك الذراعان مثل حركة الفراشة أثناء الطيران . تندفع الذراعان إلى أطول مسافة ممكنة على سطح الماء ، ثم تنزلان والكفان يجرفان الماء باتجاه الخصر ، ثم تعود الذراعان بينما تتحرك الساقان في حركة نصف دائرية بعد أن كانتا ممدودتين ، وتدفع القدمان إلى الخلف دفعة تعود بعدها القدمان مثل الضفدعة إلى الالتصاق ..

خرجت من عملية تسخين العضلات أكثر ثقة ، وإن كان قلبي قد اضطرب هنيهة وأنا أتابع حركة المسدس في يد الحكم ، حين اتخذت مكاني فوق حارتي ..

حين انطلقت الطلقة الثالثة خيل إليّ أنها اخترقت جسمي ، ولكن عندما ألمس جسمي الماء نسيت كل ما حولي . اختفت أجسام المنافسات ، ووجوه الجمهور ، بل حتى ضجة الهتافات تراجعت بعيداً وأنا أضرب الماء بكل قوتي ..

انتابني إحساس واحد هو أنني لو رفعت رأسي وتطلعت حولي سأكتشف أنني متأخرة جداً عن المنافسات الأخريات ..

حين لمست حافة الحوض في النصف الأول من السباق واستدرت بسرعة لأسبح في الاتجاه المضاد تمكنت في لمحة من اكتشاف المفاجأة ..

كنت في مقدمة المتسابقات ..

عادة تقع كوميديا مشهورة في سباقات السباحة هي أن يتقدم متسابق في النصف الأول من السباق ولكنه يكون قد استنفد قوته فيتراجع في النصف الثاني ..

ركبتني العفاريت . وسيطر عليّ هذا السؤال الرهيب : هل سألعب دور البطولة في هذه الكوميديا أنا الأخرى ؟

شعرت فعلاً بأن ضرباتي فى الماء لم تعد فى نفس القوة . استعضت بقوة الإرادة عن قوة الجسد . ومسحت المكان بعينى ، فى محاولة لاستكشاف الحقيقة . كان فريق النادى الصغير يلوح بالمناشف فى عصبية .. لم أفهم شيئاً . غمرت وجهى فى الماء ، وقررت أن أكتم أنفاسى حتى ألمس الحافة .. ارتطمت كفى بقيشانى جدار الحمام وفى لمحة أخرى عرفت أننى قد فزت بأول سباق فى حياتى . تركت جسمى لأعماق الماء وصعدت به لأستنشق الهواء بينما تركزت قدماى على أرض الحمام لتهدأ عضلاتى وتنتظم أنفاسى .. ألقيت بجسمى على سطح الماء لأسبح على ظهرى سباحة بطيئة ثم خرجت من الماء واستقبلتنى عاصفة من التهانى تجاوزت أعضاء الفريق إلى الجمهور فقد كان جمهور النادى الكبير يعدّنى إحدى بناته ..

انطلقت إلى « الفستير » غرفة خلع الملابس . رتبت ملابسى فى الحقيبة وتذكرت أشعار راضى وفتحت الورقة الوردية .. قرأت :

لا تخبرى الورد عنى إنى أخاف عليك
ولا تبوحى بسرى فمن أكون لديك
ولتقرئيه بعمق ولتغلقى جفنيك
هذى وريقات حبى نمت على شفتيك
عاشت بصدرى سنينا لكى تعود إليك

ما أجمل تلك الكلمات !! لمن كتبها ؟!

علا فى داخلى صوت .. ربما يقصدنى ، لا .. لم يصدر من « راضى » دليل واحد على ذلك .. هذا الشعر .. إنه يستخدم ضميرا مباشراً إليك .. نعم .. نعم ..

سرى فى أوصالى خدر لذيذ ، وطفت رأسى فوق جسدى وكأنها سمت إلى عالم آخر ، أردت أن انفرد بنفسى طوال الوقت ، وأن أبتعد عن الصخب حولى ، وأن أعيد القراءة مرات ومرات .. وسمعت صوتا .

- انجى اسرعى . الفريق يستعد للتحرك ..

أخفيت الورقة وأنا أرتجف ، عدوت فوق الدرج ، وجدت راضى واقفاً أعلى السلم ، لم استطع إخفاء اضطرابى ..

- مبروك يا إنجى .. بعد سباق أو اثنين لن يستطيع احد التحدث معك ، سيحتاج إلى ميعاد أوّلاً من السكرتيرة .. !!

لم أسمع صوتى وهو يخرج للرد على مداعبته ، هززت رأسى ، ومشيت إلى جواره حتى التقينا بالطابور الكبير ودخلنا السرب .

كانت عودتنا إلى النادى الصغير عودة سعيدة ذلك المساء . تناولنا العشاء سوياً وعدت ليستقبلنى جدى بفرح . بعد قليل رن جرس التليفون ، وكانت المكالمة من الإسكندرية والمتحدث أبى ..

تحدثت إليه وأنا فى قمة السعادة فقد اكتشفت لأول مرة أن أبى كان ينتظر نتيجة سباقى على أحر من الجمر ..

وأدركت أننى كسبت معركتى .. أصبحت بطلة صغيرة ..

كانت هذه هى المرة الأولى التى أذوق فيها حلاوة النصر وتهزنى نشوته من الاعماق .

وجربت النوم قريرة العين ، وجربت أن افتح عينى على صباح يوم جديد له بهجة الميلاد .

فى ذلك اليوم قررت أن أكافح ضد كل عقبة أو رغبة حتى احتفظ بنشوة النصر متجددة أبداً .

وطارت بى الأحلام إلى ساحات عالمية تخيلتها تشهد لحظات فوز مشابهة ومهرجانات

ومواكب نصر تحيط بى وتمطرنى بالورود والرياحين ..

عدت إلى الورقة الوردية ، قررت أن اتجاهل كل مايصدر عن راضى حتى لا أجرح إحساسه برفض أو موافقة ، وبعد تردّد امتلأ كيانى بالفرح .. اتخذت القرار ، لن أستطيع فى هذه السن أن أبدأ قصة من هذا النوع . ملأنى شعور بالنشوة ، والثقة بالنفس وأنا أقاوم مشاعر الغزو من الجنس الآخر ..

خرج فريقنا بخمس كؤوس وشهادات تقدير لكل أعضائه . وارتفعت المعنويات وزادت جرأتنا على الحركة والاقتحامات البريئة وأصبح لفريقنا فى كل يوم قصة ..

بعض هذه القصص كان يذيع فى النوادى الأخرى مثل قصة علاء طرزان ..

فقد تقدم أحد الأندية يطلب إلى لجنة الحكام لاستبعاد زميلنا علاء من أحد السباقات تحت اربعة عشر سنة أولاد وقال النادى فى طعنه : إن علاء زوّر عمره الحقيقى . فى التحقيق كان دليل النادى على اتهامه هو أن علاء يقوم بحلاقة ذقنه يوميا شأن الرجال ، ومن غير المعقول أن يكون تحت سن الرابعة عشرة . لم يكن من الصعب أن يثبت نادينا الحقيقة بتقديم شهادة الميلاد .. والسبب أن علاء كان يستعجل معالم الرجولة بحلاقة ذقنه على أمل أن يخضر لونها ، وكانت النتيجة أننا أطلقنا عليه اسم علاء طرزان بعد هذه الحادثة .

كان نادينا قد أصبح خطراً على فرق النوادى الأخرى ، ودخلت حياتنا من باب البطولات التى احرزناها إلى سماء المجتمع الرياضى ، وأصابنا ذلك بالغرور الشديد ..

كنا نعلم أن فريق النادى الكبير قد أصبح خطراً يهددنا فى السنين القادمة . ولكننا كنا نهوّن من شأنه بدعاوى مختلفة ، ونزعم أن مركزه جاء من اشتراكه بعدد كبير من الأولاد والبنات بينما يحتكر نادينا الأبطال ..

باختصار أصابتنا عقدة النجومية . وبدأنا ننقل اهتماماتنا لنتحدث عن المعجبين والجمهور ، وجرت على ألسنتنا أسماء نجوم العالم كزملاء لنا . بل بدأنا نقارن بين أساليبنا وأساليبهم ، ونحاول أن نقنع أنفسنا بأن الفرق هو درجة الاهتمام بالرياضة بين بلد وآخر ..

وبدأت أعراض عقدة النجومية تظهر . والغريب أن عدواها انتقلت إلى مجتمع نادينا الصغير ، فقد عاملونا كأبطال حقيقيين وسمحوا لنا بالتغلغل بين ظهرانيهم بدون قيود . زاد اهتمامنا بما نرتديه من ملابس ، وارتفعت نبرة التقاليع فى الزىّ والحركة . رحنا نختار أغرب أنواع الموضة . الحزام الجلدى العريض جداً ، والبنطلونات الشارلستون التى عادت من الثلاثينيات فتلقفناها ، وبدأنا نعرف الطريق إلى محلات القبعات بأنواعها ونطلب طرازاً خاصاً ينسجم مع البنطلون ، وباختصار اقتربت هيئتنا داخل النادى من مشاهد الأفلام الأجنبية ..

استعجل الجميع نمو عواطفهم الدفينة فى هذا المناخ . وساعد على ذلك ارتفـاع

المعنويات واعتراف النادى بأننا منحناه شرفاً كنا نراه كبيراً ..

أصبحت العلاقة التى تجمع بين الفتى والفتاة شبه معلنة رغم تجنب الطرفين للاعتراف التقليدى ، وأصبح أمراً عادياً أن يجلس الفتى بجانب فتاته فى حلقة بعد التدريب ..

فى صفوف الأولاد ظهرت حالات الدون جوانيه ، وسادت موضة الشعر الطويل المصفف بعناية شديدة .. أصبحت الخنفسة رائجة بينهم ..

خرج الفريق من الشرنقة ، وصفقت الفراشات بأجنحتها فى جو أكثر حرية وانطلاقا ..

غير أن أنباء بطولة الجمهورية للناشئين اقتحمت علينا ذلك المناخ اللطيف الجديد ، خاصة حين علمنا أنها ستقام فى الأسكندرية ، وأن النادى بحكم إمكاناته القليلة مضطر إلى اختيار عدد محدود هم أحسن أعضاء الفريق للسفر والمشاركة فى هذه البطولة ..

كانت فكرة المشاركة فى بطولة الجمهورية ، وفى الاسكندرية كفيلة بإعادتنا إلى الصواب .. اختار كابتن متولى المشاركين بناء على أرقامهم ..

كنا خمسة عشر عضواً تتراوح أعمارنا بين ثمانى سنوات وست عشرة سنة ، يقودنا الكابتن متولى .. خضعنا لتدريب خاص قبل السفر .

كان السفر بالقطار أشبه برحلة مدرسية ولكنها أكثر تشويقا .. أثرنا من حولنا فى عربة القطار جواً من المرح ، واستقبلتنا الاسكندرية فى أوج بهجتها وزحمتها .

كانت حياة الفريق في فندق الدرجة الثالثة الذي حل به متعة .. !!!

غرفتان للأولاد وغرفة للبنات وغرفة للكابتن ومعه اشبال الفريق الصغار ..

لم تمر الأيام الأربعة التى قضاها الفريق بالأسكندرية دون طرائف ، فقد ازداد التقارب بين البنين والبنات ، وأصبح عادياً حين كان الكابتن يصحبنا إلى نزهة على الكورنيش أن يكون الطابور غير المنظم على هيئة ثنائيات ثابتة يستغرقها حديث أحلام المستقبل لا يقطعه رقيب أو عزول .

شهدت غرفتا الأولاد حوادث طريفة وكذلك غرفة البنات ..

ذات مساء اجتمع الصبيان في إحدى الغرفتين حول أوراق اللعب .. دق الباب .. أخفوا أوراق الكوتشينة بسرعة خشية أن يكون الطارق هو الكابتن ، وتبين أن الطارق هو أحد أشبال الفريق الصغار . أقنعوه بالعودة إلى سريره . بعد قليل دق الباب . عادوا إلى إخفاء أوراق اللعب . فتحوا الباب فإذا الطارق هو نفس الشبل الصغير المصمم على حضور السهرة .. توعدوه بالويل والثبور إن هو عاد لإزعاجهم . دق الباب للمرة الثالثة . تركوا كل شيء على ما هو عليه . اتخذوا مواقعهم فى أركان الغرفة مسلحين بالمخدات . فتح أحدهم الباب وانهالت القذائف على رأس الطارق الذي لم يكن إلا الكابتن متولي نفسه ..

في غرفة البنات كانت درجة حرارة المرح أكثر ارتفاعاً . فتحن النافذة فإذا بها تطل على

فندق آخر . وعلى الفور ظهر دون چوان بفانلة صيفية فلما اكتشف جاراته توارى لحظة ثم عاد وقد تعرى نصفه الأعلى وبدأ حركات الغزل المكشوف . هرعت البنات للاستنجاد بالصبيان الذين تسلحوا وانحدروا على السلم قفزا تشيعهم صيحات التشجيع . كانوا قد عقدوا العزم على إظهار الشهامة في حماية « الحريم » وانتهت المعركة بإصابات خفيفة للدون چوان ، وعودة منتصرة لأعضاء الفريق من الصبيان ..

فيما يتصل بحياة المرح ترك الكابتن متولي الحبل على غاربه وركز انتباهه على الحركة الرياضية لأعضاء الفريق ..

حين واجه الفريق استاد الأسكندرية أول يوم تلقى الجميع ضربة على الرأس . كان مدرج الجمهور قد ازدحم بالمشاركين في المباراة ..

أحسسنا بأن الأرض تميد من تحت أقدامنا ، وأدركنا أننا ضائعون لا محالة كموجة في خضم طوفان ..

وقد حدث .. خرج الفريق من المولد بحبتي حمص فقد فازت شيرين ونادية ببطولة الجمهورية .. أما سائر أعضاء الفريق فقد عاد أكثر حكمة من ذي قبل وأقل مرحاً واندفاعاً ..

نكتة واحدة تذكرناها في رحلة العودة وضحكنا ..

في مباراة المائة متر دولفين تحت ١٢ سنة أولاد ، وبينما كان زميلنا كرم يشق طريقه إلى الفوز ونحن نرفع عقيرتنا بصيحات التشجيع ، فجأة بدأت حركته تضطرب . كانت ذراعاه حين تغوصان في الماء لا تخرجان إلا بعد جهد ووقت . تراجع ، وضاعت على فريقنا لسبب غير مفهوم فرصة ثانية للفوز . حين استقبلنا زميلنا متسائلين قال :

ــ كنت بين أمرين فقد انقطع « أستك المايوه » وكان عليّ أن احتفظ به على جسدي أو أفوز وأظهر أمام الجمهور ، كما ولدتني أمي ..!

كان الأمر مضحكاً مبكياً في آن واحد . وهكذا بسبب أستك مايوه ضاعت بطولة محققة ..

انتهى الصيف وبدأ الشتاء ونسينا أحزان الهزيمة . وأقبلنا على التدريب بنفس الحماسة التي كنا نتحلق بها في حلقات السمر وأحلام اليقظة . رشحت نادية وشيرين للاشتراك في تصفيات يجريها اتحاد السباحة لاختيار المشاركين في سباق دولي بألمانيا . فازت شيرين وودعناها وداعاً حاراً ، فقد كان سفرها حدثاً يدعونا إلى التفاؤل في ظروف كنا نحتاج فيها إلى ما يبعث الأمل ، وحين عادت شيرين إلينا تحمل أخبار السباق الدولي وحكايات رحلتها المثيرة كان من بين أخبارها أنها التقت بالكابتن فكري وروت له أخبارنا وعلمت أنه سيعود قبل انقضاء الشتاء ..



الفصل الثالث

١

عاد كابتن فكرى وترك منذ لقائه الأول فى نفوسنا إحساساً بأنه قد أصبح رجلاً آخر ..
كانت مشاعرنا ونحن نستقبله خليطاً من الخوف والحب . وحين تفرقنا بعد أول لقاء به ، كان الخوف منه يكاد يتوارى ..
كانت تلك هى أول رحلات كابتن فكرى خارج القطر . ومثل كل عائد من الخارج لأول مرة ، تحدث عن أوروبا بافتخار عظيم . كان يبدو مسحوراً مأخوذاً مقبلاً على قرارات خطيرة ..

كان أول ما نطق به بعد التحيات والسلامات وفرحة اللقاء سؤال غريب ..!!
قال : هل تعلمون يا أولاد ما هو أول بناء شيده الألمان بعد أن دمرت الحرب بلادهم ؟ كنا فى قمة المرح وتبارينا فى إجابات طريفة ..

- خنادق .
- جوامع .
- ڤيلات جميلة للعرسان ..

ابتسم كابتن فكرى ابتسامة حنوناً وقال :
معهد التربية الرياضية .. !

صدقناه على الفور ... كان يبدو كما لو كان أول رجل هبط على سطح القمر وعاد بالحكايات العجيبة .. وقد أرضت إجابته غرورنا كرياضيين ..
ورغم أننا كنا نتعجل أن يسألنا الكابتن فكرى عن الجديد فى الفريق حتى يعلم أخبارنا إلا أن حديث أوروبا كان يسيطر عليه ..!

ولا شك أنه لو كانت له اهتمامات سياسية لتطرق بحديثه إلى النازية ، وازدهار الرياضة فى عصر هتلر . ولكنه لم يكن له هذا الاهتمام . كان منصرفاً إلى تصوير الفرق الشاسع بين منزلة الرياضة والرياضيين فى ألمانيا ومنزلتهم فى بلدنا ..

استمرت اللقاءات لفترة وهى تشبه أن تكون « كورس محاضرات عن الرياضة فى ألمانيا » .. وشيئاً فشيئاً بدأنا نحس أننا أقزام نعيش فى عالم بدائى وأن الكابتن فكرى هو السوبرمان الذى جاء يحمل رسالة المدنية والرياضة على أصولها إلى مجتمعنا الرياضى المتوحش .

كانت المحاضرة تبدأ عادة بكلمة « أنا لما كنت فى ألمانيا » ثم يتدفق كابتن فكرى يصف

مناقب ألمانيا والألمان ابتداءً من نظافة الشارع ، حتى مواصفات حمام السباحة بأصغر مدرسة ألمانية .

كان من الواضح أنه ينفس عن نفسه ومتاعبه من خلال الحديث عن الرياضة فى ألمانيا .. فقد كان يشعر بأن الجهاز الإدارى للرياضة فى مصر حكر فى أغلبه على غير الرياضيين ؟ وكان يرى فى ذلك مزاحمة غير عادلة . ويضرب المثل بألمانيا فى هذا المجال إذ تغلق هذا الجهاز على أهل الرياضة .

تحدث كذلك عن العلاقة بين اللاعب والمدرب فى ألمانيا . وجعلها بالمبالغة تشبه العلاقة بين العبد وربه .. عندها أدركنا أن الكابتن يستخدم رحلته لأغراضه الشخصية ، وبدأنا نكتشف المبالغات ونسخر منها من وراء ظهره . وهكذا كانت النتيجة فى النهاية عكس ما كان يصبو إليه ..

تحولت بالتدريج رحلة أوروبا من مادة يتباهى بها كابتن فكرى إلى مادة يسخر منها الفريق . انتقلت الكرة منه إلينا .. وتحولت رحلة ألمانيا إلى نكتة كبيرة على ألسنتنا الطويلة :

— أنا لما كنت . وينفجر الفريق بالضحك .

لم يعد كابتن فكرى من رحلة ألمانيا بخبرات فحسب ، بل عاد بشىء ثمين زف إلينا نبأ حصوله عليه بطريقة حاول بعناية أن تكون باهرة .. قال : لقد عدت من ألمانيا ومعى فاسبا !!

بدت لنا هذه الكلمة غريبة ، ولكننا بالتساؤل اكتشفنا أنه يقصد فسبا ، ولما كانت الفسبا وسيلة مواصلات شائعة بين الشباب ، فقد تندّرنا طويلاً من هذا الكنز الذى عاد به أستاذنا وزف إلينا نبأ اقتنائه . لم نترك شيئاً من رحلة ألمانيا إلا وحوّلناه إلى نكتة .. ولكن كابتن فكرى عرف كيف يسترد بسرعة نفوذه القديم ..

حين سافر كابتن فكرى كان قد فقد جانباً من الفريق الذى سهر على تدريبه ..

وتحولنا فى غيابه نحن أبناء فريق عم أحمد إلى قلب الفريق .

كما سمحت مرونة كابتن متولى بانضمام عدد كبير من الأولاد والبنات إلى الفريق ، ولكن هؤلاء سرعان ما فَرّوا بجلدهم مجرد وصول الكابتن فكرى .

كانت مجرد غزوة على الغنم فى غياب الراعى . فلما ظهر بعصاه فرت الذئاب ، وفر خلفها بعض الحملان ..

ولكنهم كانوا قد بثّوا الحرارة فى قلوب بنات الفريق ، حتى اللواتى أخلصن منهن للفريق وانتظرن عصا الكابتن الغليظة .. القادمة وشيكا من ألمانيا ..

وصل كابتن فكرى وبدأت المتاعب العاطفية . وكان على البنات أن يبحثن عن طريق غير سطح الحمام لتبادل نظرات الإعجاب ولو من بعيد ..

ولم يكن هناك إلا الطريق إلى المدرسة . ولحسن الحظ كانت مدرسة الصبيان تقع فى منتصف المسافة بين بيوت بعض بنات الفريق ومدرستهن الثانوية ..

كان من السهل تبرير قطع المسافة سيراً على الأقدام بدلاً من استخدام الأتوبيس على أساس أنها ضمن تعليمات المدرب . ولكن لم يكن من السهل علينا أن نخفى كل شيء على قرون استشعار كابتن فكرى ، بعد أن عاد من ألمانيا يستكشف على مهل كيف السبيل إلى عودة القبضة الحديدية لتحكم فريقه ..

لم يكن يبدو عليه إلا كل خير . وساد بيننا احساس بأن رحلة ألمانيا كانت كفيلة بفك كثير من عقد الكابتن فيما يتصل بالعلاقات بين الجنسين ..

منحنا كابتن فكرى شعوراً بأننا كتاكيت تحت جناحى دجاجة رؤوم دافئة الصدر تلقن صغارها التقاط الحب ، والجرى بمرح من حولها .. أوجدة عجوز تجيد عقد حلقات السمر ورواية الحواديت المثيرة للصغار ..

بدا لنا كأن أوروبا قلمت له أظافره ، وخلعت له أنيابه وأن « الفاسبا » التى عاد بها ليستخدمها فى الطريق إلى النادى والعودة إلى البيت قد حولته إلى طائر يحلق فوق تعقيدات البشر ويمنحهم بركته ..

لانت قناة كابتن فكرى آخر الأمر . ورحنا نزفّ هذه البشرى إلى كل معارفنا ، وقد تفاعلنا بمرحلة تجمع بين حسن التدريب وحسن المعاملة والإنطلاق الذى لا قيود عليه ..

بدأ يزورنا فى البيوت كواحد من أهلنا ، فيستقبله البيت بالترحاب ، ويسأل عن صحتنا وعن دراستنا . وكان يتعمد أن تكون زيارته مفاجأة بغير سابق موعد ، تماما مثل زيارات الملائكة . فإذا به بيننا فرداً من أفراد الأسرة حيث تسقط جدران الكلفة وتتوارى هيبة المدرب وتذوب مع الضحكات والثرثرة العائلية لهجة الأمر والنهى والتبكيت ..

وأحياناً كان يقترح بعد انتهاء التدريب أن نقصد بيت أحد الأعضاء ، ونفاجأ بأنه قام بترتيب أكلة جماعية هناك حيث تستقبلنا ربة الدار سعيدة بالمفاجأة التى دبرها الكابتن بالتعاون معها لإدخال السرور على أعضاء الفريق ..

وكثيراً ما كان تدريب الصباح ينتهى بمفاجأة سارة من مفاجآت كابتن فكرى . فالتدريب الصباحى كان يجعله فى أحسن حالاته حيث ينفرد بأبنائه وبناته وماء الحمام ، دون اقتحامات جمهور النادى الذى لا يتواجد عادة إلا فى المساء ..

مفاجآته السارة فى تلك المناسبة كانت دعوة إلى وليمة تين شوكى يبعث بمن يشتريه لنا من خارج النادى . وقد كان كابتن فكرى يقاوم لهفتنا على السميط بعد التدريب . فقد كان يعتبره حشو مصران بغير فائدة ..

ثم دخل تقليد آخر بناء على اقتراح من الكابتن ..

وزع على كل أعضاء الفريق مهام إعداد وليمة جماعية من الكشرى ، بحيث يكون لكل

فرد مساهمته فى جلب مفردات الوليمة الشهية .وكان موعدها المفضل هو ظهر كل جمعة .

لم يكن ترتيب ذلك سهلاً ، فإن قانون النادى يمنع دخول الطعام الخارجى إليه ، غير أن الكابتن فكرى استخدم نفوذه كقائد لفريق أصبح عزيزاً لدى إدارة النادى فى كسر هذا القانون ، والحصول على استثناء كان يعتبر ثورة فى عرف نادينا الصغير ..

شعرنا جميعاً بأنه يحول الفريق إلى أسرة بكل معنى الكلمة ، لها حياتها الخاصة وضحكاتها المشتركة خارج حمام السباحة ..

أما المفاجأة الكبرى التى كان يدخرها لنا كابتن فكرى فقد كانت تنظيف الحمام مرة كل أسبوع بواسطة جميع أفراد الفريق ..

لم يكن حمام السباحة بالنادى الصغير مجهزاً بمصفاة « فلتر » وكان يتم تفريغه يوم الاثنين من كل أسبوع ويقوم عمال النادى بتنظيفه .

فى البداية لم تعجبنا الفكرة ، تصورنا أن مسئولية تنظيف الحمام عمل يليق بعمال النادى ولكنه لا يناسبنا ..

تغير الموقف حين مارسنا تنظيف الحمام . لأول مرة تحول بروح الجماعة المرحة إلى لعبة جديدة اكتشفناها . جمعنا كل ما وصلت إليه إيدينا فى أركان النادى من أدوات نظافة . وقسمنا أنفسنا إلى مجموعات كل مجموعة تختص بحلقة من سلسلة التنظيف . وسرعان ما دبّ فى أجسامنا نشاط فوق العادة ، وقد انتابنا احساس بأن الأمر يخصنا بالفعل ، وهكذا تحول الحمام لأول مرة منذ إنشائه إلى حوض نظيف ناصع البياض ، يلمع كالبرق فى ضوء الشمس ..

وسطنا كان يعمل كابتن فكرى سعيداً يبث الحماسة ، وكان وجوده بيننا يعمل بيديه فى تنظيف الحمام كأى كناس محترف دافعاً للتفانى فى العمل .

وقد أثارت التقليعة الجديدة انتباه أعضاء النادى . فكان عدد منهم يحرص على ألا تفوته الفرجة على فريقنا وقد تحول إلى خلية نحل نشيطة تعمل ولها طنين ورنين ..

هكذا تحولت عملية تنظيف الحمام إلى متعة أضفناها إلى رصيد كابتن فكرى فى مرحلته الجديدة .. وكنا نعود إلى البيوت نحمل حكايات ، فقد كانت العملية تتسع لوقوع بعض الحوادث الطريفة وأحياناً المثيرة ..

فى يوم ..

بينما منى – أصغر أعضاء الفريق وكانت ممنوعة من النزول للتنظيف فى قاع الحمام تقف على الحافة تتطلع إلى الحركة المثيرة عند القاع . انزلقت وهوت مسافة عشرة أمتار هى عمق الحوض . انطلقت الصرخات . ارتطمت منى ببلاط القاع . احتبست الأنفاس . الكل يتوقع كارثة . اندفع الجميع لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ..

« منى » دقيقة الجسم ، شديدة النحافة ، قصيرة القامة ، راقدة مقطوعة النفس . لم

يكن أحد منا يشك فى نتيجة الحادث . وقبل أن نلتقط أنفاسنا المبهورة .. متى تتحرك ، تتمطع مثل قط ينفض الكسل عن جسمه وتنهض . تتطلع إلينا بعيون مذهولة . تتقصع . تكتشف بنحن معها أنها لم تصب بخدش وأن شبر الماء الذى كان متجمعاً فى ركن القاع كان كافياً لحملها على كف حنون .

معجزة .. فرحنا فقد كانت منى محبوبة بيننا . كانت تجيد السباحة من سن الرابعة . ويوم أن قطعت خمسة وعشرين متراً سباحة متواصلة ، كان يوما مشهوداً فى النادى الذى أقام لها حفلاً قدم فيه إليها كعكة كبيرة ودمية جميلة ..

مضت بنا الأيام الأولى بعد عودة كابتن فكرى سهلة ، لطيفة ، خالية من المشاكل ، فى جو عائلى يخفف من مصاعب التدريب بفضل الخبرات الجديدة التى اكتسبها الكابتن من ألمانيا ..

غير أن ما عاد به الكابتن لم يكن « الفاسبا » وروح الجماعة العائلية فحسب .. لقد دخلت التكنولوجيا فى صميم تدريبنا ..

فى الماضى كان الكابتن يجتمع بنا بعد كل تدريب يستعرض ملاحظاته على الخطأ والصواب بالنسبة لكل عضو ..

كان يصف الحركة الخطأ ، ثم يصف طريقة تصحيحها .. يقف على حافة الحوض وبيده كاميرا ليحصل على لقطات معينة لنا أثناء السباحة . ثم من حين إلى حين يجمعنا أمام شاشة فانوس سحرى « بروچيكتور » لنشاهد صورنا بينما يشرح الخطأ والصواب أثناء العرض ..

من التكنولوجيا الحديثة التى دخلت إلى عالمنا على يد الكابتن العائد من الغرب .. الكتب المتخصصة . بعضها عن التشريح .. وبعضها كان عن بناء الجسم وعضلاته ، وبعضها عن الحركة فى أنواع السباحة المختلفة ..

هكذا دخلت المراجع والمحاضرات التى كان يدعونا إليها كابتن فكرى ليحاضرنا عن فن الرياضة ابتداءً من التشريح إلى إنقاذ الغرقى ..

الحق أنه كان يشركنا فى كل ما يصل إليه من معلومات ، ويضع تحت أيدينا مراجعه التى جلبها من رحلته ..

هو نفسه اعتراه شوق شديد إلى الإطلاع ، وعرفنا أنه يرتاد المكتبات ليحصل على كل ما يقع تحت يديه من كتب عن السباحة ، وأصبح عادياً أن يدخل الكابتن من باب النادى وتحت إبطه مجموعة من الكتب الجديدة ..

بل وصل الأمر إلى أكثر من ذلك يوم جاء الكابتن ليبلغنا انه اتفق مع المسئولين فى كلية الطب على زيارة إلى المشرحة لنستمع إلى محاضرة عملية فى التشريح ..

وقع علينا النبأ وقع الصاعقة ، غير أنه كان لطيفاً وهو يقنعنا بصبر أننا سنتحمل

الصدمة ، وأن كل طلبة وطالبات كلية الطب يبدأون حياتهم الدراسية بهذه الزيارة التى تتحول إلى درس عادى ، عندهم ..

فى الموعد المحدد انطلقنا جماعة ، يقودنا الكابتن .. عند باب المشرحة تقدم الفتيان فى محاولة لإظهار الجرأة .. بينما تخلفت البنات .

وقف الكابتن على الباب يلحّ علينا . كانت رائحة « الفورمالين » تنبعث من المكان ، وتصيبنا بحالة غثيان ..

رفضت البنات الدخول . تفرقنا فى الساحة ثم تجمعنا على شكل حلقة مذعورة ، وحين أصاب اليأس الكابتن فكرى ، دخل فى أعقاب أعضاء الفريق من الصبيان . بعد ساعة خرجوا مبهورين وتطوعوا بشرح ما رأوه واستمعوا إليه ..

كانت هناك إشارات وضحكات مكتومة ، وتساهل كابتن فكرى فى تمريرها بسلام ..

وأثار إدخال التمرينات على الحديد بالنسبة للبنات ضجة .. التدريب على الحديد لتقوية العضلات كان موجوداً بالنسبة للصبيان غير أن كابتن فكرى صمم بعد عودته أن يكون التمرين على الحديد للجميع .. وتسلل جمهور النادى ليشاهد البدعة الجديدة ، والبنات يرفعن « بار » الحديد المثقل بالأقراص الثقيلة وقد برزت عضلاتهن ونفرت عروقها .

وأصبح أمراً عادياً أن يصحبنا الكابتن كل ستة شهور إلى مستشفى حكومى لتوقيع الكشف الطبى الشامل على أعضاء الفريق للاطمئنان على صحة القلوب والأحشاء والأعصاب ..

أطرف نتائج الكشف الطبى الدورى ، كان بطلته نفيسة . كانت فتاة بيضاء ولها شعر أسود طويل يمتد فوق جسم نحيف يابس خالٍ من « التضاريس » وأصبحت مثار ظنون تقرب من اليقين فى قرب تحولها إلى ولد ..

هكذا قال الأطباء ..

أما نحن فتيات الفريق فقد التففنا فى حلقة نتشاور مذعورات ضاحكات من دخولها معنا غرفة خلع الملابس ، وأخذنا نتصور ما سيتطور إليه الموقف إذا تحولت نفيسة إلى الأستاذ نفيس . غير أننا حولنا مخاوفنا إلى نكتة حين تبين أن ظن الأطباء كان مبالغاً فيه ..

وفى يوم من الأيام زف إلينا الكابتن نبأ ساراً ..

كان يسعى منذ زمان ليتفرغ بتصريح من الشركة للتدريب ..وأخيراً استجابت الشركة إلى طلبه فتحقق حلم من أحلامه ..

أن يتفرغ ويعيش على سطح الحمام ، وبقى أن يموت فى نفس المكان ..

٢

كان ذلك فى بداية الصيف .

أصبح يوم الكابتن فكرى كله للنادى ولنا .

اهتم بتنظيم العمل بصورة سريعة ودقيقة . قسّم حمام السباحة إلى قسمين : قسم صغير خصصه لتدريب نجوم الفريق : شيرين .. ونادية .. وسمير .. وسعيد .. ورجاء .. فهؤلاء حصلوا على بطولة الجمهورية .

القسم الأكبر من الحمام ، تركه لسائر أعضاء الفريق ..

وأصبح التدريب يبدأ فى السادسة بدلاً من الثامنة صباحاً ، وشدد كابتن فكرى على تعليمات خاصة بالتغذية والراحة ..

كنت أستيقظ فى الخامسة ، أتناول بسرعة أفطارى المكون من بيضتين مسلوقتين بلا خبز ، وكوب من اللبن المخلوط بعسل النحل ..

استقبل برد الصباح المبكر وأنا بالترينغ سوت ومن تحته مباشرة المايوه .. الشارع مدهون بلون رصاصى هو لون ما بين الفجر وبزوغ الشمس . السكون لا يقطعه إلا حركة عدد قليل من المارة ، وعند سور المستشفى كانت تتطلع إلىّ عيون متوثبة للكلاب الضالة متربصة أمام باب الڤيللا الغامضة ..

أحياناً كان مرورى يجذبها إلى حركة أتوجس منها شراً ، وعادة كانت حركتها تنتهى بهرولة كأنما انطلقت إلى أمر هام ، ولكن بعضها أحياناً كان يقترب منى فى تؤدة وحذر ..

أرقبها بطرف عينى ، وأتصنع الهدوء ، حتى إذا صرت بعيدة عن متناول براثنها أقطع ما بقى من الطريق وثباً كالغزال ..

كثيراً ما كنت التقى ببعض أعضاء الفريق فى طريقهم إلى النادى ، وحينئذ كان مشوار الصباح يتحول إلى متعة ..

على سطح الحمام نخلع الترينغ سوت . يلسعنا برد الصباح ويختلط ارتجافنا بالضحك ، فى انتظار إشارة البدء من الكابتن .

كان بالفريق بعض من لا يحتملون البرد . جلال مثلاً كان يتحول إلى كتلة أعصاب مشدودة تطقطق من البرد ، وحين كانت الطقطقة تبدأ ، كنا نقول أن سلك الكهرباء داخل جسمه بدأ يعمل ..

غير أن واحداً منا فى النهاية كان يتطوع بالمجازفة . يقفز نحو الماء وهو يطلق صرخة أشبه بصرخات الهنود الحمر فى الأفلام ..

الغريب أن الصرخة كانت تحفزنا إلى القفز . وبالتدريج كنا نعتاد على برودة الماء وكان الماء نفسه يدفؤ حين يمتص بعض حرارة أجسامنا ..

تدريب الصباح هو لتقوية الأطراف . نمسك بعض قطع الخشب أو الفلين بالأيدى ونثبت الذراعين ، ونترك الساقين تعملان وحدهما ، ثم تتبادل الساقان المواقع مع الذراعين فى ثبات الحركة ..

بعد التدريب نتحلق حول الكابتن نثرثر ونستمع إلى بعض النصائح ، ثم نعود لتناول وجبة الأفطار على مهل فى البيت ..

تدريب المساء لا يختلف عن تدريب الصباح إلا فى مكان الجلسة الختامية ، كان الكابتن يعقدها بعد التدريب فى شرفة الدور الأول من مبنى النادى ..

يوم الاثنين كان له طعم خاص ..

أغلب النهار كان أجازة تنتهى عصراً .. يصحبنا كابتن فكرى إلى ملعب كرة القدم بالنادى لمزاولة تدريبات السويدى العنيفة ..

ندور حوله ست دورات .. نذرع المدرج قفزاً صعوداً وهبوطاً لتقوية عضلات السيقان .. ننتشر فى ملعب كرة القدم وقد انقسمنا إلى فريقين وتجرى مباراة حقيقية بينهما تنتهى بمسيرة إلى ملعب الباسكيت بر لتقوية الذراعين . ومنه إلى ملعب الجمباز حيث نتعلق كالقرود على المتوازيين .. وإلى حمام السباحة يكون ختام اليوم ، حيث نقوم بالتنظيف الجماعى .. وسط تعليقات جمهور النادى الذى اعتاد على التمتع بمشاهدة هذه البدعة التى بدأها الكابتن بعد عودته من ألمانيا ..

كانت الحرارة تدب فى أوصال الفريق بشكل غير عادى بعد التنظيم الجديد والتدريب الكثيف الذى فرضه الكابتن علينا .. بجانب حرارة الحماسة تحركت مشاعر المنافسة . لم يكن الكابتن بعيداً عن اثارتها فى الحقيقة .

كان يعلم بخبرته أنها عامل مهم فى خلق الأبطال وفى ذلك استخدم كل خبرته وذكائه .

فى البداية انفجرت المنافسة بين شرين ونادية على مركز الصدارة فى سباق المائة متر صدر ستة عشر سنة بنات ..

منافسة شريفة راقية ، تبدأ داخل الماء عندما تنطلق صفارة الكابتن وتنتهى مجرد الخروج من الماء ..

التدريب العنيف كان هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق تقدم إحداهما على الأخرى ..

كانت نادية هى التى حققت البطولة أولاً ، وحافظت عليها لعدد من السنوات ، أما شيرين فكانت جديدة على البطولة ، وبعدها استمرت فى تحقيق نتائج طيبة ..

خلال غياب كابتن فكرى تفوقت شيرين على نادية ، ومن يومها وهى تحاول المحافظة على هذا التفوق ..

كان لشيرين إرادة من حديد ..

ثم بدأت سلسلة من المنافسات شملت كل أعضاء الفريق ..

كان النشاط فى فريقنا يجرى على قدم وساق .

دوّامة منظمة محكمة صنعها كابتن فكرى باتقان كبير ..

كان يبدو للكبار أن كل من يخضع لهذا النظام لا يمكن أن يجد وقتاً لما يسميه الكابتن بالتفاهات .. والتفاهات فى رأيه يتصدرها الحب . وتشمل تقاليع الموضة ، والقراءة خارج دائرة المدرسة والمراجع الرياضية وحتى مصادقة بنات النادى أو فتيانه من غير أعضاء الفريق ..

كان كابتن فكرى يرى أن المجموعة التى خرجت من الفريق بوصوله سواء البنات أو الصبيان هى مجموعة من الخوارج يجب بتر أية علاقة بها . حتى الصداقة كان يعتبر أنها تقاس بالولاء للّعبة ..

هكذا صدرت تعليماته القاطعة لكل الفريق . وخاصة البنات بقطع علاقات الصداقة التى تمت فى غيابه مع الخوارج ..

تعليمات كابتن فكرى بهذا الخصوص كانت مشوبة بالتهديد . إما الولاء للفريق أو مغادرته .

تلقينا الصدمة بقلوب مذعورة ، لم يكن سهلاً علينا أن نقطع علاقات توثقت ، وأيضاً لم يكن سهلاً علينا أن نفارق فريقنا . حاولنا التوفيق بين الأمرين . استقر رأينا على أن نلعب لعبة مزدوجة تعتمد على تنفيذ أوامر الكابتن فى الظاهر بينما تستمر العلاقات ، وتتخذ طريق السرية ..

ارتحنا إلى خطتنا الساذجة ، ونزلنا يوماً إلى غرفة خلع الملابس نشرحها لصديقاتنا من الخوارج . قوبل الاقتراح بصيحات الاستهجان والاستهزاء .. اتهمتنا صديقاتنا بالجبن ، واستمراء العبودية ، ورفضن هذه الصداقة التى تقوم على التنكر والتستر ..

أحسسنا بأننا ضعاف بالفعل . كان منطق الخوارج قوياً .. بطشن بنا فى سهولة ، وهن يسخرن من الصداقة المشروطة ويعلن رفضها . ونحولنا إلى مجموعة منبوذة باعت الصداقة بثمن رآه الخوارج بخساً .

انتابنا حزن عميق ، ولكن كانت لنا وجهة نظر أخرى ، أن الثمن لم يكن بخساً ، ونحن لم نفرط فى الصداقة . كنا نتمسك بها ونريد أن نحميها بالوسيلة الوحيدة التى تفتق عنها تفكيرنا ..

كانت البطولة أمراً ثميناً فى عيوننا وكنا على يقين من أن تحقيقها مرتبط بتنفيذ تعليمات الكابتن على قسوتها ..

مزقنا الموقف . غير أن الدوامة التى تبدأ من الفجر ولا تنتهى حتى نرتمى على الفراش منهكات . كانت كفيلة بخطفنا من حالة التمزق التى عشناها فى البداية ..

ولم يتوقف الكابتن عن الدفاع عن وجهة نظره ..

كان يرى أن الفتيات والفتيان فى سن المراهقة يفكرون عادة فى أمور بعيدة عن أهداف الرياضى الحق الذى يرى فى الرياضة كل حياته ، ويعطيها كل طاقته .. واهتمامات الشباب فى سن المراهقة إذا لم تحكمها أهداف كبيرة مثل الرياضة تؤدى إلى الانحراف ، والمنحرف يجر صديقه وراءه دون أن يدرى .

لم يكن كابتن فكرى يملك دليلاً على انحراف الخوارج . دليله الوحيد كان اعتزالهم المبكر . لأن الاعتزال هو استعداد للانحراف ، وعدم قدرة على الصمود لتحقيق الأهداف الكبيرة .. سقطوا فى الامتحان . كان هذا رأيه .. فقدوا القدرة على الصبر ، وجذبتهم الأمور الأخرى . والأمور الأخرى هذه كثيرة بعضها تسمعون عنه وبعضها لا تسمعون عنه ..

حتى التحية كانت مرفوضة ، لأن التحية فى رأى كابتن فكرى كانت مقدمة للكلام ، والكلام مقدمة للفعل . وأفعالنا إما أن تكون للرياضة أو الانحراف فى مثل هذه السن ..

استسلمنا للدوامة ، وتحملنا سخرية الخوارج منا فى كل مناسبة ، وظلت هناك غصة فى قلوبنا رغم أننا فى الظاهر انصرفنا إلى التدريب وتخلينا عن صداقاتنا ..

استعاد الكابتن كل ثقته بنفسه بعد انتصاره فى هذه المعركة .. أدرك أن قيادنا قد أصبح سلساً فانتقل إلى خطة جديدة ..

عاد إلى تعليقاته القديمة على الملابس والزينة .

ومن السخرية انتقل إلى إصدار الأوامر ..

تقصير الشعر للبنات وقص الشعر للصبيان .. ممنوع دخول السينما لأنها مرآة تعكس مساؤى المجتمع .. ممنوع الانضمام إلى السهرات العائلية لأنها مضيعة للوقت وابتذال للعقل ..

لم يكن أمامنا إلا التنفيذ . كنا نحس بأصابع كابتن فكرى الغليظة تزداد انطباقاً على أعناقنا .. ولكن الماء كان يستعبدنا فأسلمنا رقابنا إلى سلطان الماء وأحلام الانتصار ..

نحن نحب الماء ، وهو يجيد إغراقنا فى لجة هذا الحب أكثر فأكثر ، ويدفع بنا إلى الأعماق أكثر فأكثر ..

المنافسة والبطولة ، المثل الرياضى الأعلى ، القدوة ، الأرقام ، العضلات ، الماء .. الماء الذى لا حياة لنا بدونه ولا مجد .. ولا نجومية .. ولا بريق .. ولا شهرة . صنع عقدتنا وراح يجذبنا منها فننجذب إليه ..

أصبحت مصائرنا معلقة بهذه الكلمات التى تخرج من فمه ساخرة مرة وآمرة أخرى .. ومشيرة دائماً إلى آمال كبيرة تحقيقها رهن بتنفيذ إشارته . إلى أن كان يوم تلقينا فيه درساً قاسياً ..

كانت « بانسيه » سباحة وطالبة فى معهد الباليه .. كانت فى فريق أكثر نوادى القاهرة أرستقراطيه ، اكتشفها مخرج سينمائى وقدمها فى دور البطولة فى فيلم ..

كنا نتتبع أخبار بانسيه أولاً بأول باعتبارها زميلة فى فريق منافس وحين عرض الفيلم ونجحت البطلة أصبح حديث بانسيه من الموضوعات المحببة إلى قلوبنا ..

وفى يوم جاء زميلنا سعيد بعدد من مجلة مصورة ، وبه حديث طويل مع بانسيه ..

قرأنا الحديث جماعة وعلقنا على كل كلمة فيه .. وحين قالت بانسيه للمحرر إن القبلة التى ظهرت فى الفيلم كانت مجرد تمثيل وإنها كانت أول قبلة فى حياتها .. قالت شيرين ..

ـ لماذا .. أليس هناك ملاعب فى ناديهم ؟!!

وضحكنا ..

كانت الملاعب الواسعة هى المكان المفضل للقبلات المختلسة فى النوادى ..

ووصلت النكتة إلى أسماع الكابتن فكرى .. وأدار حولها اجتماعاً كان كله تبكيتا وتأنيبا .. وصدرت الأوامر بإغلاق ملف بانسيه ومنع تداول أخبارها وأحاديثها الصحفية بيننا ..

لقد اعتبرها كابتن فكرى شاردة خانت الرياضة وأهانت السباحة وفضلت البطولة المزيفة على البطولة الحقيقية ..

فعرفنا أن أحلام اليقظة نفسها تخضع للرقابة المشددة من الكابتن فكرى ..

قال مرة بلهجته التى تقطر سخرية : أظن أن كل واحدة منكن تحلم الآن بمخرج يخطفها من الحمام على ظهر كاميرا تصوير ليصنع منها بطلة على الشاشة ..!!

أصبحنا أشبه بفرقة انتحارية تخضع لأقسى ألوان التدريب ولا تردد إلا ما ينطق به رئيسها ، ولا تنفذ إلا أوامره ..

الشعر مقصوص .. الوجوه بدون ماكياج .. الأصابع بدون أصباغ أو خواتم .. الملابس أقرب إلى يونى فورم المدرسة ..

وحدث ذات يوم أثناء التدريب أن زاد الكابتن من حدة انتقاداته إلى زميلتنا هند بشكل ملحوظ ..

توجسنا خيفة وتحققت مخاوفنا حين اجتمعنا إلى الكابتن بعد التدريب ، وراح يلمح إلى ظاهرة الاستعراض وكيف أن الاستعراض داء يدمر صاحبه .. فهمنا جميعاً أنه يقصد هندا ..

كانت هند من النوع الاجتماعى بحكم طبيعة الأسرة ، وكان لها عدد وفير من الصداقات بالصبيان من خلال العلاقات العائلية التى كانت تعقدها أسرتها ..

بالصدفة أو بالقصد كان اختلاط هند بالصبيان ملحوظاً ، ولكن فى اطار اجتماعى مألوف فى نادينا ..

لم يكن كابتن فكرى راضياً عن هذه الظاهرة ، واعتبر أن هنداً من النوع الذى يهوى الاستعراض وأن هذا هو سبب أواصر الصداقة التى تجمعها بالفتيان ..

وزاد من تحامل الكابتن عليها ، أنها الوحيدة التى تحدت أمره بتقصير الشعر ..

تخرج كجنية الماء من غرفة خلع الملابس . الشعر الطويل منسدل إلى نهاية المايوه . تجلس على حافة الحوض ، تبدأ تعقص شعرها ، وتكومه تحت البونيه حتى لا يصيبه البلل . حين تخرج من الماء ، تخلع البونيه فتنسدل خصلات شعرها الكستنائى الجميل إلى مكانه من نهاية المايوه ، ثم تهرع فى خطوات كسول لتستلقى فى الشمس ..

لم يكن صعباً أن نلاحظ انفعالات الكابتن فكرى وهو يعض على نواجذه . لهذا تفجر الموقف فى ذلك اليوم ..

انتهى تدريب الصباح .. نزلنا إلى غرفة خلع الملابس ، وتخلفت هند . حين خرجنا كانت مستلقية على مصطبة من المدرج تتلقى أشعة الشمس . عادة لم تكن هند تفرط فيها . مستلقية على صدرها وأمواج الشعر تغطى جذعها ، بينما نصفها الأسفل الذى لا تدركه أمواج الشعر يلمع تحت وهج الشمس .

على مقربة من الحمام ، كان هناك فتيان يتقاذفون كرة فيما بينهم . افلتت الكرة وسقطت فى الماء ..

نهضت فى خفة ، قطعت المدرج وثباً . قفزت إلى الماء . احتضنت الكرة ، وأعادتها إلى أصحابها بين صيحات الإعجاب ..

خيم جو كئيب على اجتماع المساء . تطاير الشرر من عينى كابتن فكرى . تعلقت عيوننا بوجهه الغاضب الصارم ..

بدأ الكلام مباشرة فى الموضوع ..

قال : إننا لسنا فريقاً للاستعراض ، ولسنا رحلة شباب على بلاج المعمورة .. نحن فريق رياضى يحترم نفسه وسمعته وخاصة سمعة فتياته ..

نزل بالمطرقة على رأس هند ، واستطاع أن يحول حركة الصباح التى قامت بها إلى جريمة بشعة . مسخ كل شىء ليصل إلى هدفه ..

خرجنا بعد ساعة كأن على رءوسنا الطير ، ولكن الغريب أن هنداً تملكتها حالة من الاستهزاء واللامبالاة ، وسلقت الكابتن بلسان حاد على غير المعتاد فيما بيننا ..

لم نكن ندرى أن هنداً قد اتخذت قرارها بترك الفريق . وبعد أسابيع قليلة انتقلت أسرة هند إلى النادى الكبير ، وانتقلت هند أكثر إندفاعاً إلى حمام السباحة الخرافى ومارست هناك استعراضاتها بغير قيود ..

كان النزوح إلى النادى الكبير هو حديث كل يوم فى نادينا . البعض كان يراه انتقالاً طبيعياً ومنطقياً من ناد محدود الإمكانيات إلى ناد واسع الإمكانيات . والبعض كان يراه

غدراً وخيانة ونوعاً ممجوجاً من الجرى وراء الاستعراض .

ترك أخى أيمن الفريق بين من تركوه وانضم إلى النادى الكبير ، وقدّر لى الكابتن فى ذلك الوقت أننى رفضت الانتقال معه .

وقف الكابتن فكرى بكل ما يملك من قوة على السخرية يشيع النازحين باللعنات ..

كان يرى أن النادى يفرز ويصنف الذين هم أهل للبطولات والذين لا هم لهم إلا الفشخرة الكذابة ..

زادت جرعات الوصايا والحديث عن القيم الرياضية فى اجتماعات الفريق .. غير أن الكابتن كان يدرك مخاطر النزوح على مقومات فريقه ، وبالتالى على وضعه فى النادى ..

بدأ يخفف من انتقادنا ويتغاضى عن هفواتنا ، واخترع وسائل جديدة ليربطنا بنادينا وبالحمام وبالماء المقدس ..

نظم لنا مباريات مشتركة لكرة الماء ، تتدفق مرحاً وشقاوة ..

كان من طبيعة اللعبة أن تتحطم جميع الحواجز بين الأولاد والبنات . ومارسنا نحن المحظورات التى تمنعها قواعد اللعبة ، بينما كان على الأولاد الالتزام بها . كنا نقوم بتغطيس الأولاد فى الماء وانتزاع الكرة عنوة ، مطمئنات إلى أنهم لا يستطيعون الرد بالمثل ، والغريب أن كابتن فكرى كان يضحك ملء شدقيه من هذه التجاوزات .

كان يلعب دور الحكم المتساهل مع البنات ، ولا يعترض وهو يرى البنت تضغط بكل قوتها على كتفى الولد ليهبط إلى القاع متخبطاً ، ويتخلى عن الكرة . يضحك فحسب ويقول أن الأولاد أصابوا من التمرين على كرة الماء ما يجعل للبنات الحق فى عدم الالتزام بالقواعد .

بمثل هذه المشهيات استطاع كابتن فكرى أن ينسينا الجدل المثار حول النزوح إلى النادى الكبير ، وجعلنا نتمسك أكثر فأكثر بنادينا ..

كدنا أن ننسى وسط وسائل المرح الجديدة قصة هند . وهضمنا التعليمات الصارمة بالمشهيات التى ابتكرها .

كنا قد نجحنا فى اخفاء حكاياتنا العاطفية عن عينى الكابتن النفاذتين بعد أن نقلنا نشاط هذه العواطف إلى السرية ..

كنا نعلم أن عينى الكابتن تتابع عيوننا إلى أين تتجه . فتوقفنا عن حديث العيون . وكنا نعلم أن أى همسة عابرة يتبادلها الفتى والفتاة فى أى ركن من أركان النادى تلتقطها أذنه . فعدنا إلى أسلوبنا القديم ..

اعتبرت كل واحدة منا نفسها مخبراً صحفياً مكلفاً بنقل الأخبار إلى الأخريات . إذا رأت الفتاة فتى يهم صاحبتها فإنها تبلغها بوصوله ، ومكان وجوده ، والشلة التى يجلس بينها ..

اكتفينا بالحب فى مشاهد منقولة عبر الآخرين ..

وتصورنا أننا نجحنا فى تضليل الكابتن وإرضائه وإرضاء أنفسنا قدر ما تسمح الظروف ..

إلى أن وقعت الواقعة ..

فرض الكابتن ذلك اليوم جو التوتر على تدريب المساء ، مضى التدريب سريعاً قصيراً جافاً .. وحين نزلنا إلى غرفة خلع الملابس ، تبادلنا التكهنات وقد شعرنا بالغريزة أن هناك عاصفة على وشك الوقوع . لم نستطع الاستدلال على شىء . خرجنا كفئران الليل نتحسس الخبر . وجدنا كابتن فكرى فى انتظارنا بالشرفة وحوله بعض أفراد الفريق من الفتيان . وكان نفس القلق يشملهم جميعاً ..

بعد فترة صمت رهيبة بدأ الكابتن يروى حكاية وقال :

- خرجت اليوم لقضاء مصلحة . وعندما عدت إلى النادى كانت نادية تقف على ظهر الحمام مع حصان من لاعبى الهوكى تلفهما حالة من المرح الشديد ، تخرج على المألوف الذى تعودنا عليه ، ثم ختم الحكاية بشتمة قبيحة .

توتر الجميع .. واتجهت الأنظار جميعها إلى نادية . لم تكن نادية مثل هند . نادية هادئة .. طيبة .. قليلة الكلام .. غاية فى البساطة .. والرقة .. ليس لها مخالب هند ولا حدة لسانها ..

امتقع وجهها الأسمر وهى تجيب فى شبه استغاثة ..

- العلاقة عائلية .. ولم يكن فى وقفتنا شىء يسىء إلى أحد منا .. كنا نتذكر وقائع مسرحية ونضحك من مفارقاتها ..

قلب كابتن فكرى الجلسة إلى محاكمة لنادية ، استخدم فيها أسلوب المباغتة ، والتلويح بالعقاب ..

قال : لن تغادرى الاجتماع قبل أن تصدقى فى كلامك عن حقيقة العلاقة ..

قالت : ليس عندى كلام جديد ..

قال : كذب .. وسوف تندمين على الكذب ..

قالت : قلت كل الحقيقة ..

قال : الحقيقة سأحصل عليها ، ومن مصلحتك أن تبوحى بها الآن ..

انهارت نادية باكية ..

خرجنا من النادى نضرب أخماساً فى أسداس ، وقد تملكنا خوف شديد .. كان أخشى ما نخشاه أن تكون خياناتنا العاطفية التى تصورناها سراً ، وتكتمناها بجميع الحيل الممكنة قد وقعت بين مخالب الكابتن ..

هل يمكن أن يحاسبنا على نظرات العيون ؟

حتى هذه كنا قد تنازلنا عنها ..!

هل يمكن أن يصطاد من بيننا من تطلعه على أسرارنا ؟

ـ ممكن .

ـ غير ممكن .

ولم يستقر لنا قرار ..

تمنينا أن تنتهى مسألة نادية عند هذا الحد . وأن يعتبر الكابتن بكاءها اعتذاراً . وأن يصدق كلامها ..

كانت نادية أقلنا كلاماً . وخاصة فى مسألة العواطف ، لم نكن نعرف لها ظهراً من بطن . كنا نحبها وكفى .. كانت ودوداً ولطيفة ودافئة القلب ! ولكننا كنا نعتبرها غير صريحة (خنيسة) ومع ذلك صدقنا بكاءها . فهل يصدقه الكابتن ؟ .. لم يطل انتظارنا ..

ذات صباح بعد التدريب ، دعا الكابتن إلى اجتماع عاجل ، وراح يروى بحضور نادية قصة طويلة سماها الحقيقة بحذافيرها ..!

قال : هناك مسألة لا تعرفونها . كان بينى وبين والد نادية .. اتفاق بناء على طلبه هو أن أراقب نادية كعم لها ، وأن أبلغه كصديق عن رأيى فى سلوكها ..

تركزت العيون حول نادية . كانت تتضاءل وتضيع ، فالذى صنعه الكابتن فكرى كان أشبه بتفجير قنبلة ..

ترى كم والد من أولياء الأمور قام بتكليف الكابتن أن يلعب دور الرقيب على ابنته ؟

تهاوت قلوبنا إلى أقدامنا . أحسسنا أننا عراة يرمقنا عالم الكبار بعيون ساخرة ..

استطرد الكابتن موجها الحديث مباشرة إلى نادية :

ــ انت كذابة يانادية !! .. لقد سألت والدك عن حقيقة العلاقة بينك وبينى الشاب ، فاكد ان هذه العلاقة لا تسمح لكما بمثل هذه الوقفة وهذا المرح .. إن العلاقة بين عائلتك وبين حصان الهوكى سطحية وعابرة ، وقد ترك لى والدك أمر محاسبتكما ..

أعلن كابتن فكرى أن عقابه سيمتد إلى الحصان لأن المسألة تتعلق بسمعة فريق السباحة أولاً وأخيراً ..

السمعة .. وقعت علينا هذه الكلمة وقع الصاعقة . تحولنا إلى كائنات ضعيفة هشة تكاد تستجدى العفو والمغفرة ، وأحسسنا أننا انتهينا إلى فتات يفركه الكابتن بين أصابعه ..

أما هو فكان يجلس وقد ملأه إحساس بأنه سيد الموقف .. وأننا بالونات مشدودة إلى خيوط يمكسها بإصبعين بينما يستطيع أن ينسف أى بالونة فى أقل من ثانية ..

استطاع الكابتن آخر الأمر أن يمسك بحادثة محددة ، بعد أن كان يلمح إلى هذه الأمور من بعيد ، ولا يستطيع أن يشير إلى حادثة ، ولا يملك دليلا قاطعا ..

بعد الاجتماع كنا جميعا نشعر بأن الكابتن قد اصطاد سمكة . بينما وقفت سائر السمكات مسمرات لا يستطعن حتى الهرب . أصابنا شلل مثل ذلك الذى يصيب فريسة الثعبان حين يركز عليها عينيه الثاقبتين ..

حولت نادية نفسها بنفسها إلى منبوذة ، لم تعد تنتظم فى التدريب . وإذا حضرته تحركت مثل شبح تمضى بعد نهايته إلى البيت ..

لم تعطنا حتى فرصة المواساة ولا مناقشة حقيقة الأمر ..

ولم يرحم كابتن فكرى نادية فى مأساتها ..

فى فترة سفره كان عدد من فتيات الفريق يترددن على بيت نادية لتفصيل ثيابهن ، فقد كانت أمها تجيد التفصيل . وراح كابتن فكرى بعد واقعة نادية وحصان الهوكى على حد تعبيره يلمح فى سخرية إلى هذه العلاقة التى تربطنا ببيت نادية ..

كان يرسل فى أعقابنا بهذه العبارة :

ـ ذاهبة إلى الخياطة . عائدة من عند الخياطة ، أنا لا أحب مشوار الخياطة هذا ..!

وطبيعى أن كابتن فكرى لم يوجه كلامه إلى واحدة منا بالذات فكان من الصعب أن ترد إحدانا عليه ، وفهمنا أنه يأمرنا بقطع التعامل مع هذا البيت ..

الغريب أننا نفذنا أمره ، رغم أنه كان تلميحاً ..

كانت قلوبنا تتقطع من أجل نادية . وكنا نحس بتأنيب الضمير لأننا قطعنا حتى هذه العلاقة الواهية بها ..

ولكن الماء كان قد استعبدنا . وكان كابتن فكرى يسيطر على الماء بكل ما يعنيه لنا من بريق ومجد وشهرة ..

٣

تحول الحمام بالنسبة إلينا إلى مطهر ..

أغرقنا همومنا فى التدريب ، وكان هذا السلوك منا يلتقى تماماً مع رغبة الكابتن فكرى . رأى اننا أصبحنا اسلس قياداً ، وأعتقد أننا وعينا الدرس فصنع المستحيل ليمنحنا عصارة خبرته ..

السباقات الصيفية بين أندية المنطقة موعدها يقترب فى الوقت الذى استطعنا بالتدريب الشاق اكتساب أرقام طيبة ..

كانت نادية تتردد على النادى وتشارك أحياناً فى التدريب . ولكنها دائماً متدرعة بصمت مطبق ، ونادراً ما كان الكابتن يوليها اهتمامه القديم . أصبحت كلماته إليها موجزة ، وتعليماته متباعدة ..

شعرنا بأن نادية تكافح بصمت حتى لا تنفصل عن الماء ، رغم انفصالها عنا ، وانفصالها عن مدربنا . ولم يكن صعباً أن نكتشف أن معركتها فوق طاقة البشر ..

لم تعد ترى فى صحبة أحد . تتجنب الصبيان خاصة . وتحيينا من بعيد مكتفية بصديقها الوحيد الذى ظلت مخلصة له وظل يستقبلها بترحاب : الماء ..

اكتسبت عيناها عمق الأحزان التى لا تلائم سنها . أصبحت حركتها بطيئة كأنها تنوء بثقل تفكير ثقيل . ولكنها فى الماء كانت هى نادية القديمة ، وكأن الماء كان الكائن الوحيد الذى يستطيع أن ينسيها ما حدث ..

فيما بيننا كنا قد وصلنا إلى رأى هو أن نادية مظلومة فى كل الأحوال حتى لو كانت على علاقة بذلك الشاب الذى سماه الكابتن حصان الهوكى .

إن الفارق الوحيد بيننا وبينها ... هو أنها طفت بعاطفتها فوق السطح ، بينما نحن نداري عواطفنا فى القاع جبناً وفزعاً .

ولم يكن يعكر علينا صفو انغماسنا فى التدريب إلا حالة تأنيب الضمير هذه . تلسعنا عندما تغيب نادية ونفتقدها . وتلسعنا وهى تسبح بيننا . ثم وهى تختفى حين تبدأ لحظات المرح على سطح الحمام ، مبتعدة بخطوات وئيدة مثل فلاحة تحمل جرتها على شاطىء ترعة ..

حاولنا أن نشركها معنا فى حديث السباقات القادمة فكانت تشارك بأقل قدر من الكلمات . كلمات جوفاء تنقصها الحماسة .

وبدأت لقاءات ودية بين فرق النوادى تمهيداً للسباقات الحقيقية ..

واللقاءات الودية هى التعبير الرياضى المهذب عن جولات جس النبض واستكشاف الخصوم .

أول اكتشافاتنا كان تطور فريق النادى الكبير . زاد عدده وارتفع مستوى أعضائه . وتعرفنا على عشرات من المنافسين والمنافسات ، واستمعنا إلى ما تقوله النوادى الأخرى عن فريقنا والتقينا بمدربين من نوعيات مختلفة ، بعضهم كان يرحب بنا كأننا أعضاء فى فريقه ويمتدحنا ويتمنى لنا الفوز بنبرة صادقة ..

كانت مرحلة اللقاءات الودية سياحة زادت من معارفنا وأثارت أفكاراً جديدة بيننا وزحزحت الفكرة التى سيطرت علينا زمناً بأن مدربنا هو المدرب الوحيد فى العالم .. وأن نادينا هو أروع النوادى رغم تواضع إمكانياته ، وأن ماء حمامنا هو الماء الوحيد المقدس الذي يمنح البطولة المنزهة ..

وبدأت مفاجآت سباقات المنطقة .. فازت شيرين بسباق المائتى متر صدر تليها زينب بينما تراجعت نادية إلى المرتبة الثالثة . أحسسنا جميعاً بأننا شركاء فى صنع هذه الهزيمة بالنسبة لها . حتى زينب التى احتلت مركزها قالت إن شعورها بالفوز تشوبه شائبة من تبكيت الضمير ..

غير أن فريقنا فى مجموعه احتل مكانة مرموقة فى السباقات .. فزت فى سباقين للمائة متر والمائتى متر فراشة . وفى سباقات التتابع كان فريقنا بما فيه نادية أحسن الفرق على الإطلاق ، وانتزع إعجاب الجمهور والمدربين ، وأطلق جمهور السباحة علينا اسم « الثيران الأربعة » وهو يقصد بنات الفريق : شيرين ونادية وزينب وأنا ، وانفردت شيرين بكأس أحسن سباحة ..

ارتفعت معنوياتنا وارتفعت معنويات نادية معنا ..

ضبطناها تضحك من قلبها لأول مرة منذ الحادث السخيف .

كان فريق النادى الكبير قد فاز بكأس الناشئين . أثار جمهوره أكبر ضجة ممكنة .. حمل أعضاء الفريق مدربهم ، ونزلوا به إلى الماء بكامل ملابسه وهم يحملون الكأس . راحوا يملأون الكأس بالماء ويصبونه على رءوس بعضهم البعض ابتهاجاً بالنصر ..

أعجبتنا طريقة تعميد الفريق لنفسه بماء الحمام المنساب من الكأس المقدسة ..

ضحكنا وضحكت نادية معنا وكان ضحكها أجمل نتائج السباقات .

كانت نتيجة سباقات المنطقة هى إعادة ترتيب المواقع فى الفريق .. أصبح الثيران الأربعة هن قلب الفريق الذى يحظى بالجانب الأكبر من اهتمام كابتن فكرى ..

فى أول اجتماع عقده الكابتن بعد السباقات لاحظنا أنه يوجه انتقادات واضحة التحامل إلى نادية دون أن يذكر اسمها بالتحديد .. لأول مرة يتصدى أحد أفراد الفريق لمراجعة

الكابتن فى آرائه .. تدخلت شيرين لتخفيف حدة الانتقادات .. وجدنا أنفسنا جميعاً نؤمن على كلامها ..

تململ الكابتن وقد استشعر روحاً جديدة ، غير أنه عبر المسألة وانتهى الاجتماع ، وقد حسمنا لأول مرة فى حياتنا الرياضية أمرا على غير رغبته .

تحول رأى الجمهور إلى واقع فى الفريق ، وهو أن هناك أربع سباحات متميزات ضمنهن نادية ..

ارتحنا إلى هذه النتيجة . عادت نادية إلينا وتخطت عثرتها التى ظهرت فى نتائج السباقات الأولى ..

كان ذلك نجاحا لنا . واعتبرنا أن السلام قد عاد يرفرف على حمام السباحة من جديد ..

انتقل بنا مدربنا إلى مرحلة جديدة هى التدريب على السرعات بعد أن اطمأن إلى قوة عضلاتنا . وبعد أن تحددت تخصصاتنا ..

تخصصت أنا فى سباحة الفراشة والثلاث الباقيات فى سباحة الصدر ..

كذلك تحددت الأهداف القريبة وهى الاشتراك فى بطولة الجمهورية بمجموعة الثيران الأربعة ..

كانت زينب جديدة على سباحة الصدر ، وأضاف دخولها طعماً حريفا للمنافسة . وحرص كابتن فكرى على اذكاء نارها ..

كان يشجع زينب بالذات ، فلم تكن شيرين بحاجة إلى التشجيع ، ولم يكن الكابتن متحمسا لتشجيع نادية .

اتخذ التدريب شكل السباق ..

كان الكابتن يقف على حافة الحمام ، يمسك ساعة التوقيت ، ويعلن الزمن الذى استغرقته كل واحدة فى قطع المسافة المحددة ، بينما القلوب تتعلق بالفروق بين أرقام الأمس وأرقام اليوم ، والفروق بين المتسابقات ..

أصبح الحمام ميدان حماسة ملتهبة ومنافسة حية لا تهدأ .

واهتم الكابتن فكرى بتدريبنا على اتقان كل التفاصيل التى لم نكن نقف طويلاً عندها فى الماضى ..

دربنا على بداية السباق . كيف يكون القفز إلى الماء عاملاً مساعداً على قطع مسافة أسرع لأنها تتم فى الهواء الذى هو أقل مقاومة من الماء ، ودربنا على حركة الالتفاف بالجسم بعد لمس حافة الحوض بحيث نكسب من اندفاعنا بعد الالتفاف مسافة أطول ..

بدأت بطولة الجمهورية . وكانت العادة أن تقام فى حمام نادى التربية والتعليم بالجزيرة .

كان للسباقات فى هذا الحمام بالذات رهبة . هو الحمام الذى تقام به السباقات الدولية .

مغطى ، غير مكشوف للسماء ، والمياه دافئة فى الشتاء بالتسخين . حول الحمام ترتفع المدرجات من جميع الجوانب ، تتسع لأكبر عدد ممكن من الجمهور .

جلس فريقنا كالقطط فى مكانه المخصص له بالمدرجات ينتظر دوره ، ويتهامس أعضاؤه . كان الهدوء قد عاد كعهده القديم على وجه نادية ، وكنا نشعر بالارتياح لأنها وسطنا ..

فى التصفيات كانت النتائج طيبة ، ولكنها لم تخفف من التوتر الذى انتابنا .. أدرك كابتن فكرى أننا فى قمة القلق ، وتدخل للتهدئة ولاحظنا أنه يعبر نادية دون كلمة ..

استفزنا هذا التجاهل خاصة أن اللحظة كانت حرجة وتستلزم التمسك بروح رياضية عالية ..

لم يكن صعباً أن تجتمع قلوبنا على إحساس واحد ، هو أن الكابتن الذى حاضرنا طويلاً عن الروح الرياضية والمبادىء لا يلتزم بها كل الالتزام .

قمنا بتعويض نادية عن إحساسها بالظلم . أمطرناها بوابل من مداعباتنا حتى انتعشت ..

أعلن الميكروفون عن سباق المائة متر صدر تحت ستة عشر سنة بنات . وقفت شيرين وزينب ونادية على ثلاث حارات متجاورة ..

كان السباق عنيفاً لأن المستويات كانت متقاربة .. اشتعل الجمهور بالحماس ..لم يكن فوز شرين مفاجأة ، ولكن المفاجأة كانت هى عودة نادية إلى مكانها القديم ، كان ترتيبها الثانية ، وجاءت زينب بعدها ..

صعدن إلى منصة الفوز معاً ليتسلمن الجوائز الثلاث ..

سرت فى الفريق روح من الحنان الدافق على نادية . استقبلنا البطلات الثلاث بحرارة وهن يعدن إلى صفنا وباركت زينب لنادية بنفس الحرارة رغم أنها أزاحتها عن المركز الذى كانت قد وصلت إليه فى سباق المنطقة .

كان واضحاً أن نادية تتأرجح .. بين اليأس والرجاء ، وأنها تتراجع مرة .. وتتقدم أخرى . ولكنها فى النهاية ظلت معنا ، ومع الماء الذى تحبه ..

بدأ سباق المائة متر فراشة ستة عشر سنة بنات

وقفت على حافة الحارة رقم خمسة وتفحصت زميلات السباق .. على الحارة رقم أربعة كانت فتاة من نادى الجزيرة ، بينما وقفت على الحارتين ثلاثة وستة فتاتان من نادى المحلة ..

تبادلنا التحية قبل السباق . ومع اقتراب موعد اطلاق اشارة البدء احسست بحاجتى الشديدة إلى زيارة خاطفة للتواليت !!

مع طلقة البدء كنا ننطلق إلى الماء الذى سنتصارع على صداقته ..

حين رفعت وجهى عن الماء لأول مرة ومسحت عيناى حمام السباحة حولي ، اكتشفت اننى فى المقدمة ، ولمست حافة الحوض بعد الخمسين مترا الأولى . كنت مازلت فى المقدمة ..

لم تكن المنافسة سهلة كانت الفتاتان بالحارة الرابعة والثالثة فى أعقابى دائما والفرق قيد شعره . وحين انتهى السباق اكتشفت اننى فزت ببطولة الجمهورية .

كانت هى المرة الأولى التى أقف فيها على منصة الفوز . وحين تسلمت جائزتى اقسمت فيما بينى وبين نفسى أن أحافظ على البطولة أطول زمن ممكن بينما هتاف الجمهور يهزنى من الأعماق ويطير بى نحو السماء السابعة .

فى سباق المئتى متر صدر ستة عشر سنة بنات فازت شيرين بالمركز الأول وعادت زينب لتحتل مركزها الثانى وتراجعت نادية لتحتل المركز الثالث ..

وكان معنى ذلك أن المنافسة بين الصديقات الثلاث دخلت مرحلتها الحاسمة . وأن نادية مازالت تمر بحالة التأرجح بين الصمود والتراجع ..

فى سباق التتابع استطاع الثيران الأربعة الفوز بالمركز الأول ..

مع ختام السباق ، وكان قد عاد إلى الفريق صفاؤه القديم بما أحرزه من نتائج ، قررنا أن نقطع الطريق إلى النادى سيراً على الأقدام ..

اخترقنا حديقة البرج الجميلة ، وقد انتابتنا حالة من المرح . تعلقنا بفروع الشجر التى تشبه الجدائل ، وتأملنا الزهور وتنسمنا عبيرها ، وأحطنا بالخمائل وداعبنا المختبئين فى ظلامها بأرق الكلمات ..

ومررنا ببرج القاهرة ، وبدا لنا فى تلك اللحظة طويلاً أكثر من اللازم . وسخرنا من ذلك ..

أمام إحدى الفيلات الهادئة توقفت شيرين فجأة وقالت : ياسلام . أمنيتى أن تكون هذه الفيلا لى أنام فيها يومين قبل كل بطولة للاستجمام .. !

بعد خطوات كنا نمر بباب الفيلا ونكتشف من لافتة صغيرة عليه أنها مستشفى للولادة .

ضحكنا من قلوبنا . كان كل شىء كفيلاً بأن يبعث فينا شيئاً مثيراً للضحك . كنا نضحك ضحكة طويلة تجدد شبابها بأى شىء .. كنا نسبح فى حمام من الضحك من بعد انتصارنا .

أصبحنا أعضاء فى منتخب الجمهورية للناشئين ، كان هذا هو ثمن انتصارنا الذى منحنا حق القيام بتدريبنا فى حمام نادى التربية والتعليم ..

وطارت قلوبنا لأن السفر إلى أوربا فى البطولات الدولية أصبح من حقنا ..

وحلمنا بالرحلات المثيرة إلى الخارج ، وبالتعرف على أبطال العالم وبطلاته وجها لوجه

بعد أن كانت صورهم مقتنيات ثمينة فى أدراجنا .

أصبحت الأحلام حافزاً أضيف إلى حوافزنا ، وأجمل ما فيها أننا كنا نحلم معاً .. وحين رفضت نادية أن تحلم معنا حلمنا لها ..

وجاء الشتاء وبدأت الدراسة ، وأتخذ تدريبنا ألواناً جديدة .

كنا نتدرب فى نادينا كعادتنا ، ولكننا نمضى ثلاثة أيام كل أسبوع إلى الحمام المهيب فى نادى التربية والتعليم ، ونقوم بتدريبنا هناك . واعتدنا على رحلة اختراق الضواحى بين موقع الحمام الجديد وبيوتنا حيث نفترق بعد مشوار ملىء بالمرح ، نستقبل بعده ساعات استذكار الدروس بنشاط . إلى أن كان مساء :

ضحكاتنا مرتفعة ، تقرقع أحذيتنا الكاوتشوك على أرض الشارع المفروش بأوراق الشجر والزهور .. على اليمين والشمال . ترتفع أشجار عفية باسقة كثيفة الخضرة ، مزدحمة بالطيور التى عادت لتوها إلى أوكارها ، حين وقعت أنظارنا كأنها فى لحظة واحدة على عبد الله !!

واضح أنه كان ينتظر مرورنا . كان يستند بجذعه إلى جذع شجرة طويلة ، وحقيبته مدلاة بين يديه إلى قدميه المتلاصقتين ، يبتسم لنا جميعاً كأنه على باب بيته فى انتظارنا ..

بدأ الارتباك على نادية هنيهة فقد كان عبد الله هو بطل الواقعة التى قلبت الدنيا على رأس نادية ..

كان عبد الله هو حصان الهوكى كما سماه كابتن فكرى ..

تقدمت نادية خطوة أو خطوتين فى اتجاهه وهى توزع نظراتها بيننا وبينه .. بينه ..

كان فى عينيها وميض يقول لنا : اليكم حبيبى .. !

باندفاع تقدمنا لنصافحه ، كأنما نحدد موقفنا من القصة كلها . فى عينيه نظرة امتنان وزعها علينا .. انضم إلينا كما ينضم الطائر إلى سربه ببساطة ..

هل كان موعداً ؟ أم إعلاناً مدروساً للعلاقة أمامنا ؟

حتى هذه اللحظة لست أدرى . هكذا حدث الأمر ، وكسبت به نادية اعتراف الفريق الجماعى بهذه العلاقة ..

وحين وصلنا إلى النقطة التى تفترق عنا فيها نادية ، ودعتنا وودعنا عبد الله ومضيا معاً ..

فى الصباح التالى لم نجد نادية بيننا . وفى غرفة خلع الملابس دار الحديث بين الثيران الثلاثة حول لقاء الأمس . كنا سعداء لأننا اكتشفنا سر نادية ، وارتاح ضميرنا لأننا اتخذنا موقفاً يشبه تدشين قصة الحب . واتفقنا على أن يظل حادث اللقاء سرا دفينا بيننا وأن لانفاتح نادية فى شىء إلا إذا تحدثت هى ..

كانت نتائج فريقنا قد فتحت الباب أمام كابتن فكرى لينضم إلى أسرة مدربى المنتخب .

وهكذا لم يدخل على نظام تدريبنا ما هو جديد ..

ولم يمر دخول كابتن فكرى ضمن أسرة مدربى المنتخب بدون ضجة ، فقد صمم على أن يدخل التدريب بالحديد ضمن برنامج السويدى الخاص بالبنات ..

لم يكن فى ذلك ما هو غريب بالنسبة إلينا . ولكن سائر الفرق الأخرى وأعضاءها راحوا يعترضون على التدريب بالحديد ..

وقف الأولاد من الأندية الأخرى ينظرون إلينا فى دهشة ونحن نرفع الأثقال فى سهولة ويسر . أما البنات فقد اجتمعن على موقف احتجاج ساخر ..

صمم الكابتن وانهارت المقاومة . وتحول التدريب بالحديد إلى متعة لنا ونحن نرقب فتيان النوادى الأخرى يتصببون عرقاً أو يهددون بالتمرد أمام خصم لا يعرف التراجع هو الكابتن فكرى ..

كان المدربون الآخرون يحاولون اقناع ابنائهم وبناتهم بمجاراتنا فى هذا التدريب ويحرضون أعضاء فرقهم على اللحاق بنا ..

وفى التدريب الذى يعتمد على الجرى حول الحمام ، كانت أنفاس الفرق الأخرى تنقطع قبل أن نشعر نحن بأقل تعب . كان أمراً عادياً أن نسمع مدرب فريق يصرخ فى ابنائه :

اركضوا بسرعة ، لقد استطاعت الفتيات أن تسبقكم بدورتين وأكثر أما بنات الفرق الأخرى ، فقد نالتهن مضايقات أكثر . بدأ كابتن فكرى يطبق قواعده على الجميع .

مرة احتجت سباحة على التدريب بالحديد وقالت أنها تخشى على أظافرها من التكسير ! سلخها الكابتن فكرى بلسانه الحاد . وحين أمر سباحة أخرى أن تكف عن مضغ اللبان أثناء التدريب لم تشفع لها دموعها وانتهى الموقف بأن قذفت اللبانة على طول يدها وهى تغالب البكاء ..

خلال تدريبنا فى هذا المجال الجديد ، ذاع صيتنا . اكتسبنا سمعة طيبة بين جميع المدربين ، والقينا الرعب المشوب بالاحترام فى قلوب أقراننا من أعضاء الفرق الأخرى ..

أرضانا هذا كثيراً ، ومسح عن قلوبنا بعض متاعبها ، وغفرنا للكابتن فكرى بعض خطاياه فى غمرة نشوتنا بالمركز المرموق الذى وصلنا إليه بين الفرق الأخرى ..



الفصـل الرابـع

١

أصبح لقب « الثيران الأربعة » مثل الماركة المسجلة فى النوادى الرياضية .
وكان الكل معجباً بنا والبعض يحسدنا ولا أحد يعلم المأساة التى تعيش بيننا ..

ولقب الثيران الأربعة كان ينصف نصف حقيقتنا ، ولكنه كان يتغافل عن النصف الآخر ..

لقد كان وصفنا بالثيران إشارة إعجاب بقوتنا البدنية ، ولكن لم تكن القوة البدنية فينا هى الوجه الوحيد لحقيقتنا ، بل يمكن القول أن اللقب كان يسخر من انوثتنا أو يحذفها ، وهو أمر لم يكن صحيحاً ..

كما تفجرت فى عروقنا القوة ، بحكم التدريبات العنيفة ، كذلك تفجرت انوثتنا فى تلك المرحلة بالذات . كأنها على موعد مع البطولات التى أحرزناها ..

انتقلنا من مرحلة مطلع الصبا إلى مرحلة مطلع الشباب . كنا فى نحو السادسة عشرة من عمرنا . عجلت القوة البدنية بازدهار معالم الأنوثة المبكرة فينا ..

كان فينا من الثيران قوتها هذا صحيح . وفينا منها ألوانها . إذ كانت ألوان بشرتنا تتدرج من البرونزى إلى النحاسى الأحمر بحكم تأثير وهج الشمس على الأجسام المرطبة بالماء ..

وكان فينا من خشونتها جالة الشعر . كانت شعورنا جافة من تأثير الكلور والمواد الكيماوية التى تضاف إلى ماء الحمام لتطهيره . وكانت هذه المواد تفعل فعلها فى لون الشعر ونسيجه ..

كان شعرى مثل ألوان الهدهد المصرى ... أسود وأحمر وبنى .. بينما كان شعر شيرين وزينب ذهبياً مشوباً باخضرار واحمرار على التوالى . أما نادية فكان شعرها بلون كستنائى ينتهى بخصلات كقرون الفلفل الأحمر ..

لم نكن نسميها رؤوسنا . بل كنا نسمى رأس الواحدة منا « الكارتة » سخرية من خشونة شعرنا وجفافه ..

تغير اهتمامنا بزينتنا . فى صدر الصبا كنا نهتم بالزخرفة الصارخة ، مثل الخواتم الغريبة وعقود الخرز فاقعة اللون ، ولم نعد بحاجة إلى لفت الأنظار بزينة صاخبة . كان فينا ما يلفت النظر الآن شرط أن تتوفر لنا الأناقة والذوق فى اختيار الثياب ..

وفى فترات الراحة بعد التدريب كنا نستلقى بنفس الهيئة . وأصبحنا الآن نتحرج من

هذا . نمضى إلى النادى بملابس تليق بالصباح ، وفى غرفة خلع الملابس نستبدل بها المايوه .. وفى المساء نفس الشيء ولكن مع اختيار ملابس تناسب المساء ..

لم تعد البنطلونات الخشنة تلائمنا ، واستبدلنا بها الفساتين الناعمة ..

أصبحنا آنسات صغيرات .

وحملت إلينا المرحلة مشاكل لا يعرفها الرجال ونحرص نحن على إخفائها عنهم ..

كانت مشاكل لا تنتهى فقد كنا نتحرك نصف عاريات أمام مجتمع لم يتخلص بعد من عُقَد عصر مضى ، كنا نسميه فيما بيننا عصر الجنيه الخشب .. !

كان حديث الحب قد تطور فيما بيننا نحن الفتيات . أصبحنا نناقش قضيته بجدية وقد أحسسنا أنه على الأبواب ..

انتقلنا من مرحلة الحب الصبيانى المتقلب الذى كنا نسميه الاعجاب والذى كان من أهم قواعده عدم الاعتراف به للطرف الآخر ، وعدم الوفاء له أكثر من أسابيع .. إلى مرحلة الحب الرومانسى الذى ينسج أحلامه حول فارس بعينه له مواصفات خاصة ..

وانتقلنا من مرحلة يوسف السباعى إلى مرحلة إحسان عبد القدوس .. الذى وجدنا رواياته أكثر واقعية وأحداثها يقع مثلها من حولنا ، وتلتقط آذاننا المرهفة من ثرثرة الكبار ما يشير إلى ذلك ..

كان الكبار يعتبرون إحسان جاسوساً على مجتمع النوادى بينما كنا نحن متحمسات له ، ونرى فى رواياته عطفا حقيقيا على المرأة .. والفتاة الصغيرة بوجه خاص ..

كان نزار قبانى يزاحم إحسان عبد القدوس فى قلوبنا ..

كانت « أشياء سهلة » وموضوعات قصائده من القضايا الشائعة فى المجتمع الذى نعيش فيه ..

كان ظهور ديوان جديد لنزار قبانى عندنا حدثا مثيراً وسعيداً .. وكانت له قصائد يصل اعجابنا بها إلى حد التقديس ..

الرسم بالكلمات إلى نهدين مغرورين .. كنا نقرأها ونكره نزار المغرور ولكننا نغفر له غروره لأنه شاعر صريح الكلمات يتحدى بألفاظه التقاليد والقيود ..

كان نزار يستفزنا ويرضينا ونحفظ قصائده فى الحالين ..

دخلنا نحن الثيران الأربعة سن العاطفة الرومانسية تحت شعار وحدانية الحب ..

وكانت الوحيدة التى انتزعت حقها هى نادية .. ودفاعنا المستميت عن وجود نادية بيننا هو فى الحقيقة دفاع عن حقنا فى الحب . ولكنه كان ثمرة محرمة أوخيارا بينه وبين البطولة وانتماءاً إلى هذا الكائن الجذاب الذى استعبدنا بعصاته السحريـة ، فسرنا وراءه مسلوبات اللب : الماء . !

بعد حادث اللقاء الذى تسترنا عليه ، بدأت نادية وفتاها يغامران بلقاءات تتخذ صورة

الوقوف طويلاً والثرثرة فى هذا الركن أو ذاك من أركان النادى . كانا حريصين على أن تكون وقفتهما قريبة من حلقة أو من أسرة تجتمع حول منضدة .

كنا نضع أيدينا على قلوبنا ، بينما كانت عيون كابتن فكرى تقدح شرراً ..

كنا ندرك أن نادية تسير على حبل رفيع مشدود وهى تمارس حقها فى الحب ، وكنا نشفق من فشل التجربة وندعو إلى الله بحرارة أن تنجح حتى تفتح لنا طريق الأحلام الحلوة ..

اعتقدنا لفترة أن الكابتن فكرى قد بدأ يقنع نفسه بقبول الأمر الواقع مكتفيا بالمعاملة الباردة التى كان يختص بها نادية .. إلى أن دعانا ذات يوم لاجتماع عاجل واندفع نحو هدفه مباشرة .

قال : تذرعت بصبر أيوب على أمل أن يتحرك الفريق لتصحيح انحراف إحدى عضواته ، وأيضاً على أمل أن تراجع هى نفسها ولكنكم جميعاً خيبتم ظنى ، واخترتم العطف على الانحراف والتهاون فى المبادىء ..

أنا رجل لا يعرف اليأس ، لذلك قررت أن تغادرنا نادية ، بغير رجعة . لقد سهرت على زرع شجرة ، ولن أترك فرعاً معطوباً يدمرها .. كانت الضربة القاضية ..

حاولت نادية الدفاع عن نفسها .. قالت أن الشاب هو خطيبها فصفق الكابتن باب المناقشة ساخراً : منذ متى كانت الخطوبة سرية لا يعلم بها الأهل والأصحاب ؟

غادرت نادية النادى وحيدة ، وسرنا نحن يخيم علينا الصمت وقد أطلقنا لدموعنا العنان ، بينما تماسك فتيان الفريق على مضض يتطوعون من حين إلى حين ببعض كلمات العزاء ..

شغلتنا بطولة المدارس على مستوى الجمهورية ، وحققنا فيها نصراً مرموقاً ، وتعمد الكابتن فكرى أن يتعامل مع الفريق بود شديد ويتجنب إثارة منغصاته المألوفة، وانتقاداته ، ولذعات اللسان الحاد .

اندمج مع أعضاء الفريق من الفتيان خارج النادى . صادقهم ، وتعرف على أدق تفاصيل حياتهم . كان يخرج معهم بعد انتهاء التدريبات إلى رحلات لصيد السمك فى النيل أو لتناول وجبة جماعية فى بيت واحد منهم . وكان يرافقهم حتى فى مشاوير قضاء المصالح الخاصة ويتطوع بنصائحه إذا وقع أحدهم فى مأزق ..

كان يجد لذة فى هذه الرابطة . من ناحية كان يستشعر أنه يدخل إلى الطبقة التى يشتاق إلى الانتماء إليها ، ومن ناحية أخرى كان يسعى إلى السيطرة على أعضاء الفريق الشبان ..

كان كابتن فكرى معتاداً على زيارة شيرين فى بيتها .. كان يعتبرها ابنته بحق .. هو الذى علمها السباحة ، وهو الذى تنبأ لها بمستقبل باهر .

شيرين خامة طيعة .. استطاعت أن تكتسب بالدأب المتواصل على التدريب لياقة بدنية

عالية جداً ، كانت هى القاعدة التى تعتمد عليها فى تطورها فى الماء .. لهذا كان كابتن فكرى يعتز بها . يزورها فى البيت دائماً .. يطمئن على تقدمها الدراسى ، ويرعاها رعاية خاصة ، ويثق بها ثقة لا حدود لها .. وكان من النادر أن يتوجه إليها بانتقاد أو ملاحظة .

فى هذه الفترة أصبحت زيارته إلى بيت شيرين منتظمة يحرص عليها كل الحرص .. ولم يكن ذلك غريباً ..

أما الجديد فكانت زياراته إلى بيت زينب ..

زينب من أسرة ميسورة الحال .. الأب موظف كبير فى الحكومة والأم ربة بيت ..

تركيب أسرة زينب لم يكن تركيباً عادياً . لم تكن السعادة أو المرح تخيم على هذا البيت بحكم تنافر طباع الأم والأب .. لا أحد يعلم أسباب هذا التنافر ، وكيف حسم الأمر ليصبح البيت أشبه بدار لإيواء المسنين ..

كان الأب هادئاً فى الحلقة السادسة من عمره فى حين كانت الأم قوية الشكيمة فى الخامسة والثلاثين من عمرها .. زينب هى الأبنة الكبرى لهذه الأسرة وطارق هو الأصغر الذى جاء بعد زينب باثنى عشرة سنة ..

كان الأب بعيداً عن مجتمع النادى فى حين كانت أم زينب تتردد على النادى من حين إلى حين .. وكان من الواضح أنها المدير الفعلى للبيت ..

مناخ البيت البارد أثر تأثيراً كبيراً على زينب بحيث أننا لم نكن نستطيع أن نعرف مشاعرها الحقيقية أبداً ، لشدة تحكمها فى انفعالاتها .. وقد استطعنا ادراك السبب عندما اقتربنا منهم ورأينا كيف يعاملون طارق ابن الأعوام الثلاثة كأنه شاب فى العشرين .. لا يقبلون منه سلوك الأطفال ويعاقبونه على الصغيرة والكبيرة ، بحيث انقلب إلى طفل رزين وقور بطىء الحركة على وجهه تكشيرة مدير عام .. أدركنا على الفور كيف يصنع أصحاب الأعصاب الثلجية ..

لكننا دائماً كنا نشعر أن والد زينب طيب القلب بدرجة كبيرة . كان يستقبلنا ببشاشة ثم ينسحب بسرعة إلى عالم الهدوء الذى يحبه ويلوذ به ..

استقبلت أم زينب كابتن فكرى بترحاب شديد .. مما شجعه على تكرار الزيارة وأصبح بيت زينب هو البيت الثانى الذى يلجأ إليه كابتن فكرى لعرض أفكاره قبل أن يتخذ فيها قرارا يعلنه بعد ذلك على الفريق .

واقتربنا من الصيف . فاجأنا كابتن فكرى بمشروع مثير هو إقامة مدرسة للسباحة لتعليمها لأطفال نادينا فى سن مبكرة ..

كان المشروع هو محاولة لمواجهة ضغط النادى الكبير الذى يتميز باتساع عضوية فريقه واتباعه أسلوب التخطيط للمستقبل ..

كان يقول إن أبناء البرجوازية بحكم اعتيادهم على المصايف يكون أطفالهم أكثر

استعدادا للتدريب على السباحة فى سن مبكرة ، وعلينا أن نعوض هذا بتدريس السباحة للأطفال . ستكون مدرستنا بمثابة معمل تفريخ كتاكيت نادينا . وبذلك نضمن قاعدة متجددة من السباحين .. تحمسنا للفكرة ..

ومع انتهاء الامتحانات كنا نخوض تجربة تأسيس المدرسة ..

فى البداية كان الكابتن يمسك بكل خيوط مدرسة السباحة بما فى ذلك تدريب الأطفال ، وكانوا أحياناً فى سن الرابعة ..

كان تدريبهم أول الأمر يتخذ صورة ألعاب ، بهدف تقوية العضلات ، فيعقد الكابتن لهم سباقات توزع فيها عليهم ادوار حيوانات مثل الأرانب والقطط والكلاب ، ثم انتقل بهم بعدها إلى الماء .

هنا بدأ دورنا ، نحملهم بعد أن نلاعبهم ونغريهم بنزول الماء معنا إلى أن يعتادوه ويحبوه .

وعندما بدأت تدريبات القفز من البرج كنا نتخذ شكل حلقة فى الحمام حتى إذا ما قفز الطفل بينها نسرع بالتقاطه والسباحة به إلى حافة الحوض .

وأصبحت مدرسة تعليم السباحة متعة لنا تشيع جوا من المرح البرىء تشعرنا بطعم الأمومة وتخفف من الجو الكئيب الذى سيطر فترة على المكان نتيجة لغياب نادية ..

ولكن قبل أن ينجح كابتن فكرى فى أن يملأ الفراغ الذى كنا نستشعره ، وقبل أن تمسح ضحكات الأطفال المرحة آثار الحزن الذى خيم على الحمام وقع حادث رهيب ..

كان تدريب المساء عنيفاً . أقبل الليل . أضاءت أنوار المصابيح القائمة على جوانب الحمام . انتهى التدريب ، كان التعب قد هد كياننا .

عادة كان التدريب ينتهى بأن يصطف الفريق بعرض الحمام ليقول للكابتن شكراً . ويرد بالشكر وأحياناً يضيف بعض الملاحظات . فى ذلك اليوم ، كان التعب قد أغرانا بحذف هذا التقليد . لم نستطع الانتظام فى صف التحية الأخيرة ، وراح الكابتن يسخر من معالم الاجهاد البادية علينا وكفاحنا للخروج من الماء ..

كان أول من وصل إلى السلم هو وليد .. أقبل الكابتن مازحاً ورفسه بقدمه معيداً إياه إلى الماء ..

انتزع منظر وليد وهو يتهاوى من رفسة الكابتن ضحكاتنا .. كان هذا المشهد المثير للضحك هو آخر ما رأيته قبل أن أفقد الوعى . تمكنت من عروقى قوة ما سرت فيها سريان النار فى الهشيم ، وعندما وصلت إلى عقلى راحت تدفعه دفعاً إلى الانفجار .. من بعيد من مكان ما فى رأسى الذى يسبح بين ضربات عنيفة تتلاطم فى دوائر ، خرج سؤال ... أين أجد قطعة خشب ؟؟!! سحبتنى الدوامة إلى منتصفها ورحت أدور حول نفسى متجهة

إلى الأعماق . قوة هائلة شلتّنى حتى عن الصراخ .

أفقت على وجه رجل غريب يتأملنى بحنان ويهمس : الحمد لله .. معظم أفراد الفريق بخير ، أفزعتنا صرخة استغاثة ونحن نشاهد مباراة الهوكى ، فجئنا نعدو ..

جسمى يؤلمنى ألماً شديداً وخاصة عند القدمين ، حاولت أن أتحرك فاكتشفت أننى لا أستطيع .

شيئاً فشيئاً أدركت أننى ممددة على الأرض قرب حمام السباحة ، وبصعوبة تبينت أن جمعاً غفيراً من الناس يزدحم حولى ، والتقطت أذناى مما يقولون صورة غامضة عن الحادث .. هو أن الفريق تعرض لخطر جسيم ..

راح الرجل يحرك ساقى عند الكعب تارة وعند الركبة أخرى فى محاولة لكى تدب الحياة فيهما ..

بصعوبة استطعت أن أحرك رقبتى ..

عن يسارى رأيت رأفت ممدداً .. وقد راح فى غيبوبة تامة . حاول أحد الواقفين أن يعيد إليه وعيه ، بينما ارتسمت على وجهه علامات اليأس وتمتم : لا حول ولا قوة إلا بالله ..

تملكتنى حالة من الهيستريا ورحت أصرخ رأفت ـ رأفت ، ثم غلبنى التعب واستسلمت إلى نحيب مكتوم ..

حملنى الرجل الذى كان قد اطمأن على عودتى إلى الوعى إلى غرفة خلع الملابس . رأيت شيرين وزينب جالستين على أريكة وفى يد كل منهما كوب عصير ترتشفانه بصعوبة ، وكانت الغرفة تكتظ بعدد كبير من الرجال والنساء . هرعت نحوى سيدة وفكت الشريط الذى كان يربط حمالة المايوه لتتيح لى أكبر فرصة للتنفس ، ثم أحضرت لى بعض قطع السكر . شيئاً فشيئاً بدأت التقط بعض معالم ما حدث ..

كان هناك سلك كهرباء يمتد إلى عامود النور الذى يرتفع فوق سلم الحمام ، حدث أن انقطع السلك بالتآكل فسرت الكهرباء من طرفه العارى إلى العامود وانتقلت إلى السلم والماء ..

حين رفس الكابتن وليد ورده إلى الماء أسرع رأفت ليحل محله على السلم ، ومن خلفه جلال ، فوصل إليهما التيار قويا .

كان عدد من أعضاء الفريق قد تعلق بحافة الحمام فى هذه اللحظة فأسرعوا مجرد إحساسهم بسريان الكهرباء إلى الماء بالخروج ..

لم أكن قد اقتربت من حافة الحمام بعد ، وكذلك شيرين وزينب .

كانت شيرين أول من أدركت أن الكهرباء قد سرت فى الماء فاستغاثت .. أسرع الكابتن فكرى وفصل سلك الكهرباء عن العمود وطارت عقلة من أصبعه .

قفز هشام وجذب شيرين وزينب إلى حافة الحوض ، بينما جذبنى سمير من شعرى إلى

خارج الحمام ..

قالت سيدة : حكمتك يارب : علّمت زينب هشام السباحة ورد لها الجميل بإنقاذها . ولم تنقطع الشهقات من حولنا ولا الدعاء إلى الله ليلطف بالفريق ..

عرفت من حركة الداخلين والخارجين إلى غرفة خلع الملابس أن جلال ورافت قد تم نقلهما إلى المستشفى بينما ظل كابتن فكرى يحاول الاتصال لتدركنا عربة الاسعاف ..

حملونا على طاولة إلى حيث وقفت السيارة التى نقلتنا إلى المستشفى ، كانت رؤوسنا قد ارتطمت بحافة الحوض واحتجنا بالإضافة إلى حقن الكورامين إلى حقن التيتانوس ، وبعد ساعات كنت فى البيت لأجد فى انتظارى عدداً من الأقارب والأصدقاء الذين بلغهم الحادث ..

ساعدتنى أمى على التمدد على الفراش وأغلقت باب غرفتى . هجرنى النوم ، كنت أريد أن أعرف التفاصيل ، كنت أعلم أن زينب وشيرين قد افلتتا من الخطر مثلما أفلتُّ أنا ، ولكن مصير جلال ورأفت كان غامضا .

اخترقت أصوات الضيوف الباب الموصد . حاولت أن أجمع شتات الكلمات المبعثرة ، بدأت الأصوات تختلط وتتحول إلى دوائر من ضباب ملون ينتشر حولى ويختلط بالظلام . رحت فى نوم أقرب إلى الغيبوبة ..

استسلمت إلى حلم : أنا بين فريق السباحة نهرب من شىء رهيب ، يملأنا رعبا . فجأة خرجت من الماء أعمدة ترتفع إلى السماء . توارينا وراء الأعمدة . هبط طبق طائر ، انبثق من طاقة فى أحد جوانبه شعاع ماء . استشعرنا رعباً من هذا الشعاع ، انكمشنا خلف الأعمدة . تحرك الشعاع يبحث عن ضحايا بيننا ..

استيقظت مرعوبة . تملكتنى رغبة فى البكاء . سمعت طرقات على الباب كانت هى التى انقذتنى من الكابوس .

جاء خالى ليطمئن على حالتى .. لم يتركنى إلا وقد أعاد إلى نفسى بعض الهدوء . استسلمت للنوم حتى الصباح ..

تحركت فى البيت وأدركت أنهم يكتمون خبراً سيئا . ارتديت ثيابى وخرجت بدعوى أننى محتاجة إلى بعض الهواء النقى ..

على الناصية اشتريت جريدة الصباح ..

قرأت نعى رأفت وجلال . تحاملت على نفسى وعدت بخطى بطيئة إلى البيت وبكيت بكاءً مراً ..

صحبتنى أمى إلى قريتنا لنقضى أياماً تبعدنى عن مؤثرات الحادث .

لأول مرة لم انتبه إلى الطريق الذى كنت أستعجل تتابع علاماته أمامى حتى أصل بسرعة إلى قريتى . تردد فى صدرى صوت رأفت وهو يحفزنى على التسابق معه ، كنا نلعب

نفس اللعبة « الدولفين » ، وكان شكل الحركة عنده هو أجمل الأشكال التى عرفتها الملاعب ، سرت فى بدنى رعشة وأنا أتصور جلال يموت بالكهرباء التى شبهناه بها عندما يرتعش وتطقطق أوصاله تحت لسعات البرد فى الصباح الباكر . وصلنا دون أن أشعر ، حاولت الأنفراد بنفسى دون جدوى .

فى الليل ذهبت مع الأسرة مرغمة إلى زفاف قريبة لنا . تحولت أصوات الدفوف فى أذنى إلى نواح ، وظهرت صورة رأفت ، وجلال من بين الأصابع التى تصفق للفتاة الصغيرة وهى ترقص ، ورأيت من بين دموعى رأفت يساءلنى أتشاهدين عرساً ليلة رحيلى عن الدنيا . بكيت .. نهرتنى أمى .. تركت المكان ..

لسكون الليل فى الريف صوت يفتح طاقة إلى عالم آخر شفاف .. أرهفت سمعى إليه . انتظرت أن يخبرنى بسر الكون « الحياة والموت » ، انتبهت على صوت شجرة « شعر البنت » وهى تمسح سطح النيل قلت لها :

حملت المياه أوزوريس حتى أوصلته يوماً إليك .. كم كانتقاسية معى تلك المياه ..!

هل أستطيع يوماً أن أراها ؟ وأن أطمئن لها ؟ همست لى الشجرة ، لم تكن المياه هى السبب . بكيت ، شعرت بيد تقترب منى ، التفت مذعورة لأجد خالى يربت فوق كتفى ، صحبنى إلى البيت ..

عدت واتصلت بصديقاتى زينب وشيرين ونادية . اتفقنا على لقاء فى بيت شيرين . تحدّثنا عن فريقنا وماحدث له . حلقت فوق لقائنا سحابة حزن . حين كانت شيرين تودّعنا استبقت كف نادية فى كفها وقالت فى حزم : نادية ستعودين إلى الفريق .

٢

دخلت النادى لأول مرة بعد الحادث .. سكون الموت ورهبته يخيمان عليه ..
وعلى الباب لافتة سوداء تنعى الفقيدين ..
كان النادى مقفراً رغم أننا فى عز الصيف . حمام السباحة خالٍ من المياه .
والطلوع إلى ظهره ممنوع حتى ينتهى التحقيق فى الحادث .. وإصلاح سلوك الكهرباء ..

بدت الحديقة أشبه بالخرابة المهجورة أكاد أسمع فيها نعيق البوم ، وصمت البرارى .. الشمس حارقة وقد التزم عمال النادى الغرف الخاصة بهم فزاد ذلك من وحشة المكان .

هنا كان التراس فى مثل ذلك الوقت مزدحماً بالناس ، وعم محمود السفرجى يمشى حاملاً صينيته المليئة بالطلبات يدور كالنحلة وسط المناضد . أين هو الآن ؟ .

ظهر أحد العاملين .. تقدم نحوى معزياً وقال :

ـــ كم من شباب ضاع يابنتى !!
ومضى آسفاً ..

اتجهت نحو غرفة خلع الملابس . وجدتها مغلقة . ولأول مرة أجد حاجزاً يمنعنى من ارتقاء الدرج إلى حمام السباحة ..

وقفت انظر إليه كأننى غريبة عليه أراه لأول مرة . لم يكن هو صديقى الذى أحببته أكثر من أى مكان آخر على وجه الأرض . أقبلت شيرين وزينب ومضينا معا إلى غرفة السباحة ، كان كابتن فكرى جالساً إلى مكتبه حزيناً بائساً ، يكاد لا يعى من حوله . اتفق معنا على موعد فى الغد كى نبدأ تدريب السويدى وقال لنا إن حمام السباحة سيظل مغلقاً فترة لا نعرف مداها . وتجنب الحديث عن الحادث تماماً .

فى اليوم التالى اصطحبنا إلى ملعب كرة القدم لنمارس تدريبات سويدى خفيفة ..
وهكذا بدأنا نعود إلى النادى شيئاً فشيئاً ، ينضم إلى موكبنا كل يوم أحد أفراد الفريق ..

انتهى اصلاح التلف فى الحمام وعلمنا من كابتن فكرى أن الحياة ستدب فيه بعد يوم . اتفق معنا على موعد التدريب المعتاد بعد الظهر .

فى الساعة الرابعة ، وصلنا إلى سطح الحمام لنجد أنه قد امتلأ إلى نصفه فحسب ،

وعرفنا أن الكابتن كان قد اتفق مع مقرىء لتلاوة آيات من القرآن قبل حضورنا على سطح الحمام بحضور أبناء الفريق من الفتيان الكبار ..

ارتدينا ملابسنا ونزل معنا الكابتن إلى الماء . طلب إلينا أن نبدأ سباقاً للجرى حتى منتصف الحمام الفارغ من المياه ثم السباحة فى النصف الثانى منه ..كان الماء يرتفع شيئاً فشيئاً ويعرقل حركة الجرى ، حتى أمتلأ عن آخره ، وبدأ الفريق مباراة لكرة الماء وشاركهم كابتن فكرى اللعب لأول مرة . لم أستطع اللحاق بهم . وقفت وحيدة فى ركن الحمام أبكى فى صمت

هكذا استطاع كابتن فكرى استدراجنا إلى الماء مرة أخرى ، رغم الحادث الذى خطف من الفريق اثنين من أعضائه .

ومع عودة المياه إلى حمام السباحة عاد الناس إلى النادى بالتدريج . ولم يمض شهر حتى عاد النادى إلى صورته القديمة : صخب ومرح وزحام ..وعادت تدريباتنا إلى حالها ، ولكن ظلت هناك غصة نحاول أن نخفيها قدر ما نستطيع..

كانت أول من طرح موضوع الحادث بعد عودة الحياة الطبيعية إلى النادى هى شيرين ..

كانت شيرين اكثرنا تحرراً ووضوحاً فى موضوع الحب . رغم أنها هى نفسها لم تكن قد تورطت فى أية علاقة من قريب أو بعيد .. وكان هذا الرأى هو رأى أسرة شيرين جميعها ، وعرفناه بحكم زياراتنا إلى هذا البيت الذى كنا نحب قضاء بعض الوقت فيه ..

اقترحت ذات مساء أن نتمشى ساعة على شاطىء النيل قبل العودة إل البيت ،ثم فاجأتنا بفكرة بدت أول الأمر غريبة علينا وسرعان ما اقنعتنا. قالت أن الحادث المشئوم ،كان عقابا من القدر على خطيئة ارتكبناها ضد إنسان برىء هو نادية ..

وقالت إن قانون الكابتن فكرى إذا طبقه المجتمع فإن معناه أن تحرم نادية من المدرسة ومن العمل فى مصنع أو شركة ، وأن تمنع من دخول البيوت ، ويكون الأفضل أن تدخل السجن ..

كانت تتحدث بكبرياء ، وتشرح وتطيل الشرح. وقالت إنها لم تؤمن فى حياتها بالتشاؤم والتفاؤل إلا فى هذه الحادثة ..

وختمت حديثها قائلة فى تصميم : إما أن ننصف نادية أو علينا أن ننتظر مزيداً من الفواجع والمواجع فى حياتنا .. !

كنا طوال حديثها نلتزم الصمت ، ما أن توقفت عن الحديث حتى اندفعت زينب تروى حكاية غريبة ..

روت أنها كانت تشاهد فيلماً فى التليفزيون ، وبدأ الفيلم بمشهد فيه رجل يحمل بندقية صيد ويختفى وسط دغل من الأعشاب الكثيفة . مر سرب من الحمام ، أصاب ببندقيته

واحدة منها . سقطت تتخبط ، بينما فزع سائر السرب وحلق ثم هبط على فروع شجرة بعيدة ..

وقالت زينب إنها بكت وأغلقت التليفزيون فقد ربطت بين حادثة نادية وبين بداية الفيلم ولم تستطع متابعته ..

كانت ضمائرنا تعبر عن عذابها بوسائل مختلفة ..

تلقفت شيرين كلام زينب كدليل على صدق مشاعرها ، ووجدت نفسى أشاركهما بقلبى نفس الشعور ..

أحسسنا ثلاثتنا أن حجراً ثقيلاً قد أزيح عن صدورنا بعد أن تكاشفنا ، وتقاربت مواقفنا واقتنعنا بأنه لابد من وقفة فى وجه نظريات الكابتن فكرى ..

ولكن كان أمامنا أن نزحزح موقف فتيان الفريق ..

كان النادى صباح يوم الأثنين من كل أسبوع يكاد يقفر من رواده ، كان تدريب فريق السباحة فى هذا اليوم يتأخر إلى ما بعد الظهر ، ولما كان حمام السباحة هو قلب النادى فقد كانت الحركة لا تدب فى نادينا إلا بعد الظهر .

اخترنا مجموعة من فتيان الفريق ودعوناهم إلى اجتماع سميناه « جلسة خاصة » ، فى التاسعة من صباح يوم الاثنين ..

غمرنا الجميع بأسئلة حب الاستطلاع ولكننا تكتمنا سبب الجلسة .. اتفقنا شيرين وزينب وأنا على مدخل الحديث . كنا نعرف أن لكل أعضاء الفريق من الفتيان على وجه التقريب قصة حب ، ونعرف بطلات القصص . ومن باب الذوق كنا نتجنب الحديث فى شئون زملائنا على أساس أنها خصوصيات ..

اتفقنا على أن يكون مدخلنا هو معرفتنا بهذه العلاقات ..

وصل الفتيان قبل الموعد وأدركنا أننا نجحنا فى إثارة إهتمامهم . جلسنا على هيئة حلقة واسعة فى شرفة النادى الفسيحة ..

كان ينتابنا إحساس عجيب وشعور بالرضى عن النفس ، وكأننا شركاء فى مؤامرة شريفة لقلب نظام الحكم ..

كانت عيون الفتيان ترقبنا وتحاول اكتشاف سر الاجتماع الخطير « الخاص » وحاول سعيد أن يكسر حدة التوتر بالمرح ..

قال : خير إن شاء الله ؟ سياسة والا جغرافيا والا فلسفة ؟

قالت شيرين : بل حصة أخلاق ..

صعدت الدماء إلى وجوه الفتيان وتفحصوا وجوه بعضهم البعض .. حاول سعيد للمرة

الثانية أن يعيد جو المرح فقال :

ممكن نعرف من هو المجرم ؟

قالت شيرين :

الموضوع جد ياجماعة وهو يتعلق بنادية ..

طرحت موضوع نادية كاملاً ، ثم وضعت موضوع الجلسة فى صورة سؤال .

— هل نادية مذنبة فى نظركم؟

واستطردت : لقد ناقشنا نحن الفتيات موضوعها ووجدناها فتاة طبيعية وأن تصرفها سليم من كافة الوجوه ، ونحن فى انتظار رأيكم بصراحة .. تردد الفتيان لحظة ثم تكلم سمير قال :

— إن المسألة ليست رأينا ، بل رأى المجتمع . إن الكابتن فكرى يمثل رأى المجتمع وهو من هذه الناحية على صواب ..

قلت : ألستم من المجتمع ؟ ألا تعتبرون أنفسكم مواطنين صالحين فى هذا المجتمع ؟

قال سمير : الأمر يتعلق برأى المجتمع فى الفتاة وليس فينا .

قلت : وما الفرق ، وهل تعتبر فتاتك سيئة السلوك لمجرد أنها تبادلك عاطفة طيبة .

قال : بالطبع لا .

قلت : هكذا انتم جميعاً . يقيم الفتى علاقة مع فتاة ، ولكنه حين يسمع أن أخته أقامت علاقة مع فتى يشترى سكيناً ..

قال سعيد : سلوك الفتى مصدره الخوف على أخته ، وليس رفضا لحقها فى اختيار شريك حياة ..

قالت شيرين : وما الفرق بينك وبين الفتى الذى اختارته أختك . أنت تعتبر نفسك طيبا حين تنشىء علاقة مع فتاة ، ولكنك تعتبر غيرك من الفتيان مجموعة من الذئاب ..

قال سعيد : هناك مآس تترتب على إطلاق الحرية للبنت وهذه المآسى هى التى تجعل المجتمع محافظا ..

قلت : وهل سبب هذه المآسى هو الفتاة وحدها أم أن الرجال شركاء فى صنعها ؟

قال : المشكلة أن أسرة الفتاة كلها يلحقها الضرر إذا انتهت علاقتها بالفتى بصورة غير سليمة .. بينما لا يتضرر أحد من خطأ الشاب .. هذا هو الفرق الذى يجعل المجتمع يضع قيودا على حركة الفتاة ..

بل أن الضرر من خطأ الفتاة ممكن أن يلاحق مستقبلها ويمتد حتى إلى أولادها ..

قالت شيرين : هنا الظلم .. لأن المجتمع من البداية يحلل الخطأ للرجل بينما يحتفظ بحق الثأر من المرأة ولو بعد حين .

قال سمير : وهل يمكن أن نصلح الكون .. هذا ما نشأنا عليه ولن نستطيع تغيير رأى

المجتمع فى جلسة وحتى لو اقتنع كابتن فكرى فكيف نقنع ملايين الناس ..

قلت : نبدأ بما نقدر عليه . نبدأ بحل مشكلة موجودة أمامنا وبعدها يفرجها ربنا ..

قال سعيد : سؤال صريح ولو فيها « غلاسة » .. هل العلاقة بين نادية وعبد الله علاقة جادة أم عابرة ؟

وبهت حين قالت شيرين : وهل العلاقة بينك وبين « ولاء » جادة أم عابرة ؟ إن هذه ليست القضية .. نحن لسنا جواسيس على علاقات الآخرين .

على هذا المنوال دار الحوار . كان من السهل أن نحاصرهم حصاراً شديداً بعد أن كشفنا أوراقهم . وراحوا يتخبطون . وفى آخر الأمر استسلموا .

قال رجاء : طلبات السيادة ..باختصار بعد هذا الدرس الأخلاقى الطويل ..

قالت شيرين : هى أن نطلب جميعاً فى أول اجتماع لنا مع الكابتن عودة نادية إلى صفوفنا ..

اتفقنا ، وانتهى الاجتماع ، وروح الجميع المعنوية عالية ..

داعبنا زملاؤنا وراحوا يسألون عن مصدر أخبارنا عن قصصهم العاطفية ومن هو الجاسوس الذى نستخدمه بينهم .. وافترقنا والتفاؤل بعودة نادية يسيطر على أعضاء الفريق ..

من الذى يضع الجرس فى رقبة القط ؟

عادت قبل الاجتماع الموعود أحاسيس الفئران حين تواجه القط فى مكان مغلق ..

لم تكن علاقتنا بالكابتن فكرى بسيطة ، كانت علاقة مركبة . يمتزج فيها الاحترام بالحب بالعرفان بالجميل بالخوف ..رغم أن تصرفاته لم تكن مقنعة لنا خاصة بعد أن اشتد عودنا ونمت مداركنا ..

فى البداية كان الولاء والطاعة ، والاعجاب الشديد هى معالم موقفنا منه وكانت فلسفته تنفذ إلى أعماقنا بسهولة ، وأحلامنا فى البطولة تبدأ وتنتهى عند تعاليمه .

ولكن العالم من حولنا بدأ يتسع والأفكار تتصارع فى صدورنا . اختلطنا بفرق أخرى ورأينا مدربين آخرين ، ورأينا الكثير من الشبان والفتيات لايجدون أدنى تعارض بين أن تكون لهم حياتهم الرياضية ، وأن تكون لهم علاقات عاطفية على مشهد من المجتمع ..

بنات نادى سبورتنج كن لا يخفين علاقاتهن بالفتيان .. بل عقدن من خلال المباريات علاقات بفتيان من فرق أخرى ..

كان فريق نادى سبورتنج إذا تغيبت إحدى فتياته عن حضور تمرين المنتخب بالقاهرة يقوم بإبلاغ فتاها بسبب تغيبها دون أن يجد فى ذلك أمراً غريباً ..

وكان بعض المدربين ، بل أغلبهم يفصل تماما بين ماهو شخصى وماهو رياضى .

ويتحركون فى حدودهم ، ولا يشعرون بأن فى ذلك تصغيراً من شأنهم وأهميتهم ..

لم نشعر فى اختلاطنا بالفرق الأخرى أن الرياضة والبطولة ضد طبيعة الأمور ،وتبخرت من أذهاننا بالتدريج فلسفة الكابتن فكرى التى تبشر بأن الرياضة رهبنه وأن الحمام صومعة مائية .

كنا حريصين تماما على علاقة الولاء له شرط ألا تؤثر هذه العلاقة فى حياتنا الخاصة ..

دخلنا الاجتماع نقدم رجلا ونؤخر أخرى واستشعر كابتن فكرى أن فى الجو شيئاً . قال :

ــ خير . أشعر أن على الوجوه أمارات تشير إلى ما فى الصدور ..

خيم الصمت لحظة . تبادلنا جميعاً النظرات . ركزت عينى على شيرين كأننى أرشحها لوضع الجرس فى رقبة القط .

تلقيت على دعوتى نظرة تحدٍ من شيرين .. اتجهت بكل ما فى جسمها الدقيق القوى من أعصاب نحو الكابتن فكرى وقالت :

ــ بصراحة نريد نادية بيننا . لقد غادرتنا وهجمت الكوارث على رؤوسنا ..

تغيرت سحنته وأجاب فى عصبية ..

ــ كل هذا من أجل الشيخة نادية ؟

إن هذا الموضوع أرفض مناقشته ..

كانت إجابته الموجزة صدمة . أصابنا الوجوم . نهض ، ونهضنا بخطى متثاقلة فقد انقلبت خطتنا رأساً على عقب فى دقيقة واحدة .

عاش الفريق حالة اشبه بإنعدام الوزن ، بعد الصدمة . كنا نقوم بتدريباتنا كالمعتاد . ننفذ التعليمات ونتلقى الملاحظات . ولكن شعوراً عميقاً كان ينتابنا بأننا فريق مهزوم من الداخل ، حتى أن زينب قالت فى يوم من الأيام ونحن نغادر النادى مساء . إن كابتن فكرى يحب لنا أن ننتصر على الجميع ماعداه ، يحب أن يرانا مهزومين أمامه ، منتصرين على غيره .

تغيّرت أفكارنا عن مدرّبنا . بدأنا نتململ من تزمته وسخريته وإحساسه المفرط بذاته .. كنا نستعيد محاضراته التى ألقاها علينا بعد عودته من ألمانيا وخاصة ماتعلق منها بعلاقة الفريق بالمدرب ..

قلت : تحتاج السباحة إلى إذن من المدرب لتشرب ، وإذن من المدرب لتغطس ، وإذن لتتزوج .. !

كنا نضحك ! ولكن ضحكنا لم يكن من القلب ، ونتدرب ولكن بغير حماس ونستمع إلى الكابتن فى الاجتماعات ولا نعقب بكلمة ..

لم يكن يخرجنا من هذه الحالة التعسة إلا ساعة تدريب الأطفال ، هم وحدهم كانوا

قادرين على انتزاع الضحك من قلوبنا ، وأن ننسى لحظات إحساسنا بالهزيمة ووخز الضمير الذى بدأ منذ غادرتنا نادية ..

كانت شيرين تقول : الفريق يتحدث من بطنه ياجماعة ..

وكان موقف فتيان الفريق أكثر صعوبة فهم أمام الكابتن ، كانوا يشعرون بأنهم انساقوا خلفنا ، وأنهم غدروا بعلاقات الصداقة التى كانت بينهم وبينه ، وكانوا أمامنا فرسانا مكسورين بعد أن حاولوا لعب دور فرسان حقيقيين ..

بدأوا يشعرون بعقدة الذنب . يمارسون علاقات عاطفية بينما يقبلون أن يقع عقاب على زميلة لهم لأنها مارست نفس الحق ..

كنا نطرح قضية نادية من حين إلى حين مع الفتيان . كانوا يتناولون الموضوع على استحياء وبشعور واضح بالذنب وربما الخزى ..

لم يكن حالنا خافيا على الكابتن ، كان يحاول أن يشيع جوا من المرح ، ولكنه كان مرحا من جانب واحد .

كان يضحك فيعود إليه صدى ضحكته ونرسم نحن على شفاهنا بسمات زائفة ..

٣

دار أغلب حديث الكابتن فكرى في الاجتماع بالفريق عن مدرسة السباحة ، كان واضحاً أنه سعيد بالنتائج التى تحققت ، وأنه متفائل بنتائج أفضل ..

طرح مشروعاً لتطوير المدرسة قال :

- إننا سننتقل بمدرسة السباحين الصغار إلى مرحلة الإنتاج الكبير ، سنتوسع فى قبول أكبر عدد ممكن من الأطفال ، وسنقسم المدرسة إلى فصول على رأس كل فصل سباح من الفريق يكون مسئولاً عن التدريب ، ويتقدم بتقرير يومى عن كل ما يتصل بتلاميذه ..

كشف كابتن فكرى عن سبب اهتمامه بالمدرسة قال : إن النادى الكبير يقفز قفزات واسعة سواء فى عدد أعضائه أو فى تطور اللعبة بين فريقه . وقال إن النادى الكبير قد سلب النادى الصغير عدداً غير قليل من الأطفال نتيجة لانتقال عائلاتهم إليه بعد النشاط الذى دبّ فى حمام السباحة بوجه خاص .

كنا نعلم أن المنافسة غير متكافئة . ولكن كابتن فكرى كان مصمماً على أن يثبت النادى الصغير وجوده رغم كل شيء ..

استطاع أن يثير فينا الحماس بحيث انتقل إلينا إحساس بأن بيننا وبين النادى الكبير معركة فعلاً وأنها معركة حياة أو موت .

استشهد الكابتن لأول مرة بالآية القرآنية « كم من فئة قليلة ، غلبت فئة كثيرة بإذن الله » وطلب منا ألا ننسى هذه الآية وأن نجعلها شعارنا فى مواجهة النادى الكبير ..

كان يتحدث بحرارة ، وحين التقت نظراته بنظراتى ابتسم ، وارتبك قليلاً .. وفهم الجميع مغزى ابتسامته ..

كان كابتن فكرى يتهمنى بأن ولائى هو للنادى الكبير بحكم انتماء أسرتى إليه واشتراك أبى فى إدارته والأدهى أن أخى الصغير لحق بأخيه الكبير فى فريق السباحة ..

حول هذه العلاقة كانت له دائماً تعليقات تتخذ طابع الدعابة ولكنها كانت تشى بما يدور فى صدره من شكوك حول حقيقة ولائى لفريق النادى الصغير ..

كنت أدافع عن نفسى بمنطق سليم ، وهو أن النادى الذى صنع منى بطلة هو النادى الذى يستحق ولائى . ولكن الكابتن فكرى لم يكن مقتنعاً بمنطقى ..

وزّع الكابتن مسئوليات الفصول على خمسة من أعضاء الفريق لم أكن بينهم . وكان

ذلك إشارة بأنه يريد أن يعتمد فى معركته مع النادى الكبير على اعضاء يضمن ولاءهم التام ..

فى اقل من اسبوع كانت روح جديدة قد دبّت فعلاً فى حمام السباحة وما حوله . استطاع كابتن فكرى أن يجذب إلى المدرسة عدداً كبيراً من الأطفال ، أصبحوا موزّعين على خمسة فصول تديرها شيرين .. وزينب .. وسمير .. وسعيد .. ورجاء ..

كانت الساعة الثالثة بعد الظهر هى بداية مهرجان من أطفال تتراوح أعمارهم بين الرابعة والعاشرة .. يتواثبون حول الحمام على أربع ، وقد اتخذوا هيئة حيوانات مختلفة ، وكان هذا هو تدريب تقوية الأطراف .. الذى يسبق تدريب السباحة . هى طريقة ملائمة لأعمارهم لأنها تجمع بين المرح والجد . بينما الحركة لا تهدأ وتنتقل إلى الحمام نفسه حين ينزل إليه أكثر من خمسين طفلاً يرافقهم « الكباتن » . فقد خلع الكابتن فكرى ومن ورائه عائلات الأطفال لقب كابتن على كل مدرب من أعضاء الفريق . ويبدأ التدريب على السباحة وعلى القفز من البرج بين الانفعالات والأنفاس المبهورة وصيحات التشجيع . كل ذلك والكابتن فى قمة النشاط . وقد نجحت خطته من جميع الوجوه ..

انتقل بالفريق من حالة الحزن والإنكسار والمرارة التى سادت بعد رفضه عودة ناديه ، واطمأن إلى وضع لبنة قوية فى معركته مع النادى الكبير هى مدرسة السباحة المنظمة ..

ولكن كان هناك هدف آخر بدأ يتحقق وكان الهدف غائباً عن وعينا بعيداً عن تصوراتنا ..

المنافسة ..

فقد دبت منافسة خفية ، بدأت هادئة أول الأمر ، ثم زادت وتيرتها حتى أصبحت معروفة للجميع ..

احتدمت المنافسة بين شيرين وزينب بالذات .. كانت طبيعة المدرسة تفرض تكوين علاقات بين الكباتن وعائلات الأطفال بحكم حاجة الطفل إلى رعاية خاصة فى البيت ليستطيع أن يحقق تقدماً فى التدريب ..

ومع ظهور الثمار الأولى فى فصول المدرسة بدأت كلمات المقارنة ، والتشجيع والإطراء ، سواء من جانب الكابتن فكرى أو من جانب العائلات ، وحتى من الأطفال أنفسهم ، تدخل فى حياة المدرسة . وكان واضحاً منذ البداية أن شيرين تحظى بنسبة كبيرة من المديح والإعجاب ..

كانت شيرين بطبعها محبوبة ، تأسر الناس بسرعة ، كلها حيوية ، مرحة ، ولها تاريخ مشهور فى البطولة ..

على العكس كانت زينب رغم أنها طيبة ، تبدو باردة ، جامدة ، حركتها الاجتماعية

بطيئة . كما لو كانت إنساناً بلا قلب .

كانت قد تعلمت فى البيت كيف تتحكم فى مشاعرها وتخفى عواطفها ..

سيطرت شيرين على الساحة ، كسبت ثقة الناس ، وبدأت الوساطات لدى الكابتن فكرى لنقل الأطفال إلى فصل شيرين ..

كان فتيان الفريق الذين يساهمون فى مدرسة الأطفال أقل حماسة ، لذلك دارت رحى المنافسة بين شيرين وزينب وحدهما . والمنافسة فرضت نفسها بشكل طبيعى وتلقائى . لم يكن يرغب فيها أحد إلا الكابتن فكرى ، ولم يكن يحسب لها حساباً سواه .

حين بلغت المنافسة أوجها اتخذ كابتن فكرى قراراً مثيراً ..

قرر صرف مكافآت لأحسن النتائج فى فصول مدرسة السباحة تقدم للمدربين من أعضاء الفريق ..

وكانت المكافآت أشبه بالتوابل التى أضيفت إلى الطبخة التى طبخها لإثارة المنافسة بين شيرين وزينب ..

وشعر الفريق بأن شرخاً قد حدث فى جداره فقد بدأت العلاقة بين شيرين وزينب تشوبها شائبة الغيرة .. وكان كابتن فكرى يذكى نارها بكلمات الأطراء التى يغدقها على شيرين بوجه خاص ..

ضاعت نادية فى زوايا النسيان . تصدعت الوحدة التى كان الفريق يتمتع بها والتى بلغت ذروتها فى الاجتماع الذى طالبت فيه شيرين بعودة نادية ..

بدأ الفريق يتحدث عن مدرسة الأطفال وعن الصراع الذى بدأ خفياً بين شيرين وزينب ثم انفجر على السطح ، وكان الكابتن فكرى يسمع ويبتسم ..

امتلأ احساساً بأنه عاد يسيطر على الفريق وأن الخيوط كلها أصبحت بين يديه ..

كانت الحكايات التى لا تنتهى على الألسنة عن المنافسة بين شيرين وزينب تنتهى عادة بسؤال مثير :

كيف استطاع كابتن فكرى أن يغفر لشيرين ، ابنته المدللة تحديها له فى موضوع نادية ؟! ..

كنا جميعاً نتوقع أن تفتر العلاقة بين الكابتن وشيرين . وأن يصيبها كرباج التأديب ولو بضربة لاسعة على المنكبين ..

الذى حدث هو العكس . عاد الكابتن يدلل شيرين ويشجعها ويتباهى بها ويغمز من طرف خفى فى كفاءة زينب رغم تأثير ذلك السىء على روحها المعنوية رغم أنها إحدى بطلات الفريق ، والفريق بحاجة إليها فى مبارياته القادمة ..

احترنا جميعاً وتخبطت إجاباتنا ولم تصل إلى نتيجة مقنعة ..

وبلغ الأمر ذروته حين فازت شيرين فى تصفيات المنتخب لترشيح بعثة من السباحين والسباحات تسافر إلى بلغاريا ..

تعاونت فتيات الفريق جميعاً فى إعداد لوازم السفر لشيرين : « اليونى فورم الدولى » ، وحقائب جديدة وهدايا . كنا نتحرك جماعة ، وكنا جميعاً فى قمة السعادة .. غير أن زينب كانت تتحرك معنا صامتة بلا حماسة ..

كان من السهل اكتشاف السبب . لقد انقلب الموقف كله ضدها . ولم يعد أمامها إلا أن تستسلم ، وتكتفى بالوقوف خلف شيرين ، بطلة من الدرجة الثانية ..

وسافرت شيرين وتركت فراغاً وراءها فى الفريق وفى مدرسة السباحة ..

ولم يترك الكابتن فكرى هذا الإحساس بما تركته شيرين من فراغ يمر دون تعليق ..

قال أن شيرين لها وحشة . فقد كان لها حركة فى الموقع وبشكل غير إرادى اتجهت جميع الأنظار إلى زينب كأنها تبحث عن أثر ضربة السوط على كتفها العارية ..

كانت قدرة زينب الهائلة على التحكم فى أعصابها وقناع البرود الثلجى الذى تضعه على وجهها هما عدتها التى لم تخذلاها أبداً ..

كانت هناك واقفة كتمثال فرعونى من عصر الدولة القديمة لا يحزن ولا يبتسم ..

كانت زينب تقف بالمايوه أشبه بسمكة عملاقة من أسماك المحيط .. تحوّل لون بشرتها الأبيض إلى لون البرونز بينما تلمع من ثناياه عضلات الجسم بتأثير أشعة الشمس . يلتصق المايوه بجسمها كأنه قطعة منه بلونه الكحلى .. الوجه مربع ، أبرز ما فيه عينان واسعتان عسليتان لهما بريق النجمة . فى هذه اللحظة التى نزل فيها سوط الكابتن فكرى على جسمها كانت تمسك بيد طفل متمرد لعوب تحاول أن تقنعه بالانتظام فى التدريب .. لم تتوقف لحظة عن حوارها مع الطفل ، ومضت به بخطوات ثابتة نحو حافة الحوض ..

جاءت الأخبار بنبأ يقول أن شيرين ستتغيب أسابيع فى الخارج فى رحلة رياضية طويلة .. وبينما كان رد فعل النبأ علينا عادياً إلا أنه بالنسبة لزينب كان كأنه هدية من السماء ..

انقلب حالها فجأة من الركود إلى الحركة ومن البرود إلى الحيوية ومن اليأس إلى الحماس ..

واخذت تطلب تدريباً إضافياً بعد انتهاء التدريب المسائى ..

الغريب أن كابتن فكرى تلقف هذا الحماس المفاجىء بصدر حنون . انقلب هو الآخر من حال إلى حال . وبعدما كان يجلد زينب بسياط السخرية بدأ لسانه يسيل شهداً وعسلاً ، وهو يشرف بنفسه على تدريبها الإضافى .

احتار دليلنا . فقدنا القدرة على فهم أى شىء ..

شىء واحد كنا واثقين منه أن الكابتن فكرى يدبر أمراً له ما بعده ..

انتقل حماس زينب من الحمام إلى مدرسة الأطفال . كانت كأنها فراشة تخرج من

الشرنقة . خيل إلينا أنها أصبحت أخف وزناً وأرق روحاً وأكثر حساسية ..
عرفت كيف تضحك وتحتضن الطفل بحرارة وحنان مثل حنان الأمهات وتجرى به إلى حافة الحمام أو تصعد به إلى قمة البرج .. بدأت تشارك الأطفال فى ألعابهم حول حمام السباحة وتقفز مثلهم قفزة الأرنب . لأول مرة رددت أرجاء النادى صدى الضحكات المرحة لزميلتنا الرزينة ...

وذات مساء كشف كابتن فكرى عن جانب من خطته حين بدأ الاجتماع وهو يتحدث بلهجة توكيد :
- فخور جداً بالروح الجديدة العالية للكابتن زينب إنها أمامنا مثال للاعب الذى لا يفقد حماسته أبداً .. ولا يقنع بالمستوى الذى وصل إليه . لقد وعت الدروس وأدركت أن فى طاقة جسم الإنسان ما لا نهاية له من القوة . لقد طلبت تدريباً إضافياً يتزايد كل يوم عن اليوم الذى قبله . وهى تتقدم فى الحمام وفى مدرسة السباحة . وهى تستحق الثناء الذى بدأ ينهال عليها من عائلات الأطفال .. وبسلوك زينب هذا تدعونى إلى مزيد من الأهتمام بها وسأفعل ذلك !!!
فهمنا أن فترة غياب شيرين عن التدريب اليومى بسبب رحلتها قد تحول إلى فرصة أمام زينب لتتجاوزها ، وأن الكابتن فكرى يفتح أمامها هذا الطريق ويضع خبرته إلى جانبها لتحقيق هذا الهدف ..
ساد بيننا احساس بأن الكابتن يعاقب شيرين على موقفها منه فى موضوع نادية ، وأنه كان ينتظر الفرصة المناسبة وأداة العقاب ..
كانت الفرصة هى سفر شيرين ، وكانت أداة العقاب هى منافستها على البطولة .. زينب ..
وقفت اجتهاداتنا لتفسير ما يجرى حولنا عند هذا التصور .. وهل يمكن أن يكون هناك سبب آخر ؟!

بدأت اللقاءات الودية بين النوادى الخمسة تمهيداً للمباريات ..
كنا فى منتصف الصيف . وتقرر أن يكون أول لقاء فى نادينا ..
كان كابتن فكرى مثل أم العروسة مشغولاً بالصغيرة والكبيرة لكى يبدو نادينا الصغير فى ثوب قشيب ، ويبدو فريقنا فى أحسن حالاته ..
كان نجم اللقاء بغير منازع هو فريق النادى الكبير ..
كان عدد السباحين فوق ما نتوقع ، وكفاءتهم ملحوظة رغم أن الفترة التى انقضت على تكوين الفريق قصيرة ..
قال الكابتن وهو يخفف من وقع هذه الحقيقة على فريقنا :

ـ هؤلاء ناس يعومون من يوم « السبوع » . الطفل فى هذه النوادى يحبو على موج الشاطىء طوال شهور الصيف ، لهذا لا يحتاج إلى مجهود شاق ليصل إلى السباحة الصحيحة حين يقرر أن يكون سباحاً .. ولكن ليس معنى هذا أنه يتفوق على الذين تأخر تدريبهم . الفيصل هو التصميم والتدريب الذي لا يعرف الكلل وهى مميزات تتوافر فى فريقنا الذى يؤمن بشعار « اللعب للعب » ..

ليس عندنا مشاغل أخرى غير السباحة ، بينما فريق النادى الكبير له مشاغله ، هذه هى الثغرة التى يستطيع فريقنا أن ينفذ من خلالها إلى النصر ..

ولكن حديث كابتن فكرى لم يمنعنا من اكتشاف رنّة الخوف التى بدأت تدب فى أوصاله .. وصدق حدسنا حين تطوع من تلقاء نفسه فى أول اجتماع بعد السباقات الودية وطرح مسألة عودة نادية مرة أخرى .

قال : هل عندكم أخبار عن نادية ؟..

كان يبتسم ..!

تصورنا فى البداية أنه يريد أن يكتشف مدى تنفيذنا لتعليماته .. لم يتقدم أحد بجواب ..

قال : ليس عندى مانع من عودتها شرط أن تقطع علاقتها بحصان الهوكى ..

وجدت نفسى أندفع وأتعهد بأن أقنع نادية بذلك ..

قال كابتن فكرى بارتياح ملحوظ :

ـ إذن . اتصلى بها ..

خرجنا متهللات . اتفقت أنا وزينب على الاتصال بنادية فى نفس المساء ..

لم نكن غرباء على بيت نادية ، ولم يكن بيت نادية غريباً علينا .

على بعد خطوات من جدار النادى الذى يفصله عن منطقة المساكن الشعبية شقة صغيرة فى عمارة هائلة ، لها طنين مثل خلية النحل ..

كان بنات الفريق يترددن على بيت نادية لقربه الشديد من النادى . ولأنه ـ على رقة حال الأسرة ـ كان بيتاً مضيافاً ..

كان الأب عاملاً فى مصنع نسيج . واكتشفنا من خلال ترددنا على البيت أن الأم تقوم بحياكة ثياب جاراتها فى وقت الفراغ ولتزيد من دخل الأسرة ..كانت أم نادية طاقة هائلة من الحنان تعاملنا كأننا بناتها ، وكان الأب هادئاً بشوشاً قلمّا نجده فى البيت .. وعلمنا أنه يقوم بأعمال إضافية خارج المصنع ليحافظ على مستوى لائق لأسرته ..

وفى اللحظات القليلة التى تجاذب فيها معنا أطراف الحديث كنا نشعر أن له عقلاً متفتحاً ، وكان يكرر عبارة تترك أثراً طيباً فى نفوسنا .

- بى ثقة لا حدود لها فى جيلكم . وسوف تكون حياتكم أحسن من حياتنا ..

كان للبيت فلسفة تفسر هذا المناخ الجميل الذى يرفرف عليه . رغم ضيق المكان وضيق الحال ..

كانت الأم تدخل بنا مباشرة إلى المطبخ الصغير وهى تقول : أنا عارفة أنكن جائعات ..

ودائماً كان فى المطبخ شىء لذيذ يؤكل . حتى العدس كنا نأكله بشهية وصخب ونحن نقضم رءوس البصل الأخضر ونلتهم أرغفة الخبز ..

كانوا يخلطون كل شىء بالنكتة ، ويعلقون على كل شىء بحكمة . وكان للأكلات الشعبية أسماء رنانة :

كانت الملوخية اسمها الشريفة ، والأرز اسمه كهرمان . والعدس اسمه دكر العدس ، وماء السلطة الحريف اسمه الكونياك .

كانت الأم توزعه علينا فى فناجين صغيرة ، وتلح على أن نحتسيه دفعة واحدة لتفتح شهيتنا لصنع يديها من الأكلات الشعبية ..

فى مطبخ أم نادية اكتشفنا ما تأكله الطبقات الفقيرة . وفى الصالة الصغيرة حول ماكينة الخياطة استمعنا لأول مرة إلى حكمة البسطاء ..

لقمة هنية تكفى ميّة ..

بصلة المحب خروف ..!

جحر ديب يساع ميت حبيب ..

كانوا يكملون طعامهم بالنكتة . ويستعيضون عن ضيق الحال بسعة الأفق . وعن مظاهر الحياة غير الضرورية بمحاسن الأخلاق . وعن خشونة الأثاث والثياب بالنظافة وحسن الذوق ..

كنا نرتاح حين نقضى ساعة فى بيت أم نادية ، وتشجعنا مع تكرار الزيارات ، وطلبنا منها أن تخيط لنا ملابسنا ، التى كانت فى ذلك الوقت غريبة عليها ، ولكنها سرعان ما تأقلمت وتشربت أذواقنا ، وأرضتنا وهى تنفذ طلباتنا بقلب عطوف وصبر شديد ..

استقبلتنا أختها عصمت على الباب . صاحت بإنفعال وفرح تنادى على نادية . كان اللقاء حاراً وضمتنا أم نادية إلى صدرها العريض وقالت :

كنت واثقة من عودتكم هذه مهما طال الزمن ..

جاءت نادية ..

لأول مرة تأملتها بعيون جديدة . كانت قد أصبحت أنثى . ساعد ابتعادها عن الحمام فى إظهار مفاتنها .. عاد شعرها للونه الكستنائى الطبيعى وأظهرت عنايتها به مفاتن كانت خافية : البشرة السمراء أكثر نضارة والعيون أشد لمعاناً ، كان ثغرها بالذات مركز جاذبية خاصة أقرب إلى ثمرة الكريز ..

تعلقت عيون نادية بشفاهنا ونحن نفتح الموضوع . أشرق وجهها حين علمت أنها ستعود . لم نذكر شرط الكابتن فكرى ، أمام أختها ، ولكننا اختلسنا لحظة انفراد معها واطلعناها على الحقيقة كاملة ..

تأزمت ، ولكننى أسرعت باقتراح :

– ولو لفترة مؤقتة يا نادية تستطيعين بمساعدتنا تضليل الكابتن . كذبة صغيرة لا تضر .. وتبقى الحقيقة سراً بيننا ..

وافقت نادية على مضض ، ولكننا لاحظنا أن فرحتها بالعودة تحولت إلى فرحة مكسورة وقالت :

– إذن عودتى هى لمصلحة الكابتن فكرى وليست غير ذلك !!

قلت لها أخفف من الصدمة : بل لمصلحة الفريق . ولن يتغير شىء فى موضوعك الخاص ..

قالت زينب : للضرورة أحكام ، وخاصة فى حياتنا نحن البنات .. ودعنا نادية على موعد لقاء خارج النادى . قالت إنها بحاجة إلى يومين لترتيب أمر عودتها ، وفهمنا أنها ستتفاهم مع فتاها ..

فى الموعد لم تكن نادية وحدها فقد وقف عبد الله بوجه بشوش يرحب بنا . تغلبنا على المفاجأة وسألناها عن قرارها ، تبادلت نادية نظرة طويلة مع عبد الله . ابتسم وبدأ الحديث قال إنه لم يكن بحاجة إلى تعريف بنا لأن نادية حدثته عن كل صغيرة وكبيرة فى حياتها وبالتالى عن صديقاتها ..

بهذه البداية كسر حائط الكلفة .. وما أسرع ما داخلنا شعور بأننا نعرف عبد الله كما يعرفنا ..

كان يرتدى قميصاً أبيض وبنطلوناً رمادياً وحذاء خفيفاً ، أسمر . لوجهه ملامح صريحة ، شعره مقصوص على الطريقة العسكرية ، له شارب خفيف . مفتول العضلات رغم نحافته الظاهرة ، وبشكل عام لم يكن فى عبد الله شىء مثير وملفت للنظر ..

كان يتحدث ببساطة وعلى السجية قال إنه الوحيد الذى يحتاج إلى تعريف فى هذه الجلسة ..

وكما يحدث فى رحلات المدارس قال : فى انتظار إعلان النتيجة لأصبح مهندساً .

– بطاقتى الشخصية : عبد الله حسنين ، فى الأصل من الصعيد الجوانى من أخميم بالذات . والأم من سندوب . والذى جمع الشامى على المغربى هو قصة حب لاوقت لروايتها . وللأسف طالع لوالدى وليس لوالدتى فى اللون والملامح ..

كان يضحك كأنما يسخر من نفسه ، ولكن حديثه كان جديداً علينا ..

سبب معرفتى بنادية أننى رحت أكسبها للاشتراكية فوجدتها مقتنعة أصلاً .

تعرفت إلى والدها فوجدته كذلك ، أصبحت أحد أفراد الأسرة باختصار . حين قال لكم الكابتن فكرى أنه رجع إلى والد نادية فى موضوع علاقتى بها كان يزوّر الحقيقة . قال لوالد نادية أننا كنا واقفين فى وضع مبتذل . وطبيعى أن والد نادية قال له من باب المجاملة أن المدرب بمثابة الوالد فى الحرص على أعضاء فريقه ..

توقف عبد الله عن الحديث هنيهه كأنه يبحث عن مدخل جديد للكلام ..

تدخلت نادية وقالت إن عبد الله أبدى رغبة فى مناقشة قرار الكابتن فكرى الأخير لأنه غير مقتنع برأيكما فى تضليله ..

قال عبد الله : الحقيقة أننى أريد أن أتحدث عن علاقتكم بكابتن الفريق . من خلال علاقتى بنادية ، ومن خلال وجودى فى النادى ، تعرفت على أسلوب مدربكم فى إدارة فريق السباحة . اسمحوا لى بوصف هذا الأسلوب بأنه شاذ وقبولكن بهذا الأسلوب هو فى حد ذاته شذوذ ..

وابتسم وهو يسترسل : أنتن من شواذ المجتمع يا آنساتى المهذبات .. وإذا كان ثمن البطولة هو أن يتحول الإنسان إلى عبد فهذه ليست بطولة . بل هى وقوع فى هاوية الاستعباد والهزيمة .

— كيف ؟!

أنتن سباحات جيدات ، ولكن تسبحن فى قمقم على قاع المحيط ، لأن حياتكن الشخصية الحقيقية منفصلة تماماً عن حياتكن كبطلات . لذة البطولة هى أن يمارسها الإنسان دون أن يكون فى حياته انفصام عن المجتمع إلا فى حالة واحدة هى أن يكون عضواً فى تنظيم سرى ، ومعلوماتى أنكن لا تشتغلن بالسياسة ..

قلت : مقاطعة : اسمح لى بالاعتراض على وصفك لنا بأننا عبيد ، إننا نعيش حياتنا ولكن بالطريقة التى لاتفجع المجتمع من حولنا .

قال : إن التضليل يكفى وحده للقضاء على نصف متعة الإنسان بحياته .. ولا تقنعينى بأن التضليل يحل مشكلة ، وأنا أعلم أن لكل فتيات فريق السباحة علاقات عاطفية وهى علاقات بريئة ونظيفة ومعروفة ، ولكن تنقصكن الشجاعة رغم أن كل واحدة منكن تحمل لقب بطلة !!

استفزنا عبد الله .. نجح فى إثارة طبيعة العناد فينا ..

قالت زينب : عن نفسى ليس لى هذه العلاقات التى تتحدث عنها ..

قال عبد الله : غداً سيكون لك علاقة وستخطرك نادية نيابة عنى باسم الفتى المحظوظ . ليس هناك أسرار فى هذه الأمور ، والمسألة كلها مظاهر ، ومجتمع منقسم على ذاته ، يمارس أشياء يرفضها بطرف لسانه . الأم تحرم على ابنتها ما كانت تتمنى هى فى سنها أن تفعله . والأب الدون جوان يقوم بتقريع ولده لأنه يصادق فتاة بدعوى الحرص على مستقبله . وهناك ما هو أشنع وأفظع ولكن لا أريد أن أخوض فى كل شىء .

كانت نادية تسمع وتبتسم ، كان من الواضح أنها معجبة بعبد الله إلى أقصى الحدود وأنهما اتفقا على تدبير هذه الصدمة الكهربائية لنا . وحين استشعرت أننا انفعلنا بما فيه الكفاية ودخل الحديث مرحلة التوتر ، تدخلت للمرة الثانية .

ـ رأى عبد الله فى فريق السباحة بنادينا أنه فريق ممتاز من جميع الوجوه ، من الناحية الرياضية والأخلاقية . وهو يردد دائماً أن هذا الفريق هو ثروة لنادينا وضعها النادى فى قمقم وسلمه لمارد لا يرحم وأن هذا المارد نزل بالقمقم ومافيه إلى قاع المحيط وراح يصفق للأبطال وهو جالس بين فروع شعب مرجانية .

استطاعت نادية أن تجعلنا نتفهم صديقها أكثر . صنعت جسراً من الحرير بيننا وبينه بكلماتها الرقيقة ..

قلت بمرح : ثم ماذا ؟!

وكأن عبد الله كان ينتظر اشارة المرور . هو يحب الحديث ويجيده ولكلامه إيقاع ، وفيه دائماً جديد كان يشدنا للاستماع إليه قال :

ـ مع الاعتذار للدكتور طه حسين أؤمن بأن الحب كالماء والهواء للإنسان وبأن الذى عاش ومات دون أن يحب هو حمار على حد تعبير الحكيم الشعبى جحا ..

وقال : إن الحمار الوحيد فى الفريق هو الكابتن فكرى ، مع الاعتذار الشديد لأفراد الفريق الذين يدينون له بولاء فوق العادة . وأيضاً مع الاعتذار للآنسة التى أعلنت أنها لم تبدأ تطبيق حكمة جحا بعد ..

ضحكنا وبدأ المرح يسود الجلسة ..

وعلمنا لماذا استطاع عبد الله أن يأكل مخ نادية ويجعلها تختاره وتهجر البطولة ..

قلت : أفهم من كل هذه المقدمات أن نادية لن تعود معنا ..

ضحك عبد الله ضحكة عالية من كل قلبه وقال :

ـ فهمتمانى غلط .. ستعود نادية وسأنزوى أنا إلى حين . تقديراً لموقف الفريق ! ونزولاً على رأى الأغلبية . ولكننى على ثقة أن الفريق سيقتنع يوماً ما برأيى وسوف يكون لنا يومها كلام آخر ..

خرج عن الموضوع كأنه نسيه تماماً ، وبدأ يمطرنا بأسئلة بدت لنا غريبة علينا .

سألنا عن قراءاتنا وكان يعلق على كل إجابة بملاحظة طريفة .. عن إعجابنا بيوسف السباعى قال إنه يتاجر فى عواطف المراهقات

وعن إحسان قال : هذا أذكاهم لأنه يبيع سلعته مرتين . مرة للطبقة التى يكتب عن فضائحها لأنها تجد نفسها فيما يكتب ومرة للطبقة التى تتفرج على الطبقة الأخرى لأنها تشمت فيها .. نوع من شفاء الغليل ..

سألنا هل نقرأ فى السياسة ، فلما علم أن أكثرنا لا يهتم بها . إكتأب اكتئاباً حقيقياً

وسأل : ولا حتى الروايات الوطنية ؟

قالت زينب : قرأت قصة كفاح طيبة لنجيب محفوظ .

قال : هناك أدب وطنى أجمل منها .. كفاح طيبة رواية جميلة ولكنها محنطة .

تحدثنا عن التليفزيون والسينما وأوصانا بمتابعة برامج من إخراج فنانين حدد أسماءهم وروايات لمؤلفين معينين ..

قلت : أتفق مع رأيك فى كابتن فكرى فهو يعترض على قراءاتى وزياراتى الدائمة لمكتبة النادى ..

قال ساخراً : اتبعن تعليماته ، أضمن لكن البطولة والأمية ..

افترقنا على موعد مع نادية فى النادى ومضيت أنا وزينب وبيننا حديث دار أغلبه عن عبد الله ، وكان من الواضح أننا نقر من قلبينا صديقتنا نادية على اختيارها ...

٤

عادت شيرين .. كنت أضع يدى على قلبي من أثر الصدمة التى ستتلقاها ، حين تكتشف أن زينب أصبحت العضو المدلل فى الفريق خلال غيبتها ، وأنها حظيت بتدريب إضافى يجعلها منافسة قوية لها ..

كنت سعيدة بعودة شيرين ، ولكن سعادتى كانت مشوبة بقلق حقيقى ، وكنت أتصور أن الفريق سيدخل مرحلة تنهار فيها صداقات ، وتتمزق فيها روابط . كانت هى أجمل ما فى حياتنا ..

غير أن عودة نادية إلى الفريق كانت تخفف من مشاعر الحزن التى تسللت إلى نفسى ..

استقبلنا شيرين ذات صباح بضجة كبيرة على حافة الحمام . كانت فى قمة السعادة . زارت بلدين أوروبيين ، وحققت نتائج طيبة فى السباقات . وزعت علينا هدايا رمزية ، وفى هذا اليوم تأخر موعد بداية التدريب احتفالاً بها . كنت أرقب سعادتها وأحاول أن أبعد عن ذهنى صورة الصدمة التى تنتظرها . أما زينب فقد كانت باردة كالثلج كالعهد بها . ليس أكثر من كلمات ترحيب عادية ، لاذت بعدها بالصمت . من الواضح أنها كانت تستعجل ، لحظة اكتشاف شيرين لما خبأته لها فى غيابها ..

أفضيت إلى شيرين بسر عودة نادية . وافقتنى على خطتى ، وكانت سعيدة بالتئام شمل الفريق مرة أخرى ..

كانت واثقة من نفسها ،فخورة بما حققته فى رحلتها .. مطمئنة البال لما ينتظرها من انتصارات جديدة ..

تتصرف كنجمة يعتز بها فريقنا ويعتبرها القلب والشهرة والنجاح ..

عاش الفريق ثلاثة أيام سعيدة . أبرزما فيها استقبال مدرسة السباحة لشيرين . كان الاستقبال زفة حقيقية سواء من الأطفال أو من ذويهم وسار تدريب الفريق عادياً فى هذه الأيام الثلاثة إلى أن كان اليوم الرابع ..

اليوم جمعة .. وفى تدريب المساء أعلن كابتن فكرى أن التدريب سيكون لقياس الأرقام التى يحققها أعضاء الفريق ..

وقع الرقم الذى حققته زينب كأنه صاعقة على رأس شيرين .. أعلنه الكابتن فكرى وفى صوته رنين خاص ، ثم أعقبه برقم شيرين ..

كان بين الرقمين مسافة تشير إلى الطفرة التى حققتها زينب .. لقد زحزحت شيرين عن مركزها ودفعت بها برفسة قوية إلى الخلف ..

لم يستطع الكابتن أن يخفى معالم اللعبة التى أجاد اخفاءها . كان يوزع نظراته بين زينب وشيرين ، ويمنح واحدة إعجابه والأخرى شماتته . بينما كان سائر أعضاء الفريق يحاولون استكشاف أثر الصدمة على زميلتهم .

خرجت شيرين من الماء كأنها تلقت على ظهرها ضربة هائلة .. أسرعت إلى غرفة خلع الملابس وأسرعت خلفها ، بينما تخلفت زينب لتكمل تدريبها . حين انفردنا إنهارت شيرين باكية وحين تحدثت من بين دموعها ، أدركت أن الغشاوة قد انزاحت عن عينيها ، وأنها التقطت خيوط المؤامرة التى حيكت ضدها أثناء غيابها ..

كانت تفهم أن الكابتن قد عاقبها على موقف التحدى الذى اتخذته منه فى قضية نادية ، واعتبرها رأس التمرد ..

خففت من تأثرها الشديد . قلت لها إنها تملك إرادة حديدية تكتسح العقبات ، وأن الماء هو الحكم الأخير ..

لحقت بنا نادية ونحن نتحدث . كانت قد أدركت بغريزتها معنى ما حدث .. وتحدثت وقد تملكها شعور بالذنب ، ولكن شيرين كانت تدرك أنها لم ترتكب خطأ . وكانت تؤمن أن نادية أيضاً لم ترتكب أى خطأ ..

كانت حاسمة فى إدانة كابتن فكرى وإتهامه بأنه خرج على كل قاعدة للحياة الرياضية ..

كانت تتحدث وهى تنتفض ، وأخيراً اتفقنا على الصعود إلى سطح الحمام بأعصاب هادئة ..

وجدناه يشرف بنفسه على تدريب زينب الإضافى كالمعتاد ، وكأن شيئاً لم يكن . همست أنا ونادية لشيرين بأن تضبط أعصابها . قطعنا الطريق إلى باب الخروج فى صمت .. اتجهنا بغير إرادة إلى شارع النيل . كنا نحس أن شيرين بحاجة إلى بكاء صامت طويل ، وتحقق حدسنا ، فقد تركت شيرين لدموعها العنان ، واكتفينا بكلمات لا معنى لها للتخفيف عنها ، وودعناها عند باب بيتها ..

قالت نادية : انهارت أقوى روابط فريقنا . الرابطة بين كابتن فكرى وشيرين والصداقة بين شيرين وزينب .. واحسرتاه ..

جرت المنافسة على المكشوف بعد ذلك .. كان الكابتن قد وصل بزينب إلى رقم ضربت به رقم شيرين ، ثم أوقف تدريبها الإضافى ، وترك الغريمتين وجها لوجه ..

انصرف اهتمامى إلى تحقيق درجة من الوئام للفريق .. رحت أنصح شيرين بأن تحاول توطيد علاقتها بالكابتن كما كان الحال من قبل ، وأن تحافظ على صداقتها بزينب حتى لا ينفجر الصراع ويؤدى إلى عواقب وخيمة ..

كنت أعلم أن المسألة صعبة ، ذلك أن كابتن فكرى كان يحرك الخيوط ويجد لذة كبيرة فى مشاهدة نتائج لعبته ..

كان يمتدح أعصاب زينب الهادئة ويرى أنها عامل من عوامل تحقيق الفوز . نسى عباراته القديمة حول الإرادة الحديدية لشيرين .

تفانت شيرين فى التدريب . ويوماً بعد يوم ازداد يقينها من أنها تنافس خصماً غير سهل ، غير أنها استطاعت أن تسترد جانباً من كفاءتها التى تأثرت بفترة السفر ، واستعادت مركزها فى مدرسة السباحة ، وفى الأعمال الإدارية التى كان يوزعها الكابتن مناصفة بينها وبين زينب ..

كنت أدفع إرادة شيرين الحديدية فى اتجاه السيطرة على انفعالاتها ، وعبور المنغصات الصغيرة التى كان يحركها الكابتن بغير يأس .. واستجابت شيرين إلى نصائحى ..

كنت أقول لها إن المنافسة إذا خرجت عن الروح الرياضية قد تضع زينب فى مواجهة الفريق كله .. وحينئذ قد يستخدمها الكابتن فكرى فى ممارسة طريقته الدكتاتورية ضدنا جميعاً ..

أفصحت لها عن مخاوفى من أن تفشى زينب سر نادية ..

راحت شيرين تتجاوز المواقف السخيفة التى كانت تحاصرها من جراء منافستها مع زينب .. ساعد على ذلك روحها الاجتماعية الطبيعية ولجأت إلى العادات القديمة ، مثل دعوة الكابتن على غداء أوسهرة عائلية ..

وتصرفت كما كانت فى الماضى الابنة المدللة له ..

لعبت أنا ونادية دور تلطيف الجو وترميم ما تصدع من دعائم العلاقات الطيبة القديمة ، ودخلنا مرحلة الاستعداد لسباقات المنطقة ..

بدأ الاستعداد باجتماع طويل شرح فيه الكابتن وجهة نظره . قال إننا سنغير خطتنا القديمة وهى نزول كل لاعب فى تخصصه بغض النظر عن المكسب والخسارة وهو ما كان يسميه « اللعب للعب » وهو ذروة الروح الرياضية العالية ، وأعلن عن خطة جديدة هدفها تحقيق الفوز بالنقط عن طريق توزيع أعضاء الفريق على جميع السباقات ..

اعترضت على هذا التغيير ، فقد كان ضد المبادىء التى أنشأنا عليها الكابتن . قلت له هذا بصراحة فاتهمنى بصراحة أيضاً أننى ضعيفة الولاء للنادى الصغير . ومن هنا فإن مسألة انتصاراته لا تهمنى ..

ولست أدرى كيف أفلتت منى هذه العبارة القاسية ..

« لم أكن أعلم أن المبادىء تتغير حسب الظروف » .

لاحظ الجميع أن الكابتن فكرى يبذل مجهوداً جباراً ليتحكم فى أعصابه . والسبب أنه

كان على أبواب معركة لا يريد أن يخسر قبل أن يخوضها أحداً من فريقه ..

ولكننى كنت قد وضعت بعبارتى المتهورة لغماً تحت العلاقة بينى وبينه ..

قضت الخطة الجديدة بألّا تنزل شيرين وزينب معاً ، ومرت سباقات المنطقة دون أن تنتصر إحداهما على الأخرى ، وظلت المنافسة مفتوحة إلى سباقات الجمهورية ..

لم تنجح خطة الكابتن فكرى ، فقد كان النادى الكبير منافساً خطيراً يصعب إلحاق الهزيمة به . واعتبر فريقنا أن سباقات المنطقة كانت جولة استكشاف للتطورات التى دخلت على الفرق الأخرى ..

٥

ثم وقع حدث جديد فى حياة الفريق ..

كانت لنا زميلة اسمها ليلى . توقفت عن التدريب فى مرحلة مبكرة ونسيناها .. فى زحمة الأحداث ..

ظهرت فجأة .. كانت قد تحولت إلى فتاة رائعة الجمال .. بينها وبين مستوى الجمال فى النادى مسافة شاسعة .. علمنا من الكابتن أن ليلى انضمت إلى الفريق . وقد أسبغ على إعلان النبأ جواً من الأهمية ..

لم تمض أيام حتى شعر الفريق كله بأن وراء عودة ليلى توصية خاصة .. تفرغ لها الكابتن بصورة ظاهرة . توقف تماماً عن رعايته الخاصة لزينب . كان يعامل ليلى كما يعامل رجل البلاط ملكة متوجة ..

حاولنا معرفة السر وراء هذه العودة ، وهذا الاهتمام .. نشرنا قرون استشعارنا فى أرجاء النادى ، ولكن جهودنا باءت بالفشل ..

خصص لها الكابتن حارة رغم ضيق الحمام بعدد الأعضاء . لم تكن ترتبط بنظامنا . كنا عادة نتجمع على الحافة .. ويقرر الكابتن لحظة البدء فننزل إلى الحمام . ليلى وحدها تصعد من غرفة خلع الملابس . تتخفف من روب جميل على حافة الحمام . ثم تقفز إلى الماء مباشرة حيث يتفرغ الكابتن لها .. ويخصها بالتوجيهات والملاحظات حتى ينتهى التدريب وتختفى ليلى ..

كانت تختلف عنا على طول الخط . فى الملابس كانت غاية فى الأناقة . فساتين آخر موضة ، وردة صناعية على العنق العاجى الطويل يضمها إليه شريط من القطيفة يتناسب مع لون الفستان . الشعر الذى يصل إلى الركبتين معقوص بعناية : لا تشاهد أبدا بالبنطلون والبلوز ، وهو الزى الشائع بين بنات النادى . لا تجالس أحداً . ونادراً ما تتحدث إلى أحد ..

ماهى القصة ؟

ضربنا أخماساً فى أسداس ، وكان من الطبيعى أن ينتقل التخمين من الاحتمالات القريبة إلى الاحتمالات البعيدة ..

هل يمكن أن يكون بين كابتن فكرى وليلى علاقة ما ؟

كان هذا الاحتمال بعيداً .. ولكنه وارد . ولأننا كنا نتمنى أن يقع الكابتن فكرى فى شرك الحب ، فقد كنا نبذل جهداً خارقاً ليقف هذا الاحتمال على قدمين ..

عززت شيرين هذا الاحتمال بأن كشفت عن سر من أسرار كابتن فكرى . كانت له خطيبة من بنات الحى الذى يسكنه ، وكانت هذه الخطيبة معروفة فى أضيق الحدود . فإن الكابتن حرص على ألّا يصحب خطيبته إلى النادى أبداً .. ثم فسخت الخطبة .. وقال الكابتن فى تبرير ذلك إن خطيبته لم تستطع أن تفهمه كرياضى . كانت تطالبه بحقها فى مصاحبته إلى سينما أو نزهة أو زيارة عائلية دون أن تقدر ارتباطه الدائم بالنادى ومسئوليته كمدرب لفريق ناجح . اتسعت شقة الخلاف وانتهت باتفاق على فسخ الخطبة ..

تساءلنا هل وصل طموح الكابتن فكرى إلى درجة خطف أجمل فتيات النادى رغم فارق السن والوضع الاجتماعى ؟

لكثرة ما كنا نسمع به من غرائب الحب والحياة مالت نفوسنا إلى تصديق هذا الاحتمال .

فى الحقيقة كنا سعداء بالركون إلى هذا الظن ..

كنت أقول ضاحكة : ربنا يجعل فك عقدة الكابتن على يد أختنا ليلى حتى نتنفس الصعداء ..

وكنت أداعب نادية بالذات ، بقولى : فرج ربنا قريب يانادية ، وغداً يظهر عبد الله على حافة الحمام حاملاً الفوطة . وكانت شيرين تقول مازحة أن ليلى تستحق لقب ملاك الرحمة فى فريقنا أكثر مما تستحق كأس البطولة .. الوحيدة التى لم تكن تشارك فى احاديثنا حول ليلى كانت زينب ..!!! الجميع لاحظ أن القلق استبد بها ، ولم يكن صعباً علينا تفسير ذلك ..

لقد حلت ليلى محلها فى دائرة اهتمام الكابتن .. تركها تواجه منافسة ضارية مع شيرين ، كما لو كان قد تخلى عنها وانصرف ليصنع بطلة أخرى ..

أرهفنا حواسنا لمتابعة علاقة الكابتن فكرى بليلى لتتحول نتائج المتابعة بعد ذلك إلى حكايات وقصص ودعابة ..

حين كان كابتن فكرى يوجه تعليماته إلى ليلى .. كان صوته يتغير . يتحول إلى طبقة أخرى فيها عذوبة مصطنعة وتكلف واضح ..

هل كان زوج المستقبل يدرب نفسه على معاملة بنت الذوات ؟!!

كنا نضحك ونشرق من ضحكنا .. وتمتعنا بأيام انصرف فيها الكابتن عن عاداته القديمة ، وتوقف عن توجيه انتقاداته اللاذعة للملابس والسلوك وغيرها ، مما كان يعتبره من صميم اختصاصه ..

فى تلك الأيام أيضاً اقتربنا أكثر من نادية وعبد الله .. كانت نادية تدعونا إلى وجبة غداء كل يوم جمعه . هناك اكتشفنا أن علاقة نادية بعبد الله معروفة للأسرة ، وأن الجميع يباركها .. وهناك استمعنا إلى كلام جديد ، غير ما اعتدنا عليه من ثرثرة حول الحمام ، وفى اجتماعات الفريق بالكابتن ..

كان بين عبد الله وبين والد نادية حوار سياسى لا يتوقف ، كأن جيلين يواجهان بعضهما فى منافسة حامية ..

والد نادية من وجهة نظره يرى أن مصر حققت الاشتراكية بحكم الحقوق التى حصل عليها العمال وأن المسائل لا تحتاج لأكثر من الوقت حتى يعم الرخاء ، ويتحقق لكل بيت حاجته .. بينما كان عبد الله يرى أن مصر تقف على عتبة باب الاشتراكية وأنها لم تدخل بعد .. وكان كل منهما يدلل على رأيه بتفاصيل تحتار فيها عقولنا ..

قلت لعبد الله مرة مازحة : إذا كانت مصر تقف على عتبة الاشتراكية فلماذا لا تدق الباب أنت ، وتدخل وتتسلم الحكم على بركة الله ؟!

قال : ليست هذه نكتة . إن مصر تحتاج فعلاً إلى من يدق هذا الباب ويدخل بشرط ألا يكون وحده .

كان يدعونا بإلحاح إلى اقتحام غمار السياسة .

كان يقول : الحياة ليست بلبطة فى الماء فحسب .. ولكنها معركة . والرياضة شىء عظيم بشرط ألّا تكون كل شىء فى حياة الشباب ..

شيئاً فشيئاً اعتدنا على أن نكون طرفاً فى الحوار .. ولكن حماسنا لم يصل أبداً إلى حماس الرجلين ، والد نادية وحبيبها ..

وانتزعنا الاستعداد لبطولة الجمهورية من الدوامات الصغيرة التى تحركنا فى فلكها ، وانتبهنا إلى ظاهرة جديدة ، وهى أن زينب كانت تلح على كابتن فكرى فى العودة إلى تدريبها الإضافى ، وكان كابتن فكرى يعدها ، ويجد دائماً مبرراً لتأجيل الوفاء ..

كانت سباقات الجمهورية تقترب ، وزينب يزداد اضطرابها ويتراجع ذلك الشعور بالثقة الذى كان يسيطر عليها قبل وصول ليلى ..

وفاجأنا الكابتن فكرى أثناء تنظيم فريقنا لدخول المسابقات بأن ليلى لن تشارك فيها ..

رجحت كفة الاحتمال الذى كان يداعبنا ، وهو أن ثمة علاقة ما بين الاثنين . وإلا فما معنى عودة ليلى بعد غيبة طويلة إلى الفريق .. وان تحظى بكل هذا الاهتمام بتدريبها وإعدادها على أحسن ما يكون إعداد الأبطال .

لأول مرة بدأت زينب تشاركنا الأحاديث حول علاقة الكابتن بليلى ، ولكن مع مراعاة اختيار الألفاظ التى لا تتعارض مع احترامها الشديد له ..

وكان هذا تحولاً خطراً فى شخصية زينب التى لا يحركها إلا الشديد القوى .. وأسعدنا هذا التحول ، فجذبناها إلينا أكثر ، وتضاءلت مخاوفنا من أن تتحول زينب إلى أداة طيعة فى يد الكابتن فكرى تبوح له بأسرارنا فتتأزم الأمور إلى غير حل ..

فى يوم قالت لى زينب : هل تذكرين هيام من بنات النادى الكبير يوم أن قالت لنا ونحن

نتحدث عن ديكتاتورية الكابتن فى العلاقات العاطفية ، أن التفسير الوحيد لذلك هو أنه يحب واحدة منكن . لقد ضحكنا فى ذلك الوقت ، ولكن لماذا نستبعد أن يكون للكابتن قلب .. وأن تكون له مغامرات مكتومة ..

كانت زينب قد بدأت تتصرف على أساس أن بين الكابتن وليلى علاقة حقيقية ..

أثار الاهتمام الشاذ من جانب زينب بهذه العلاقة أحاديث بينى وبين شيرين . لم تكن شيرين تخفى شماتتها ، بينما كان اهتمامى منصباً على تأثير حالة القلق الشديدة التى انتابت زينب على كفاءتها كسباحة ..

بدأت فعلاً تضطرب بعد ما كانت نموذجاً للانتظام والرزانة التى هى ثمرة طبيعية لبرود أعصابها ..

أصبح ظهور ليلى يتلف أعصابها بطريقة ظاهرة . وكانت تفلت منها أحياناً عبارات لم تكن من قاموسها المعتاد ..

كانت تشيع ليلى حين تغادر غرفة خلع الملابس بكلمة : فى ستين داهية ..

حاولت من جانبى أن أصرف اهتمام زينب إلى التدريب ، وأن أقنعها باهمال هذه العلاقة التى قد تكون عابرة فى حياة الفريق .

كانت تسمع ونادراً ما تعلق بشىء ، فهى غير مقتنعة ..

حتى أثناء التدريب كانت توزع اهتمامها بين الماء ، وما يدور بين الكابتن وليلى من تعليمات وملاحظات .. لم يكن ذلك شيئاً مألوفاً فى حمام السباحة ، ولكن زينب لم تستطع أن تخفى انفعالاتها ..

شيئاً فشيئاً تفاقمت المسألة حتى أننا - أنا وشيرين - أطلقنا اسم الضراير عليهما ..

وأذابت نار الغيرة تمثال الثلج ، ورأينا لأول مرة فى حياة الفريق .. زينب وهى تفشل فى إخفاء انفعالاتها .. ورأينا يديها وهما تتقلصان ، وشفتيها وهما تنطبقان فى توتر لتكتما آهة ألم .. ورأيناها وهى تتعثر فى خطاها مثل طفلة فقدت السيطرة على حركتها وسمعناها وهى تعلق على اهتمام الكابتن بغريمتها بكلمات قصيرة تبدو عادية ولكنها كانت أشبه بما يتحرك على سطح البحر من موجات إثر انفجار لغم من ألغام الأعماق ..

٦

وضعنا الكابتن فكرى على المشرحة ..

قبل ذلك كنا نلخص ضيق صدرنا من تصرفاته فى عبارة نقد أو علامة استفهام .

كانت له مسحة من قداسة ..

فى البداية كنا نؤمن بتعليماته إيماناً أعمى ، ولكن الحياة فرضت نفسها علينا ، وبدأت الطبيعة تحرضنا على إعلان التمرد ..

كانت علاقاتنا قد اتسعتْ بحكم تطور الفريق ، تعرفنا على عشرات وعشرات من الفتيات والفتيان فى لعبتنا ، سألنا وتلقينا عشرات الإجابات .. وكانت الحوادث التى واجهتنا قد حركت فينا عنصر الجرأة ..

حادثة نادية المحزنة ، ومصرع زميلنا بين أيدينا ، والشقاق الذى بدأ يدب بيننا نتيجة لتصرفات كابتن فكرى ومبادئه التى كنا نتصور أنها راسخة ثم تغيرت على يديه أمام أعيننا ، وأخيراً حكاية ليلى ..

كان عيدُ ميلادى يقترب ، وعادة كان الكابتن فكرى يعتذر عن دعوتى له تعبيراً عن اعتراضه على سماح البيت بالرقص بين البنات والشبان فى مثل هذه المناسبات ..

تعمدت دعوة نادية وعبد الله معاً ..

حين انتهى الجانب التقليدى فى الاحتفال ودعنا الكبار ليكون الشباب على حريته كما قال عمى ..

حدث العكس . تجمعنا فى صالة البيت الواسعة ووضعنا كابتن فكرى على المشرحة ..

كان سبب اعتذاره عن حضور الحفل هو بداية الحديث عنه ..

قال أخى أيمن مازحاً : عملٌ طيب ، فلو كان حضر لأغرقنا جميعاً فى حمام يسرى فى مائه تيار كهرباء ..

تسلل عبد الله من خلال الضحكات والقفشات إلى الحديث على طريقته الجادة :

قال : حتى لا يتحول الموضوع إلى عقد شخصية . من هو فكرى بالضبط ؟

أنا لدىَّ جواب .. إن فكرى هو أحد أبناء الطبقات الشعبية .. دفعته كفاءته فى السباحة والتدريب عليها إلى طموح هدفه الانفصال عن طبقته ، وقد انفصل عنها فعلاً .. كان حلمه أن ينتمى إلى طبقة أكثر غنى ومنظرة ، من خلال اكتسابه لشهرة فى النوادى الرياضية . حين انفصل عن طبقته أحس بالغربة وهو يستميت للخروج من حالة الغربة باللحاق بطبقة

جديدة . هو لا يملك غير كفاءته كمدرب ، ويضيف إليها تعاليم يتعالى بها على هذه الطبقة الجديدة . إنه يؤنبها لا لأنه يكرهها ، بل لإنه يعشقها . إنه يريد أن يفرض عليها الشعور بالذنب والدونية . حتى تتساوى الرؤوس ، لأنه هو فى دخيلته يشعر بالذنب والدونية ، والدونية حسب عقيدته هى الانتماء للطبقات الشعبية ، والإحساس بالذنب هو نتيجة لشعوره بأنه غدر بطبقته ..

هو يريد أن يعقد أحسن العلاقات بالطبقة الجديدة ، ومفتاحه إلى قلبها هو ما يعطيه لأبنائها وبناتها من خبرة وشهرة ..

ولكن الطبقة الجديدة ليست سهلة المنال . إنها تستخدمه وتمنعه من العبور إلى صفوفها ..

المشكلة أمام الكابتن فكرى الآن أن حاجته إلى الانتماء لم تتحقق ، لا هو طال بلح الشام ولا عنب اليمن . اندفاعه إلى التعالى يقابل بمقاومة متنوعة .. وشعوره بالذنب ينخر فى عظامه ..

لذلك أتوقع أن يتحول الكابتن فكرى إلى إنسان مدمر وقد بدأ السير فى هذا الطريق بالفعل ..

سيدمر الفريق وله أدواته فى ذلك ولكنه سيدمر نفسه فى النهاية .

ختم عبد الله حديثه بالاعتذار عن فلسفته التى لا تناسب جو عيد الميلاد ولكنه قال :

- هذه مسألة مهمة واقترح أن يسعى من يهمه الأمر إلى إقناع إدارة النادى بالاستغناء عن خدمات الكابتن فكرى واختيار مدرب آخر ..

قال رجاء : إذا كانت عقدة الكابتن فكرى هى الانتماء إلى طبقتنا . لماذا لا تتطوع واحدة من بنات الفريق لحل العقدة بالزواج من الكابتن بدلاً من مسألة الاستغناء عن خدماته ؟

وأجاب عبد الله : والله فكرة .. وأجدادنا كانوا يلقون بأجمل بناتهم إلى تمساح النيل باعتباره من الكائنات المقدسة .. وحتى يتجنبوا شره وغدره ..

شد اهتمامنا حديث عبد الله رغم أنه تحول إلى جزء من مادة طرائف السهرة ..

وطرح أخى مسابقة حول أحسن إجابة على هذا السؤال :

ماهى الطريقة التى يتبعها كابتن فكرى فى تدمير الفريق ؟!..

قلت : لقد عاد بالطريقة من ألمانيا ، فقد روى لنا عن رحلته أن المدرسة الأمريكية فى الرياضة تلجأ إلى العقاقير للحصول على أحسن النتائج لحظة السباقات ، وكانت النتيجة أن إحدى السباحات الأمريكيات تحولت نتيجة المغالاة فى تعاطى الهرمونات إلى رجل ..

الكابتن فكرى سيقنعنا عن قريب باللجوء إلى الهرمونات لتضيف إلى تدريبات الحديد التى نتلقاها طاقة جديدة وبذلك يسخطنا رجالاً ..

قالت نادية : إن أقصر طريق إلى تدمير الفريق هو أن يتزوج الكابتن فكرى واحدة من بناته ..

قالت شيرين : الخوف أن يتزوج كل بناته !!

لم تبتسم زينب بكلمة طوال هذا الحديث المرح . ظلت ساهمة كأنما أصابها حديث عبد الله بسهم . حتى أخرجتها عن صمتها بحديث جانبى حول مسابقات بطولة الجمهورية ..

فى آخر السهرة أعلنت نادية عند الباب نبأ استدعاء عبد الله كضابط احتياط ..

قال سعيد معلقاً بطريقته الساخرة : لقد أثبت الكابتن عبد الله جدارته بالرتبة وكان أول ضحاياه الكابتن فكرى هذه الليلة ..

وضحكنا ..

اقتربت بطولة الجمهورية . كان الفريق عادة يستغرقه الاستعداد لهذه البطولة ، وينسى كل ما عداه إلا هذه المرة ..

لم يستطع أحد أن ينسى أن هذه البطولة بالذات تحمل فى طياتها احتمالات انفجار فى الفريق ..

كانت هناك شيرين التى حشدت كل طاقتها وإرادتها الحديدية لتسترد تاجها ..

زينب التى عاشت فترة ذاقت فيها طعم التفوق على شيرين .. ثم تحول المذاق فى حلقها إلى مرارة الحنظل باهمال الكابتن لها ..

أشرف الكابتن على بروفة لعبت فيها هى دور البطولة ، وقبل ليلة العرض اختفى ومعه الملقن ونص الرواية ..

فى الماضى ، كان هم الفريق ينصرف إلى منافسة الفرق الأخرى . أصبحت الآن المنافسة فى أحشائه وبين أعضائه ..

لقد غادرنا الاحساس بلذة الانتصار على الآخرين ، وجربنا لأول مرة مرارة أن تكون المنافسة فيما بيننا ..

أصبحنا مثل جيش منقسم على نفسه يواجه جيوشاً أكثر عدداً وعدة ، الظريف أن الكابتن فكرى صحبنا إلى السباقات بنفس روحه القديمة ، يوزع التشجيع على الجميع ويحاول أن يسبغ روح المرح على الأعصاب المتوترة ..

أجاد لعب دور القائد المحايد الذى يوزع عواطفه بالتساوى على ضباطه وجنوده فى الميدان ..

حاولنا أن نجعل قصة المنافسة بين شيرين وزينب سرا لا يتجاوز حدود الفريق ،

ونجحنا فى خداع الجمهور والفرق الأخرى .

وانتهى السباق بفوز شيرين . خرجت من الماء منتصبة كالرمح بخطوات الملكة وهالة الانتشاء بالنصر . كان الجمهور قد استقبل فوزها كما اعتاد من قبل بعاصفة من التصفيق وصيحات الاعجاب . ولم يبخل على زينب وهو يحييها بالمركز الثانى فى السباق . ولكن زينب نسيت حتى أن ترد على تحية الجمهور . ولم يكن يعلم السر فى خروجها مذهولة من الماء غيرنا . تسلمت جائزتها بعيون زائغة وعادت إلى مكانها بيننا بخطوات ثقيلة . تركت جسمها يسقط ، ولم تبادلنا كلمة واحدة . استعاضت عن الكلام بهزات من رأسها . حتى تهنئة الكابتن فكرى لم تنجح فى انتزاع كلمة شكر من شفتيها ا. طبقتين .

نظرت نحوه وفى عينيها تعبير صارخ كأنه يسأل : لماذا صنعت بى هذا الصنيع ؟
كان موقف الكابتن فكرى من زينب هو أكثر المواقف إثارة للاستغراب بيننا جميعاً .
لماذا فتح باب الأمل على مصراعيه أمامها ، ثم صفقه بشدة فى وجهها ..
إن زينب هى أكثر أعضاء الفريق التزاماً بتعاليمه واحتراما لأسلوبه فى الإدارة ..

قبل أزمة نادية كانت زينب تكاد تكون النموذج الذى يطلبه فكرى من البطل . لم يكن لها أى اهتمامات خارج دائرة اللعبة ، بعيدة تماماً عن الاستعراض أو عقد العلاقات الاجتماعية الواسعة أو الخاصة ، قليلة الاهتمام بمظهرها . شديدة الاهتمام بتدريبها ، وفوق ذلك لم يكن لها آمال عريضة فى الحياة كما كانت شيرين وكنت أنا ، نحلم بمستقبل فى الهندسة أو الأدب ..

كانت زينب تحلم بأن تكون بطلة سباحة ، وأن تعيش لتحقيق هذا الهدف ، وكانت تعلم أن الكابتن فكرى هو المدرب المناسب للوصول بها إليه . وهو الكفيل بأن يضع على جبينها أكاليل الغار فى كل سباق .

وحين انفجرت أزمة نادية ، كانت توافق على أفكارنا وخططنا بغير حماس . ولم تتهم الكابتن فكرى بشىء ، ولكنها كانت تردد أنها تحب حالة الصفاء فى الفريق ، لأن السلام يوفر المناخ الملائم لتحقيق الأهداف .

لم تصرح مرة برأيها فى من هو المخطىء ومن هو المصيب ، ولكنها كانت تستسلم لرأينا دون مناقشة ودون حماسة .

لماذا إذن لعب معها كابتن فكرى لعبة التبريد والتسخين ، والحياة بين الرجاء واليأس ..

هكذا أصبح موقفه من زينب هو موضوعنا الجديد الذى فرض نفسه علينا .

بعد موقفه من « زينب » احترنا فيه . وأصبح من الصعب علينا أن نقرر مع أى نوع من نماذج البشر نتعامل ونحن نواجه مدربنا الذى نحبه ونخشاه ونخضع له ونتمرد عليه .

كان موقفه من شيرين مفهوماً أيضاً . كانت قد تضامنت مع نادية وتمردت عليه . ورأيه فى علاقة البطل بالمدرب معروف ، وهو أن يكون ولاء البطل لمدربه قبل أن يكون لأى إنسان آخر ..

ولكن زينب .. ما ذنبها ؟ لم تكن قد خرجت على مبدأ ولا وصية ، ولم يكن موقفها معنا تمرداً ، ولكن خضوعا لرأى الجماعة ، ومحاولة لابعاد شبح التمزق عن الفريق ..

ظل هذا السؤال حائراً بيننا لا يجد إجابة شافية عليه ..

٧

وجاء الشتاء ..

اقتربت منى شيرين أكثر بحكم تزاملنا فى الثانوية العامة بمدرسة واحدة ، وحاجتنا إلى مزيد من الوقت والجهد فى الدراسة ، بحيث اقتصر تدريبنا على ثلاثة أيام فى الأسبوع ..

بينما تباعدت زينب وانكمشت على نفسها أكثر وأفرغت كل همومها فى التدريب العنيف ..

أما نادية فقد وزعت عواطفها علينا جميعا بالتساوى . كانت لها حياتها الخاصة ، وكان حماسها للعبة قد بدأ يفتر بالتدريج ..

وظلت ليلى على خطتها المرسومة ، تصل وحيدة ، وتمضى وحيدة ، وتتمتع بالرعاية الخاصة من الكابتن فكرى من لحظة وصولها حتى لحظة مغادرتها الحمام ..

أتاح لنا تلازمنا أنا وشيرين فرصة تقليب الأمور على جميع الوجوه . وكنا نشرك معنا نادية ، وأحيانا عبد الله فى زياراته الخاطفة أيام الأجازة . كان انخراطه فى السلك العسكرى قد أكسبه القدرة على الإيجاز فى الكلام ، وتحولت أحاديثه إلى مايشبه النشرة العسكرية .

كان يلخص رأيه فى أننا سلمنا مصائرنا لإنسان مريض وان اختلفت الآراء حول تشخيص عقدته ، وأن مكان المريض هو المستشفى قبل أن يستفحل الداء ، وتكون العواقب وخيمة ..

أنا وشيرين اختلفنا طويلا حول تفسير معضلات الفريق ..

فى يوم خرجنا من السينما بعد مشاهدة فيلم اسمه « مصدر النبع » . كانت قصة الفيلم فى رأيى هى قصة الكابتن فكرى والفريق . بينما ترددت شيرين طويلا فى موافقتى على رأيى ..

البطل كان طالب هندسة فقيرا ولكنه عبقرى . وكان له زميل صديق غنى جدا وغبى جداً ..

تدهورت الحال بالبطل ، ولم يستطع أن يكمل دراسته ، واشتغل عامل بناء ، بينما تخرج صديقه وانشأ مكتبا هندسيا ، وراجت أعمال مكتبه ..

تصادف أن كان صديق البطل يتفقد أعمال بناية يقوم المكتب بإنشائها فالتقى بصديقه القديم بين العمال ، واتفقا على لقاء ..

فى اللقاء قال المهندس للبطل : أنت عبقرى ، وأنا رائج فى السوق . ولأننى حصلت على المؤهل الذى يسمح لى بأعمال المعمار ، بينما حرمتك الظروف من ذلك رغم عبقريتك ، فإننى اقترح أن يكمل بعضننا بعضا . أنت بموهبتك ، وأنا بشرعيتى ورواجى فى السوق ..

اشترط البطل شرطاً واحداً هو أن ما يقوم بتصميمه من أعمال العمارة يتم تنفيذه بغير تعديل . وقبل صديقه بالشرط .

عملا معاً ، وراجت أعمال المكتب أكثر مائة مرة عما كانت عليه . كانت العمارة التى يقوم بتصميمها البطل ابداعاً جديداً غير مألوف ..

حصل المكتب على صفقة كبيرة هى بناء محكمة مركزية ، وقام البطل بتصميمها . غير أن اللجان الحكومية التى راجعت التصميم اصرت على إدخال تعديل طفيف على واجهة البناية ، وأخفى المهندس على البطل أمر هذا التعديل . أشرفت البناية على الانتهاء وأضاف المهندس التعديل فى آخر لحظة ، غير أن البطل يكتشف الخدعة ذات يوم ويحزم أمره وينسف البناية ، ويعترف ..

تأثرت جداً بقصة الفيلم واعتبرته حلاً للغز الذى حير عقولنا . إن موقف فكرى هو نفس موقف بطل الفيلم . هو مدرب خارق الموهبة وله عقيدة فى خلق الأبطال فإذا اختل تطبيق هذه العقيدة فإنه ينسف الذين خرجوا عن أصولها ..

كان رأى شيرين أن هذه النظرية لا تفسر موقف فكرى من زينب . فى أعماقى كانت هذه المسألة تزعزع يقينى بأن نظرية الفيلم هى النظرية التى تحل لغز فريقنا ومدربه ..

هل هو بيجماليون كما صورته لنا الأسطورة اليونانية القديمة ؟ .. الفنان الذى فقد الأمل فى أن يجد الكمال فى الواقع المحيط به ، وقرر أن يصنعه بيديه فى شكل امرأة ، وأحب تمثاله إلى درجة العبادة ، حتى أنعمت عليه الآلهة ببعث الروح فى تمثاله ، وتزوج المرأة التى صنعتها يداه حسب ما صورها خياله ؟

ولكن بيجماليون القديم صنع وأحب ما صنعه وتمتع بالمخلوقة التى خلقتها يداه ..

الكابتن فكرى غير ذلك إنه يصنع ويحطم . فلماذا صنع ولماذا يحطم ؟

هل الإجابة هى إجابة توفيق الحكيم فى روايته عن بيجماليون ؟

إن صورة بيجماليون كما قدمها توفيق الحكيم أقرب إلى فكرة الفيلم . لقد صنع بيجماليون تمثال المرأة التى يتمناها فلما دبت فيها الحياة اكتشف أنها خرجت على قواعد الكمال الذى عشقه فيها تمثالاً فاعادها تمثالاً وحطمها .

إن فكرى كان يسهر على صنعنا فى الصورة التى يعشقها ، ولكن الحياة كانت تجذبنا إليها ، وتبعد بنا عن الصورة التى خلقها هو . لهذا يحطمنا واحدة إثر أخرى .

ولكن كانت تظل قضية زينب لغزا بغير حل .

هكذا كانت تمضى بنا أيام الشتاء ، نذهب إلى النادى وهذا الحديث على ألسنتنا ، ونعود

منه والحديث مستمر ، وكنا ندرك أننا نعيش كابوساً أغرب ما فيه أنه يجذبنا إليه ، بينما المنطق كان يفرض أن نفر بجلدنا بعيداً عنه ..

وتلك قضية كنا نناقشها أيضاً ، ونستقر فى النهاية على جواب واحد .

كنا نؤمن إيمانا راسخا بأن فكرى صانع أبطال لا يضارع ، وكان للبطولة مذاق الشهد ، وكنا نتمثل بالحكمة القائلة « لابد دون الشهد من إبر النحل .. » .

كنا مثل الفراشات نحوم حول شعلة البطولة ونزعم لأنفسنا أننا نملك القدرة على الطيران فى اللحظة المناسبة ، قبل أن تلتهمنا النار ..

كانت فكرة الاعتزال فى الوقت المناسب تراودنا ، وكنا نترك الوقت المناسب للمقادير .. وحين كنا نصل فى حوارنا عند هذه النقطة كانت شيرين تداعبنى وهى تقول :

لماذا تحشرين نفسك . إن الكابتن فكرى لم يجرب معك أبداً خطة التدمير ..

وكنت أجيبها أننى انتظر دورى .

وجاء دورى ..

كانت علاقتى بكابتن فكرى قد بدأت بداية طيبة . كنت وأنا أتدرب فى فريق « عم أحمد » أتابع الكابتن فكرى بإعجاب يقرب حد التقديس ، وأتمنى أن يأتى اليوم الذى أنضم فيه إلى فريقه ، ،وحين أبدى بابتسامة تشجيع قبوله انضمامى إليه عدت يومها إلى البيت مجنونة بالفرح ، وأذكر أن والدى نبهنى بعد عامين من انضمامى إلى فريقه ، ولم أكن قد تجاوزت الثانية عشرة ، إلى أننى أردد اسم الكابتن أكثر مما ينبغى ، وأن هذا أمر لا يليق بفتاة ، حتى لو كانت فى مثل سنى !!

كان الكابتن يبدو لى عملاقاً بين الرجال ، وفلتة بين المدربين ، ورغم أن تعاليمه كانت تسبب لى بعض الضيق ، وخاصة ما اتصل منها بالحلىّ التى كنت أهوى التزين بها ، إلا أننى وطنت نفسى على الارتفاع بهذه التعاليم إلى مرتبة التقديس ..

كانت تعاليمه إذا ارتطمت بتعاليم أبى أو أمى ، نفذت تعاليمه هو ، وتحملت النتائج بصدر رحب . إلى أن كان يوم ، وطرح الكابتن فكرى فى أحد الاجتماعات مسألة القراءة .

كان رأيه أن الرياضى يجب أن يقرأ نوعين من الكتب : كتبه المدرسية إذا كان طالباً ، وكتبه الفنية إذا كان مهندساً أو طبيباً .. ثم الكتب التى تتعلق بالرياضة التى تخصص فيها ..

فيما عدا ذلك تصبح القراءة إهدارا للوقت ومضيعة للجهد .. يومها لم يشك أحد فى أن الكابتن فكرى يقصدنى . كنت قد بدأت أتردد على مكتبة النادى استعير الروايات التى تعجبنى ، وكنت قد بدأت أصطحب الكشكول .. الذى أسجل فيه خواطرى . محاولاتى الأولى فى الشعر والنثر ..

دافعت عن هوايتي . وقلت إنني أريد أن أكون أديبة حين يشتد عودي ، وأن أبي قد أوصاني بأن أقرأ كثيراً إذا كنت جادة في ذلك .

تندر الكابتن من طموحي المبكر ، وسخر من الشعر ، وقال إنه لا يليق إلا بأهل البادية .

ويومها أدركت بغريزتي أن الكابتن فكرى لم يعد يحبني .. تأزّم لأمر ما .. لم تستطع مداركي وقتها سبرغوره .

ثم توالت الأزمات الصغيرة . ولكن أبرزها كان تأزم الكابتن فكرى من علاقتي بالنادي الكبير .

لم يكن النادي الكبير قد أنشأ حمام السباحة حين أبديت رغبتي في الإنضمام إلى فريق النادي الصغير .

ولم أجد تعارضاً بين ممارستي لرياضتي المفضلة في النادي الصغير ومشاركة أهلي في حياة النادي الكبير الاجتماعية ..

ولكن الكابتن فكرى كان يجد في ذلك تعارضا لا سبيل إلى التوفيق فيه .. شيئاً فشيئاً بدأ يتحدث عني صراحة كعابرة سبيل في فريق النادي الصغير وأن ولائي ومصيري سيكون للنادي الكبير في النهاية ..

من حين إلى حين كان يجد الفرصة لتصويب سهم السخرية تجاه هذه المسألة .

في مباريات المنطقة لاحظ أن جمهور النادي الكبير يختصني بتشجيع حماسي ، ولم يترك الكابتن فكرى هذه المسألة تمر ببساطة ..

سألني حين عدت إلى مكاني بين أعضاء الفريق :

من هؤلاء الخنافس الثلاثون الذين تخصصوا في الهتاف لك ؟

قلت وأنا أضغط على أعصابي : لم يكن عندي وقت لإحصاء العدد وأعتقد أنهم أكثر ..

كانت هذه العقدة تحيرني ، وكان السؤال الذي لم أعثر له على جواب هو : لماذا يدفعني الكابتن فكرى دفعاً إلى خارج فريقه رغم أنني أصبحت بطلة تبشر بمستقبل مرموق في ميدان اللعبة ، ولماذا كان يخشى من علاقتي بالنادي الكبير ..

ولكنني كنت واعية بهذه المسألة وتجنبت أن تتحول إلى عقبة تعترض علاقتي الطيبة به ..

ولكن الحكاية التي راح كابتن كرى ينفخ فيها لتتحول إلى أزمة تشبه ما تعرّضت له ناديه كانت أزمة دفتر الفوازير .

هو عبارة عن كشكول فيه أسئلة تترك فراغاً للإجابة عليها .

يكون السؤال مثلاً : ما هي أول جملة تقولها العروس لعريسها ليلة الدخلة ؟

وتتنوع إجابات البنات على هذا السؤال في دفتر الفوازير ..

تقول واحدة : ابعد عني يامتوحش !!

وتقول الأخرى : عينيك حمرا كده ليه ؟ !

إلى آخر الإجابات التى يحاول أصحابها أن تكون طريفة ..

كنت أملك نسخة من دفتر الفوازير هذا حين فاجأنى الكابتن فكرى ، وأنا أمر به على حافة الحمام بعبارة أدركت توّا أنها مكتوبة فى دفترى .

كانت العبارة هى : المجتمع عقد وفيونكات ..

ذهلت من الذى أطلع الكابتن فكرى على شىء كنت حريصة تماماً على إخفائه عن عيون الكبار ..

زينب .. هكذا هجمت الإجابة كأنها صاعقة .

اختليت بشيرين وأطلعتها على القصة ، وسرعان ما وافقتنى على ظنونى ..

لقد تحولت زينب إلى جاسوسة علينا . ورحنا نضرب أخماساً فى أسداس ..

ترى إلى أى مدى وصلت زينب فى مهمتها الجديدة ؟

وهل علم الكابتن فكرى منها سر نادية .

وخرجنا بنتيجة مؤكدة وهى أن دورى فى العقاب قد أتى .. !

بدأنا نراقب زينب مراقبة دقيقة ، ولم يطل انتظارنا . كان الكابتن فكرى قد استجاب لرجاء زينب ومنحها تدريباً إضافياً . خصص لها حارة إلى جانب حارة ليلى ، وبدأت تتخلف فى الحمام بعد انتهاء تدريبنا المسائى ..

لاحظنا أيضاً أن الكابتن فكرى بدأ يوزع اهتمامه وكلمات التشجيع الحارة على حارتين جعلهما مركز رعايته الخاصة ، حارة زينب وحارة ليلى .. هكذا وقعت زينب فى الشبكة ..

رغم أننى كنت حائرة أتوقع نوع العقاب الذى سيختاره الكابتن لمعاقبتى ، إلا أننى كنت مشغولة القلب بنادية . كنت وشيرين نحاول أن نستكشف طبيعة مشاعر الكابتن من نادية لنعرف هل اكتشف سرها الجديد أم لا ؟

ولكن وجه كابتن فكرى لم يكن يعكس شيئاً يسهل لنا مهمتنا وكذلك كان وجه زينب الذى عادت إليه صلابته الثلجية حين كانت تلتقى بنا .

ودعتنا ليلى إلى حفل خطوبتها . كانت مفاجأة شغلتنا عن التساؤلات التى كنا نبحث لها عن أجوبة ..

أما زينب فلم تستطع أن تخفى فرحتها الطاغية باختفاء غريمتها . كذلك لم تسفر مراقبتنا لكابتن فكرى عن شىء يدل على أن ليلى كانت تحتل فى نفسه أكثر من اهتمام مدرب بشخص عليه توصية ..

قالت شيرين مرة : لقد كانت مقاولة خاصة التقطها كابتن فكرى وانتهى منها .

وأصبح واضحاً لكل أعضاء الفريق أن زينب قد احتلت موضع الصدارة فى اهتمام الكابتن ورعايته .

ولم تمض أيام على اختفاء ليلى حتى حدث ما توقعناه ..

اثناء تدريب المساء . وبينما كنت أنا وشيرين ونادية نتجه إلى غرفة خلع الملابس قال الكابتن موجها حديثه لنادية ، وفى عينيه نظرة ساخرة : تحياتى إلى الكابتن عبد الله !! إلا يسمحون له باجازات ؟!

لم تجب نادية ، أسرعت منفعلة ، ولحقنا بها ، وفى غرفة خلع الملابس انفجرت باكية ..

فى ذلك المساء صحبنا نادية إلى بيتها .. ولم نستطع رغم كل ما بذلناه من جهد أن نثنيها عن قرارها الأخير :.

لا عودة إلى الحمام طالما كان كابتن فكرى موجوداً ..

فارقتنى شيرين عند باب بيتها ، وكان فى قلب كل منا مرارة وإحساس غريب بالضياع ..

واستقبل كابتن فكرى غياب نادية بلا مبالاة ، وبدأت اجتماعات الفريق تتباعد ، وأغرقت همى فى حالة من التفانى موزعة بين المدرسة وحمام السباحة ، وكذلك صنعت شيرين . ومضت الأيام تقترب بنا من سباقات الشتاء .

كانت شيرين قد استعادت بسرعة إرادتها الحديدية ، وألغت من حياتها كل شىء ماعدا المدرسة والحمام . لم يكن سهلاً أن تتخلى عن موقعها وهى ترى زينب تتقدم تحت رعاية خاصة من الكابتن فكرى . أما أنا فقد نفعتنى ثقتى بشعار « اللعب للعب » . كنت أبذل قصارى جهدى فى التدريب ، ثم أنسى الحمام وأتفرغ لدراستى ..

لم تعد تخيفنى ضربة الكابتن فكرى القادمة تلك الضربة التى كانت من نصيبى حسب تفسير شيرين لسير الأمور ..

ملأنى إحساسى بأننى أستطيع أن أرد الضربة وأمضى إلى هدف جديد ..

دخلنا مسابقات الشتاء ، وانتصرت زينب على شيرين .

انتصرت ، ولم تنتصر فقد كان الفارق بينهما لمسة يد ..

أما أنا فقد حافظت على رقمى القديم ..

كان كابتن فكرى كعادته فى مثل هذه المناسبات يشيع المرح ويوزع التهانى ، ولكنه هذه المرة أضاف جديداً ..

فى آخر يوم من أيام السباق عدنا إلى النادى بصحبة الكابتن ودعانا إلى جلسة فى الصالون الشتوى بالنادى ..

كان رقيقاً ذلك المساء ، مرحاً كما لم نره من قبل ..

بعد لحظة صمت قال : سمعتمونى أكثر من مرة أتمنى أن أعيش وأموت على ظهر الحمام . الحقيقة أننى كنت أخفى جزءاً من الأمنية وهو أن أحتفل بزواجى على ظهر الحمام ..

أنتم مدعوون بعد غد إلى حفل خطوبة ..

توقف قليلاً . تطلع إلى وجوهنا واحداً ، واحداً ، ثم ابتسم وهو يكمل حديثه :

ــ جعلنا زيتنا فى دقيقنا . خطبت زينب !!

كل الوجوه اتجهت إلى زينب .

لأول مرة نرى ملامح الخجل على ذلك الوجه الجليدى ، ومسحة من ابتسامة فاترة .

٨

ليس من طبيعة النوادى أن تثور زوابعها فى الفناجين . هكذا تحول خبر خطوبة زينب للكابتن فكرى إلى زوبعة هائلة فى نوادى القاهرة .

كما ينفعل الأطفال حين يشاهدون حدأة تخطف كتكوتاً ، وتطير مودّعة بصرخاتهم وحجارتهم ، كذلك استقبلت النوادى هذا النبأ بإعلان السخط والرفض والثورة ..

بالطبع لم يكن فارق السن هو السبب . صحيح أن الكابتن فكرى أكبر من خطيبته بعشرين عاماً ، إلا أن حالات الزواج مع فارق السن الكبير ، كانت ظاهرة عادية فى مجتمع النوادى . تمضى بدون التفات ..

السبب الحقيقى للزوبعة كان سبباً طبقياً ..

كانت الطبقة الوسطى المتيسرة تمنح الكابتن فكرى حقه من الاحترام والتقدير والإعجاب به كمدرب . ولكنه من وجهة نظرها كان مجرد مستخدم . له مهمة محددة هى تدريب أبنائها وبناتها على السباحة ، والدخول بهم فى سباقات والحصول لهم على بطولات . فى هذه الحدود أهلاً وسهلاً ومع الشكر والتقدير .

ولكن الكابتن فكرى خرج عن مهام وظيفته . وخطف إحدى بنات الطبقة . وهو ابن الحضيض الاجتماعى ، الذى لا يحتكم إلا على شهادة الابتدائية « القديمة » وما زال يعيش فى حارة من حوارى المغربلين ..

لقد تسلل من صفوف الحرافيش إلى غرف نوم بنات الناس !!

إن من حق الناس أن تعلو ، ولكن ليس على حساب الطبقات الأخرى .

وكان مجتمع النوادى يغفر للكابتن فكرى أنه يتعالى ، ويلقى بالمواعظ ، وينتقد سلوك أبنائه وبناته . غير أن الكابتن تطاول وخطف الثمرة المحرمة ..

وتعرضنا نحن أبناء وبنات فريق النادى الصغير إلى هجمة ضارية من مجتمع النوادى وخضعنا لما يشبه الإستجواب عما حدث .. أمطرونا بالأسئلة :

- ما هى المقدمات التى أدت إلى الجريمة ؟
- ألم تلاحظوا شواهد سابقة عليها ؟ وما هو رأى زينب ؟
- هل من المحتمل أن تكون العلاقة غير أخلاقية ؟
- هل من المحتمل أن يكون إعلان الخطبة هو ستر فضيحة ؟ وإلا فما الذى أجبر زينب على قبول هذه الخطيئة الاجتماعية ؟ هل ستستمرون فى هذا الفريق ؟

كنا ندافع عن أنفسنا مؤكدين أننا فوجئنا كما فوجىء الجميع .

أما نصيب الكابتن فكرى من الزوبعة فكان هائلاً .

كان يتحرك فى النادى كأنه يمشى فى حقل ألغام . ويوزع تحيات لا رد عليها . وابتسامات تقابلها وجوه كالحة ..

أما زينب فكانت كأنها خارجة من غرفة التخدير . ترسم على شفتيها ابتسامة بلهاء .

بصعوبة انتزع كابتن فكرى موافقة إدارة النادى على إقامة حفل متواضع على ظهر الحمام ، ضم أسرته وأسرة زينب وبعض فتيان الفريق .

اعتذرت أنا وشيرين بحجة اقتراب موعد امتحان الثانوية العامة . كانت كذبتنا مكشوفة . ولكن زينب لم تعلق بشىء .

ولم تهدأ الزوبعة بسرعة على غير عادة الزوابع فى مجتمع النوادى ..

كنا كل يوم نسمع تعليقاً جديداً ، يثير الضحك أو يثير الرثاء ..

فى صباح أحد أيام الجمعة ، وكنا قد انتهينا من التدريب ، سمع أعضاء الفريق كله والكابتن فكرى فى المقدمة ، صوتاً جهورياً لسيدة تتوسط مائدة قريبة كانت تقول :

ـ حكاية خطوبة هذه البنت تشبه دخول سباك إلى البيت كى يصلح حنفية . وأثناء العمل ترك كل شىء ، واتجه إلى حجرة المعيشة ، وجلس وسط الزوجة والبنات ، وطلب من إحداهن أن تأتيه بكوب ماء بارد ، ومن الأخرى كوب شاى مضبوط ، ومن الثالثة أن تعد له حماماً دافئاً .. ومن الزوجة أن ترخى ستائر غرفة النوم ..!!

كنا جميعاً نتوقع شيئاً لا مفر من وقوعه . فقد كانت ثورة مجتمع النوادى عارمة . ولم يكن من المعقول أن تمر الزوبعة دون أن تقتلع جذراً من الجذور : قد يكون الكابتن فكرى . قد تكون زينب أو هما معاً ، وقد تكون الضربة أكبر من هذا وذاك .

أحسسنا أن فريقنا أصبح فى مهب الرياح .

كان علينا أنا وشيرين بالذات ضغط من مجتمع النادى حتى نحاول إقناع زينب بمراجعة نفسها . ولكننا قررنا ألا نتدخل ولتكن النتائج ما تكون ..

كانت الامتحانات على الأبواب وتضاءلت علاقتنا بالنادى وانشغلنا عن الكابتن فكرى وزينب ، وحتى عن نادية . كنا نزورها على فترات متباعدة ، من حين إلى حين .. فى لحظات الراحة المختلسة كنت أنا وشيرين نثرثر حول مفاجأة الموسم .. خطوبة فكرى وزينب ..

كان رأينا قد استقر على تصور واحد ، هو أن الكابتن رسم لزينب خطة محكمة هى تسخينها وتبريدها حول أمل البطولة .. وأضاف ـ بالصدفة أو القصد ـ عامل الغيرة ـ حين دخلت ليلى فى حياة الفريق ، واختصها برعايته الخاصة ..

وفى لحظة ارتباك .. دخلت زينب شبكة الصياد ولم تخرج !!

٩

انقطعنا عن النادى قبل بدء الامتحانات بشهر ، كنا نتسقط أخباره . ونكتشف على البعد أن الحياة الطبيعية عادت إلى ظهر الحمام كما كانت .

كانت كل مجموعة تنتهى امتحاناتها تعود بشوق إلى الماء وتنسى ما عداه ..

عاد الصغار فى البداية ، وانتظموا فى التدريب ، ثم عاد طلبة وطالبات المرحلة الثانوية ما عدا الذين يتهيئون لامتحان الثانوية العامة .

وانشغل الكبار فى امتحانات الصغار .. هكذا أفلت الكابتن فكرى من العقاب ..

ج سليماً بغنيمته ومركزه فى النادى . وعادت إليه زينب مبكراً بعد أداء امتحانها ، فقد كنا نسبقها بعام .

هكذا كانت الأخبار تملأ قلوبنا شوقاً إلى العودة ..

وعندما انتهت الامتحانات ، كنا كمن خرج من بيات شتوى طويل نتشمم على البعد رائحة الماء . نسينا الكابتن وعقدته ، وزينب وحكايتها ، ونادية ومأساتها . وسيطر علينا شعور واحد هو أننا بنات الماء وإليه نعود ..

كنا قد سمعنا فى زحمة الامتحانات أن النوادى قد بدأت بالفعل بعض اللقاءات الودية استعدادا لبطولة المنطقة فى أغسطس .. وأن الكابتن فكرى قد ألقى بكل حيويته خلال الاستعداد لهذه اللقاءات ، وأدركنا أنه يواجه الحصار من حوله بخطة منظمة للإفلات ، بعقد العلاقات ، وإذابة الجليد الذى أحاط به بعد إعلان الخطوبة ..

كان التوقيت الذى اختاره كابتن فكرى لإعلان الخطوبة مدروساً .

أعلنها عقب نتائج البطولات ، ومجتمع النوادى فى قمة الانفعال . وقبل الامتحانات ومجتمع النوادى مشدود إلى نتائجها .

هكذا حين دخلت النادى أنا وشيرين ذات صباح ، وقد فقدنا جانباً من وزننا نتيجة السهر والإرهاق ، رأينا كل شىء على ما هو عليه .

الحديقة الواسعة كالبساط الأخضر بزهورها المتنوعة الألوان والموائد ذات المظلات المزركشة وصخب الأطفال وحركتهم المنطلقة . والزحام الذى يشهده أول كل صيف سطح حمام السباحة الدافىء ..

كان الكابتن فكرى هناك بقامته المشوقة .. يزحف بقدميه فى مشيته المميزة ، ويلقى بتعليماته إلى جيشه الصغير .. كذلك كانت زينب هناك .

وقفنا لحظات قبل أن ننزل إلى غرفة خلع الملابس نستقبل الترحيب الحار الذى فاجأنا به الكابتن فكرى ، والابتسامة التى زايلها الشعور بالذنب التى استقبلتنا بها زينب ..

واكتشفنا أنها تحولت بالفعل إلى مساعدة له على ظهر الحمام . ثنائى يتقاسم العمل فى تفاهم . وتكشف الحركات أنهما قد استقرا على صورة المستقبل وهى بالتحديد حلم الكابتن فكرى . أن يعيش حياته بالطول والعرض على ظهر الحمام .

لقد استخرج كابتن فكرى من الماء كل شىء يتمناه . حقق ذاته واندمج فى طبقة تمنى أن يلتحق بها ، واستخرج منه عروسه ، وبه فك الحصار الذى ضربه المجتمع من حوله ..

كل شىء عاد هادئاً . مرت الأزمة واستقبل الناس الصيف بما اعتادوا عليه كل عام ..

أثار هذا الهدوء فى نفوس أعضاء الفريق تساؤلاً راح ينتقل من لسان إلى لسان .

هل ما زال كابتن فكرى على موقفه من مسألة نادية ؟

كل الدلائل تشير إلى أن الخطبة سبقتها حالة « إعجاب » بين الكابتن وزينب .

وصحيح أنهما استطاعا اخفاء مظاهرها بإحكام ، ولكنها بالقطع كانت حالة قائمة . بل لقد وصل الأمر إلى درجة أن مجتمع النوادى حاول أن يفحص ما إذا كانت مرحلة الإعجاب قد مرت على خير أم أن الخطبة كانت غطاء لورطة .

كان المنطق يقول أن نادية يجب أن تعود ..

كان كابتن فكرى قد توقف نهائياً عن التعريض بالعلاقات بين الشبان والبنات ، وانصرفت تعليماته وتعليقاته إلى مسائل أخرى تتعلق بالصحة العامة ، ووقت الفراغ ، والثياب الملائمة للرياضيين . ساعد هذا التحول على تضخم موضوع نادية فى رؤوسنا ، ولكن المشكلة أن نادية نفسها كانت قد فقدت اهتمامها بالسباحة .. وصرفت همها إلى دراستها حتى تنال الدبلوم ، وتعلن خطوبتها لعبد الله ..

كان هذا هو أملها فى تلك الأيام . أن تنتهى هى من الدبلوم ويستقر عبد الله فى موقع قريب من القاهرة ويبدءا معاً حياة جديدة ..

وكنا نلتقى بعبد الله من حين إلى حين فى بيت نادية . كانت الشمس قد لوحت لونه فازداد سمرة . وكانت تعليقاته على خطوبة زينب لكابتن فكرى لا تنتهى . مرة يجعلها مادة للمرح ومرة مادة للنصيحة ..

كان يقول إن تسلق الأسوار بين الطبقات هو أحد مصادر الأمراض الاجتماعية . وكان يعتبر الكابتن فكرى نموذجاً لمتسلقى الأسوار .. وكان يتوقع أن طموح فكرى الاجتماعى لن يقف عند حدود النادى الصغير . وأن علاقته بزينب ليست علاقة حب ولكنها علاقة انتهازية . وأن زينب ليست أكثر من زانة قفز يعتمد عليها الكابتن فى الوصول إلى شرفة عالية بعمارة البرجوازية ..

الغريب أننا كنا نشتبك فى مناقشات مع عبد الله حول قضية الكابتن فكرى ، بينما نادية تخلد إلى الصمت كأنها قطعت ما بينها وبين هذا المكان .

ولم يكن ذلك مصدر سعادة لنا . كنا نستشعر فى خلودها إلى الصمت نوعاً من الأسى .



الفصل الخامس

١

وقعت الحرب ...

كانت حوادث نادينا الصغير قد جذبتنا إلى عزلة عن حياة الوطن الكبير ..

كان زملاؤنا وزميلاتنا أثناء الدراسة يخرجون فى مظاهرات تطالب بالحرب .

ونبحث نحن عن أول فرصة للانفصال عن المظاهرات ، والاسراع إلى النادى واللعب فى الماء .

كان لكل منا منطقه الخاص الذى يبرر به موقفه السلبى من السياسة .. وأغلبنا كان يحيل كل شىء على رأس نكسة ١٩٦٧ .. ويستشعر خدرا فى الضمير يساعده على الانفصال عن القضايا الوطنية ..

وكان مجتمع الكبار يساعدنا على ذلك .. فقد ارتفعت نغمة انتقاد الثورة فى مجتمع النوادى إلى أقصى الحدود .. لذلك كانت الحرب مفاجأة لنا .

تحركت فينا مشاعر جديدة . تذكرنا زملاءنا من فريق النادى الذين اعتزلوا السباحة والتحقوا بالكلية الحربية وأصبحوا ضباطا .

ترى أين هم الآن فى خضم الأحداث ؟

كنا نتمنى لو صنعنا شيئاً مفيدا لبلدنا كما هو حال مئات الألوف من الشباب والفتيات .. ولكننا لم نكن نعرف ماذا نصنع لنلحق بهذا الفيضان الكبير الذى كان يتدفق من حولنا .

كان كابتن فكرى يتصرف على أساس أن كل ما هو خارج الحمام .. لا يهم الفريق . وهكذا تمسك بالنظام أكثر .. وتعمد أن يكون تدريبنا عنيفا طويلا مرهقا .. ورفض بتصميم أن تقتحم وقائع الحرب حدود مملكته ولو بالكلام .. حتى هبطت علينا نادية فجأة .

كانت قد انقطت شهورا عن النادى . أسرعنا إليها وسألناها عن عبد الله ..

قالت إنه بخير واستطردت .

إن مكاننا ليس الحمام ولكن أى موقع يخدم المعركة . هذا ما فكرت فيه ، ووجدت نفسى أسرع اليكم ؟.

كانت كأنها فتحت بابا لانفعالات حبيسة فى نفوسنا . كنا بالفعل نريد أن نصنع شيئاً ، ولكننا كنا فى حيرة من أمرنا .

قالت شيرين : نسأل فى الهلال الأحمر .

وأجابت نادية : إن منظمة الشباب تشرف على هذه الأمور .

المهم أولا أن نتطوع . وسوف يحددون لنا مواقعنا ..

قلت : شرط أن نكون معا ..

كانت زينب قد سلمت على نادية وانصرفت . ولست أدرى ما الذى دعانى إلى أن ألحق بها ، وأفاتحها فى القرار الذى اتخذناه .

استمعت باهتمام ، ثم قالت : أنا مقتنعة وسأسأل فكرى أولا . وسأحاول بكل وسيلة أن أقنعه ..

وقفت مع نادية وشيرين ننتظر الجواب . كنت متفائلة على العكس من رأيهما ..

نتطلع بين الحين والحين نحو زينب والكابتن وهما يتحاوران من بعيد . وتدل حركاتهما على الانهماك فى خلاف شديد . لحظة سكون ، بعدها أقبلت زينب وهى تكاد تعدو وقالت بإيجاز :

سنمضى معا ..

صحبتنا نادية إلى مقر منظمة الشباب بالزمالك ، ووجدنا أنفسنا داخل خلية نحل تتفجر بالحماسة .

كانت نادية هى التى تتصرف . أما نحن فكان كل همنا هو أن نكون معا فى الموقع الذى يحددونه لنا ..

اكتشفنا أن نادية معروفة فى المكان ، وأدهشنا عدد الفتيان والفتيات الذين كانوا يملأون مقر المنظمة بالحركة والحيوية ..

أمام المسئول عن توزيع الشباب على أنشطة خدمة المعركة اخترنا التمريض . وتسلمنا بطاقات لنتقدم بها إلى إدارة المستشفى التى سيتم تدريبنا بها .

كانت مستشفى أم المصريين بالجيزة ..

بعد يومين كنا أمام باب المستشفى ، وكان هناك عدد كبير من الفتيات والفتيان جاءوا لنفس الهدف ، ممتلئين حماسة ونشوة .

باستثناء نادية . كنت أنا وزينب وشيرين ، ننتقل من حالة الحماسة إلى حالة أقرب إلى الذهول .

كانت هذه أول مرة نواجه فيها المواطنين الفقراء .. مرضى جاءوا يبحثون عن العلاج .

أغلبهم فلاحون أتوا من القرى البعيدة مرهقين منهكين تحت وطأة المرض والحاجة ، ومتاعب مواصلات الريف . غير أن عيونهم الحزينة كانت غير يائسة . كان فى أغوار عيونهم حزن عميق لا ينعكس على عباراتهم التى غالبا ما كانت تتخذ شكل السؤال . والسؤال يدور حول المرض والشفاء وثمن الدواء . كانوا لا يملون من توجيه الاسئلة ، ولم نكن نفهم السبب . كانوا يسألون كذلك عن احتمال احتجازهم بالمستشفى . وكان واضحا أنهم

يخافون من هذا الاحتمال .

روعنا مشهد أكوام الزبالة التى كانت تشكل سورا ثانيا حول سور المستشفى ، وتجذب إليها أسرابا لا تفنى من الذباب والبعوض . وبدت لى المستشفى قلعة تواجه غزوا من حاملات المرض التى تستميت دفاعا عن البقاء .

علمنا من الإدارة أننا سنتلقى محاضرات فى الاسعاف السريع ، ثم دروسا عملية فى قسم الجراحة وقسم العظام .

سرعان ما اختلطنا بالأطباء والممرضات والمرضى . واكتشفنا أننا كنا فى عالم آخر غير العالم الذى يعيشه شعبنا .

الوحيدة التى كانت بعيدة عن الصدمة هى نادية . أما نحن فكان كل ما نراه يشبه الصدمات الكهربائية المتوالية لعقولنا ..

فى قسم العظام لاحظنا أن الطبيب يكتب نفس الدواء لكل مرضاه الذين كانوا يعودون إليه من صيدلية المستشفى بحبوب بيضاء ملفوفة فى شريط من النايلون ، ليتأكدوا مرة ثانية من أنها الحبوب الصحيحة ، وليستمعوا مرة أخرى إلى طريقة استعمالها .

كان الدواء هو أقراص الاسبرين . وسألت شيرين الطبيب عن الحكمة فى صرف هذا الدواء الموحد لجميع المرضى . وأجاب الطبيب أنه لا يملك غيره ، لأن صيدلية المستشفى ليس بها أدوية لمرضى العظام ، وأنه إذا كتب اسم الدواء للمريض ليشتريه من الخارج ، فلن يقدر على ذلك بسبب الفقر . وإذا صرفه بغير دواء فسوف يتأزم . لهذا فهو يصرف له مسكنا وحالة نفسية طيبة !!

كانت قلوبنا تتقطع ونحن نرى عجائز الفلاحات بجلابيبهن السوداء وهن يرفعن عقيرتهن بالدعاء للطبيب على أقراص مسكنة وخدعة نفسية ليس أكثر ..

فى كل ركن كنا نقع على مأساة حقيقية ..

قالت لنا نادية ذات مساء ونحن فى طريق العودة إلى البيت أن شعبنا يواجه قوى معادية هائلة بامكانات مادية محدودة ، وهو يتحايل على تلفيق حياته يوما بيوم ، كما شرح لنا طبيب العظام . ولكن ستأتى حتما الأيام الجميلة ..

خلال أسبوعين قضيناهما فى مستشفى أم المصريين التقينا بمئات من رجال ونساء فقراء يتمسكون بالحياة حتى آخر رمق ، ويتتبعون أخبار المعارك وهم يئنون تحت وطأة آلامهم ، ويلخصون حياتهم فى كلمات ، ويسألون عن الحقيقة فى عيوننا : هل سيبرأون من أمراضهم حقا كما يقول الطبيب ؟!

ودائماً كانوا يدعون لنا من قلوبهم بحرارة ، على مجرد كلمات تطمئنهم ، ويتمنون لنا الصحة .

لم يكن الشعب هو ما رأيناه فى التليفزيون ، والأفلام والروايات وحلقات الإذاعة ..

تضاءلت قيمة يوسف السباعى وإحسان عبد القدوس ونزار قبانى ، وكنا نرتفع بهم إلى مكانة التقديس .

لقد أخفوا عنا الحقيقة . وحين اكتشفناها كانت كالفأس فى الرأس ..

غير أن أنباء المعارك كانت تمسح بعض أحزاننا ، وفى آخر أيام التدريب وجدنا أنفسنا بين مائة شاب وفتاة نغادر مستشفى أم المصريين فى زحام من الفقراء ننشد أغنيات عبد الحليم القصيرة :

خلى السلاح صاحى

ياجمال ياحبيب الملايين .. ياجمال

ماشيين فى طريقك مش ناسيين

ياجمال .. ياحبيب الملايين ..

٢

انتقلنا للعمل بمستشفى قصر العينى فى قسم العظام . التقينا صباح ذهابنا إلى عملنا الجديد أمام محل زهور عند أول كوبرى الجامعة . كان فى يد كل منا حقيبة صغيرة تحتوى على رداء الممرضات الأبيض . عبرنا كوبرى الجامعة إلى قصر العينى الجديد ، وبنا إحساس قوى بذواتنا ..

تجاذبنا الحديث حول هذا الاحساس الذى شملنا جميعا ، وجعلنا نشعر أننا لأول مرة نؤدى عملا محددا ومفيدا ومرتبطا بمصير الآخرين .

كانت زينب أكثرنا حماسة ، وحين سألتها شيرين عن أخبار كابتن فكرى أجابت بهزة من كتفيها ..

كان عدد المصابين كبيرا وخاصة فى قسم العظام .

وعلمنا أنهم يمرون على مستشفى ميدانى أولا ، ثم يرحلون إلى مستشفيات القاهرة .

بين الكسر الخفيف والبتر كانت حالات الجنود فى قسمنا تتنوع .

وسرعان ما اكتشفنا أن بين نزلاء قسم العظام عددا من الجنود الذين شاركوا فى أول طلعة عبور ..

كانوا رغم آلامهم يعكسون صورة الحرب بأدق التفاصيل .

كان الجريح منهم ما أن يثوب إلى رشده حتى يتحدث عن الحرب ، كأن الحرب أنستهم كل شيء عداها .

لكل منهم طريقته فى الحكاية ، غير أنهم جميعا كانوا رواة بالفطرة يملكون القدرة على جذب الانتباه وتعليق الأنفاس ، واختراق الدراما بالفكاهة المفاجئة ، والجمع بين المأساة والملهاة فى نسيج واحد .

تحدثوا عن مرحلة اعادة بناء القوات المسلحة . والأيام القاسية عقب هزيمة ١٩٦٧ التى صدرت خلالها أوامر وقف إطلاق النار مهما كانت استفزازت العدو على الضفة الأخرى من القناة . تحدثوا عن بنات صهيون وهن يتحدين مشاعر المصريين بالسباحة فى قناة السويس وعن التراشق بالألفاظ الموجعة بينهم وبين جنود العدو بدلا من التراشق بالنيران على طول مجرى القناة . وعن الحماس الذى ارتفع بهم إلى عنان السماء مع بدء حرب الاستنزاف . ورسموا بمهارة صور الأبطال الذين خلقتهم تلك الأيام ..

كانت الحكاية تبدأ من سرير فى ركن العنبر ، وتتحول إلى حلقات عبر الأسرة . فقد كان لكل جريح اضافة . إلى أن تنتهى الحكاية فى الركن الآخر من العنبر ، سواء كانت النهاية

ضحكة أو آهة حسرة على شهيد .

كانت الحرب قد ألفت بين قلوبهم . وسرعان ما وجدنا أنفسنا جزءا من الحياة اليومية لهؤلاء الجنود ، نعرف حياتهم من الطفولة إلى الشباب . من أين جاءوا وإلى أين يحلمون بالعودة ، ومن هم أهلهم ، وأصدقاؤهم وأقرب الناس إليهم ..

تحولت عنابر جرحى العظام بعد أيام قليلة إلى غرف عمليات حربية تحلل البيانات العسكرية ، وتطرح الخطط والخطط البديلة ، والتوقعات سواء بالنسبة لحركة العدو أو حركة المصريين .

رفع الجنود رتبهم العسكرية ، وقاموا بترقية أنفسهم وزملائهم إلى جنرالات وفيلد مارشالات . وكان علينا أن نصغى إلى كل ذلك ، ونظهر الاقتناع التام ، فهؤلاء فى نهاية الأمر هم أصحاب الشأن والاختصاص . لقد تركوا فى أرض المعركة بعض أطرافهم وقطعا من لحمهم وعظمهم فلا أقل من أن يقولوا فى المعركة كلمتهم ..

وأحيانا تنشب بينهم معارك كلامية أقرب إلى المباريات فى استعراض « علمهم العسكرى » .

يسأل واحد : هل كنت تعلم بموعد العبور قبل اعلان ساعة الصفر ؟ ويرد الآخر ..

- بكل تأكيد .

ويتدخل ثالث : أصل الدفعة كان فى قيادة الأركان !!!

ويضحك العنبر . ولكن الحقيقة أنهم كانوا يعلمون باقتراب ساعة الصفر . كانت هذه القضية مجال جدل كبير بينهم ، يسوقون الشواهد التى كانت تشير إلى اقتراب العبور ، ونحس من خلال حكايتهم أن العبور كان بالنسبة إلى الألوف المؤلفة من الجنود والضباط هدف حياة يتنبأون به ، ويتحسسون الدلائل التى تنبىء بقربه ، ويتراهنون على اليوم الميمون الذى ستقع به ساعة الصفر .

كلمة العبور ، تحولت على ألسنة هؤلاء الجنود إلى ترنيمة ، وحلية جميلة ترصع كل عبارة ..

نجحوا فى تحويل العبور إلى كائن حى ، له بداية ونهاية وتاريخ حياة ، بل شىء أقرب إلى أنصاف الآلهة التى تدور من حولها الأساطير .

أحسسنا إلى جوار هؤلاء الجنود أننا كنا فى عالم آخر غير حقيقى .. بدأ يغيب فى الظلام ويهرب منا دون أن نبذل أى مجهود للإمساك به ..

وشيئا فشيئا احسسنا بأن بيننا وبين هؤلاء الجنود الجرحى شيئا مشتركا .

كان معظمهم من الجنود الاحتياط الذين تم استدعاؤهم للخدمة ، وطالت سنوات خدمتهم بحكم ظروف القتال . كانوا يتحدثون عن انفصالهم التدريجى عن الحياة

المدنية ، والتحامهم بالرمال الصفراء والرداء الكاكى ومفردات الخدمة العسكرية .

استطاعت الحرب أن تكسبهم إلى صفها وتنسيهم أحلام حياتهم العادية وتستبدل بها أحلاما أخرى كان أروعها حلم العبور .

وكنا نحن نستشعر أننا نمر بمرحلة شبيهة بما حدث لهم . كانت الحرب تكسبنا أيضاً إلى صفها وتنسينا حياتنا الأولى . وتصنع لنا أحلاما جديدة كانت تصوغها عبارات الجنود الجرحى من حولنا ، مثل تحطيم دولة إسرائيل ، وتحرير الأرض ، وخلق حياة يرفرف عليها السلام .

كان أحدهم يصيح أحيانا ياسلام على الصبر !

وكانت هذه الصيحة هى اشارة البدء أو ساعة الصفر للحديث عن الحرب ..

كانوا قد خبروا الصبر وعجم الصبر عودهم ، وكانت له معهم قصة طالت ست سنوات ، بين حرب يونيو وحرب أكتوبر .

ثم انتقلت حكاية الصبر معهم إلى المستشفى .

تحدثوا عن الصبر كسلاح وتكنولوچيا لا يجيدها إلا المصريون . به واجهوا الساعات البطيئة لسنوات ما قبل العبور فى ملاجىء تحت الأرض . وبه واجهوا أخبار ثغرة الدفرسوار حين تناهت إلى اسماعهم وأخبار حصار مدينة السويس وجيشهم الثالث .

كانت جراحهم قد وقفت بهم عند الأيام الأولى من الحرب . وكان هذا هو أقسى شعور يعانون منه ، فكانوا يخففون من هذا الاحساس بالحديث عن الحرب ، وتخيل المعارك الدائرة ورسم الخطط القادمة ..

فى الصباح كانوا يلتهمون سطور الصحف وكانوا يحتضنون أجهزة الترانزيستور كما يحتضنون شخصا عزيزا عليهم ، واذانهم معلقة بأخبار القتال .

غير أن أمتع أحاديثهم كان حين يتحدثون عن خط بارليف لحظة اقتحامهم له ، واكتشافهم لخباياه .

كان من الخارج قلعة لا تقهر ، ومن الداخل فندقا من فنادق الدرجة الأولى

- ولا الهيلتون ياجدع !

هكذا قال أحدهم وهو يبدأ الحديث عن الترف الذى كان يعيش فيه جنود العدو داخل خط بارليف : وسائل الراحة والغذاء اللذيذ والبيرة بالذات ، علب البيرة التى كانت تجل عن الحصر .

كانوا يقارنون بين حياتهم الخشنة ومعلبات « قها » وبين ما كانت تمتلىء به مخازن خط بارليف التى اغتنموها ، مجرد اقتحامهم لحصونه .

بينهم قضينا كل ساعات النهار حتى موعد الأفطار . واتاح لنا طول البقاء بينهم أن نعرف عنهم الكثير ..

ملك المرح فى العنبر صعيدى من قنا فى نحو الثانية والعشرين نحيف ، خفيف مثل الريشة دقيق الملامح . بدونه كان من الممكن أن يتسلل الملل إلى النزلاء . فقد ذراعه اليسرى فى الحرب ومع ذلك فقد كان محمود حسنين يبدو وكأنه نسى حكاية ذراعه ، يتصرف كأنه وُلد بذراع واحدة .

وفى يوم دخل إلى العنبر رجل فى الخمسين من عمره ، بصحبته شابان الرجل أبوه والشابان شقيقاه .

عانقهم محمود بفرح ، وبعد أن استقربهم المقام على حافة سرير محمود بادره والده قائلا :

— لا تحزن ياولدى على فقد ذراعك وكن رجلا .

قال محمود مستنكرا :

أحزن !! لماذا ؟ وهل كنت ياأبى أكلتها ؟!

كان التعبير جديدا علينا ، وحلقت عبارة محمود فى طول العنبر وعرضه كأنها شىء مجسم وترقرقت دموع فى عينى ممرضة كانت تحقن زميلا فى السرير المجاور لسرير محمود .

تعلقت عيناى بوجه الأب . كانت شفته السفلى متوترة . ترتعش بكتمان الألم . ثم مد ذراعيه وعانق ولده .

كانت العبارة تليق بمحمود عامل البناء البسيط الذى ارتبط بصلصال النيل واعتبر جسده جزءا من هذا الصلصال يسترده الوطن كله أو بعضه حين تقتضى الضرورة ذلك .

كان فى العبارة لمسة من مرح محمود الطبيعى وسخريته وحياته الجادة البسيطة الممزوجة بروح المصريين المرحة .

ومن اليوم الأول لوصولنا إلى قسم العظام فرض أحمد منصور حمايته علينا . وقف شاكى السلاح ليرد عنا أى مداعبات يراها خارجة على الحدود . اعتبرنا من حريمه وتحت مسئوليته .. هو مهندس زراعى من المنصورة مليح التقاطيع له قوام الرياضيين ، قليل الكلام ، كثير التدخين ، كسرت ساقه اليمنى ووضعت فى الجبس ..

إذا طلب أحد زملائه من إحدانا طلباً يستطيع القيام به ، اعتبر أحمد منصور أن هذا الطلب هو تحرش بنا يجب ردعه . مرة طلب منى جريح كانت ذراعه اليمنى مكسورة مربوطة إلى عنقه أن أشعل له سيجارة فأشعلتها ، طلب أن أقربها من فمه ليجذب نفساً . تدخل أحمد منصور قائلاً : لك ذراع سليمة فدخّن سيجارتك بنفسك ..

الغريب أن أوامره كانت تنفذ دون مقاومة ..

كان هو نفسه قليل الطلبات ، لا يتدخل فى حكايات زملائه إلا عند الضرورة . وكانت الضرورة عنده هى المبالغة ، حين ينعقد مجلس الحرب فى العنبر ، وتتقمص الجميع أرواح

الجنرالات العظام وتنقلب قواعد الحرب رأسا على عقب .

أما أول من خفف الحديث عن الحرب بالحديث عن خطيبته فهو مجاهد عبده . عامل بشركة الغزل والنسيج بالمحلة . له ملامح مصرية نموذجية وجهه أسمر فيه بشاشة . كانت الشظايا قد هاجمت جسده وركزت هجومها على ذراعه اليمنى .. بسيط سمح الروح .. كان يحمل همها لحظة معرفتها بخبر اصابته . قال إن الخبر سيجدد احزانا قديمة فى قلبها لأن زوج أختها هو أحد شهداء حرب ١٩٦٧ .

وعندما وصلت فاطمة ذات صباح إلى العنبر ، رأيناها كما توقعناها من حديثه الدافىء عنها . فتاة طيبة ، حلوة ، تتدفق حبا لخطيبها وتعلن عن حبها بصراحة ، باللهفة وحرارة اللقاء .

أيقظ فينا وصول فاطمة ، ومشهد لقاء حبيبين ، روح المداعبة . أحطنا بنادية ورحنا نسألها وسط الغمزات والضحك :

- ترى هل سيكون اللقاء بينك وبين عبد الله بمثل هذه الحرارة ؟

قالت نادية وهى تبتسم :

- دعونى أعرف أولا أين هو ، ثم تحدثن عن اللقاء .

كان شائعا فى عنبر العظام أن لنادية خطيبا فى الجبهة . وحدث مرة أن سألها أحد الجنود عن أوصافه ، ثم صاح مؤكدا بأغلظ الإيمان أنه يعرفه وأنه سليم ، وأنه فى موقع لا يصل إليه الجن الأزرق .

كان واضحا أنه يطمئن نادية وهو يضيف الرتوش إلى حكاية معرفته بعبد الله وثقته فى سلامته .

كانت جروح مجاهد تتقدم نحو الشفاء ماعدا ذراعه التى قرر الطبيب آخر الأمر أنها بحاجة إلى جراحة ..

حين أفاق مجاهد من تأثير المخدر واكتشف أن كفه قد فقدت اصبعها الوسطى علق مازحا :

- من هنا ورايح تسلم على الطبيب وتعد أصابعك ..

كانت له قدرة هائلة على احتمال الألم ولم يخلط أحاديثه ولا ضحكاته أبداً بآهة ..

أما المحاسب « كمال رافت » فمنذ وصوله إلى العنبر وحتى دخوله فى اليوم التالى غرفة العمليات لعلاج إصابة خطيرة فى ذراعه لم يتبادل الحديث مع أحد . غرق فى تفكير عميق وكست وجهه مسحة حزن . أجريت له عملية بتر ذراع . عاد إلى العنبر فى نصف إفاقة وبدأ يتنبه .

— ماء ... أريد ماءً .

لبينا طلبه بسرعة وعطف شديدين ، كنا نترقب لحظة إدراكه للأمر ونخاف عليه منها .

قال : أشعر بوخزات ألم مستمرة فى كف يدى اليمنى ، أحتاج إلى مسكن .. !!
وقفنا غير مصدقين ، كانت الذراع اليمنى هى المبتورة .
كان الأطباء قد حدثونا عن هذه الظاهرة . إن المصاب تمر به فترة قبل أن يشعر بأنه فقد جزءا من جسمه .

تبادلت معنا الممرضة النظرات وانسحبنا وتركناه يعود إلى صمته البليغ .
عندما زال أثر المخدر تماما اكتشف كمال الحقيقة ، استوعبها بينه وبين نفسه بغير سؤال أو اشارة .
كان حريصا على أن يخدم نفسه بنفسه ما استطاع . منذ اليوم التالى للعملية ، بدأ يدرب يده اليسرى على أن تؤدى عمل اليدين تعلم أن يثبت علبة الكبريت على الكوميدينو ثم يحك العود ويشعل سيجارته . يبدل بنفسه الماء فى الدورق ويصب لنفسه كوب الحليب .
كنا نحاول أن نقنعه بأن يرتاح ، وأننا موجودات لهذا السبب ، فكان يرد بأدب أن غيره أشد حاجة إلينا منه ثم يخلد إلى الصمت .

أمامجدى سرور فظل مجهولا لنا منذ وصوله حتى رحيله .
كان مصابا بارتجاج فى المخ . نحيف ، ملامحه هادئة ، وكان فى غيبوبة شبه كاملة .
تحت الغيبوبة كان وجهه يبدو كوجه طفل مستسلم لأحلام سعيدة .
كنا نتجمع حول سريره فى هدوء نحاول أن نتأكد بمراقبة تنفسه أن الحياة مازالت تدب فى شرايينه .
أحيانا كان الجسم يهدأ تماما .. وتبدو الانفاس كأنها انقطعت عندئذ كنا نسرع إلى الممرضة وقد تصورنا أنه فارق الحياة .
فى كل مرة كانت الممرضة تقول فى هدوء :
ـ لا داعى للقلق إنه أقلهم إصابة . وسيقوم ويشفى ويزول كل أثر لمرضه فى المستقبل .
وحين قرر الأطباء أن حالته تسمح بمغادرة المستشفى مضى فى هدوء ، وودعنا بابتسامة ليلحق بفرقته دون أن يفتح قلبه بكلمة عن حياته التى مرت بالمكان مثل الطيف ..
كانت حركتنا قد تجاوزت قسم العظام إلى الأقسام الأخرى التى يعالج فيها الجنود ، فقد أصبح كل نهارنا لهذا العالم الجديد الذى اكتشفناه بالحرب وأسرنا وقتا وشعورا وجهدا .
كان هاشم عبد العال من بين المصابين خارج قسم العظام هو أكثر من جذب اهتمامنا وعواطفنا إليه .

هو مدرس شاب من القاهرة . نحيف لا يكاد يميز وجهه إلا الشعر الناعم الكثيف والحاجبان الكثيفان بالشعر الأسود والشحوب الذى كان يحيل لونه الأبيض إلى لون مشوب بالاخضرار .

كانت حالته قد اقتضت بتر الذراعين والساقين معا . وكان يتعرض دائما إلى نزيف مفاجيء حاد .

كل ما كان يربطه بالحياة أنبوب الجلوكوز ونظرات معبرة فى العينين ..

كان يحصل على مادة الحياة من الأنبوب ويتعامل مع الحياة بالنظرات ، وحين قرر الأطباء نزوله بغرفة خاصة لازمته أمه أغلب ساعات النهار والليل ..

لم يكن يصدر عن هاشم أى صوت أوحركة بينما كاد دعاء « يارب » يقطع السكون من حين إلى حين . كانت الأم تعبر بهذا الدعاء عن الأمل فى أن يعيش ابنها على أى حال ، وأن تخفف السماء من عذابه قدر ما تطيق السماء .

وكان لصوت الاستغاثة قوة مغناطيسية هائلة تدفع بأقدامنا سراعا نحو غرفة هاشم .

كان رغم عذابه يستقبلنا بنظرة ترحيب ودود وكذلك كانت أمه . وخارج الغرفة كنا نذرف دموعنا سخينة على الجريح وأمه سواء بسواء ..

٣

طوال شهور ثلاثة قضيناها فى قصر العينى كنا نتساءل ونتسقط أخبار زملائنا الذين غادروا الفريق إلى الكليات العسكرية وقدرنا أنهم فى مواقع ما على جبهة القتال . إما منتصرين على الضفة الشرقية للقنال ، أوصامدين فى وجه الغزاة فى الدفرسوار ، أومحاصرين شرق السويس أود اخل المدينة نفسها . وبالطبع كان السؤال عن عبد الله هو أكثر الأسئلة الحاحا ..

فى البداية كانت نادية فى غمرة الحماسة تجيب باطمئنان أقرب إلى المرح : أهم أخباره أنه يحارب ، وأهم أعذاره فى عدم ارسال خطابات هو القتال .

بمضى الوقت بدأ يتسرب إليها القلق ، وينتقل إلينا ..

كنا نلتقط من حين إلى حين خبرا عن زميل من زملائنا القدامى ، من خلال أسرته أغلب الأمر ، ولكن عبد الله كان كأنما هو شبح واختفى ..

كان والد نادية قد جند نفسه لمسئولية تسقط أخبار عبد الله . وعن طريقه كانت نادية تنقل إلينا أنباء متضاربة أشد التضارب حتى لقد بدا لنا عبد الله فى لحظة من اللحظات أشبه بشخصية « أبو خطوة » الذى يملك القدرة على الظهور فى أكثر من مكان فى وقت واحد ..

منظر الجنود الذين يحصلون على أجازات خاطفة بدأ يظهر فى شوارع القاهرة وزادت كمية الأخبار التى كانت تصلنا عن العسكريين من زملائنا أعضاء الفريق ..

غير أن شخصية « أبو خطوة » ظلت تتضخم أكثر وأكثر .

من قائل يقول إنه رآه فى الاسماعيلية .

وقائل يقول إنه حى يرزق ورآه فى التل الكبير راكبا سيارة چيب . أما الرواية المحددة التى أجمعنا على صدقها فكانت رواية أحد الجنود العاملين بفرقة عبد الله بالفعل .

نزل هذا الجندى فى أجازة إلى القاهرة واتصل بوالد نادية ، وأبلغه أن عبد الله بمستشفى الزقازيق يعالج من جرح غير خطير .

سافر والد نادية إلى الزقازيق وسأل بالمستشفى وعلم أن عبد الله كان هناك ثم غادرها والتحق بفرقته مرة أخرى .

كان ذلك قبل شهر من رواية الجندى .

ترى إلى أين مضت الحرب بعبد الله خلال هذا الشهر ؟..

اقترحنا على نادية أن تبرق إلى والد عبد الله باخميم . فقد يكون لديه أخبار دقيقة . وصحبناها إلى مكتب التلغراف وعادت إجابة البرقية لتزيد الموقف غموضاً . كانت رسالة والد عبد الله خليطاً من أخبار أخرى تشبه الأخبار التى وصلتنا في أمر واحد ، هو أن عبد الله هو نفسه « الشيخ أبو خطوة » الذي يشاهد في أكثر من مكان في وقت واحد .

وتحول البحث عن عبد الله إلى هم من همومنا جنباً إلى جنب عملنا الدءوب بقسم العظام ..

اقترحت زينب ذات صباح بعد أن ساءت حال نادية أن نستأذن من المستشفى ساعة ونقصد إلى إدارة الشئون العامة بالقوات المسلحة لنسأل هناك .

كان هناك زحام من الأمهات والزوجات والآباء والأهل يسألون نفس السؤال عن ذويهم .

تحولنا إلى قطرة فى بحر أهالي المقاتلين ..

ومرة أخرى أحسسنا أننا كنا في عزلة عن الحياة الحقيقية ، وعن المشاعر العليا للإنسان البسيط ..

الناس يجمعهم شعور باللهفة ، ولكنهم يتشبثون بالأمل . كل واحد له قصة يرويها فى إيجاز بليغ . بطلها هذا الغائب الذي جاء يسأل عن أخباره . وهنا كانوا خليطاً من العمال والمثقفين والفلاحين ..

كانت مصر تستعرض أمامنا أحشاءها الحقيقية بعيداً عن الزيف والثياب الملونة ، والبدع الغربية والثرثرة التافهة ، والآمال السخيفة ..

كان الأمل هنا هو حياة الآخرين ، والقضية هى قضية الوطن كله .

رأينا لأول مرة التلاحم العاطفي بدلاً من التنافس ، والألفة بدلاً من الغيرة ، والبساطة بدلاً من التعقيد ..

وسألنا عن عبد الله وتلقينا جواباً صريحاً بأنه غير موجود فى أى كشف من الكشوف . لا هو مفقود ولا شهيد ولا جريح بمستشفى ولا أسير !!!!

هو غائب وموجود في وقت واحد ..

وعدنا إلى المستشفى أكثر حيرة مما غادرناها ..

كنت في هذه الرحلة القصيرة من رحلات البحث عن عبد الله مشغولة بسؤال جانبي :

ما السبب الذي دفع زينب إلى مقدمة الصف في قضية غياب عبد الله ؟

لم أستطع أن أتغلب على رغبة شديدة في سؤالها عن هذه المسألة .

قالت لى زينب بعد زفرة طويلة كأنها تزيح صخرة عن صدرها .

لقد عشت كابوساً يا أنجي . وكل ما حدث بينى وبين فكري أراه الآن وقائع كابوس غامض ومفزع وغريب . وليس معنى هذا أننى قررت بشأن خطوبتنا شيئاً ، ولكننى قررت

أن أسترد إنسانيتي أو أنظر إلى الدنيا من خلال عيني أنا . ومنذ الأيام الأولى لمستشفى أم المصريين وأنا أشعر بنفس الشعور الذي يشعر به إنسان يفيق لتوّه من كابوس ثقيل . وأحداث الأسابيع الماضية كانت كأنها تيار ساعدني في سباق سباحة واقترب بي بسرعة من نهاية الشوط . كل أنّة ألم ودمعة أم ، وقصة في قتال ، وضحكة جريح انتصر على عذابه ، ولهفة خطيبة على خطيبها الجريح ولهفة نادية على حبيبها الغائب ، كل هذا كان موجات في ذلك التيار الذي حملني بعيداً عن حمام السباحة في النادي الصغير ..

أشعر بأن هناك ما هو أروع وأكبر من النادي الصغير والنادي الكبير ونوادي القاهرة السبعة جميعاً . الوطن يا إنجي .. الوطن ..

كانت عينا زينب مغرورقتين بالدموع وهى تختم حديثها معي ، وحين أقبلت شيرين ونادية كان على وجهيهما علامتا استفهام وهما تنقلان النظرات بيني وبين زينب ..

أحطت كتف زينب بذارعي وقلت :

ــ لقد عادت زينب إلينا ..

فتحت الجامعة أبوابها ، وحملتنا على أجنحتها الرحيبة ، وعدنا إلى تنظيم علاقتنا بالنادي الصغير دون أن ننغمس في أعماقه المعتمة ..

إلى جانب التدريب ، كنا نلاحظ فتور العلاقة بين الكابتن وزينب ، غير أننا تجنبنا أى حديث حولها .. وظلت علاقتنا بنادية شبه يومية ، ولم يكن هناك جديد في مسألة غياب عبد الله ..

إلى أن كان يوم ..

في ساحة الحرم الجامعي سمعت من يناديني ..

كان علاء طرزان يسرع الخطى نحوي ، مفارقاً حلقة من زملائه . كان وجهه يحمل حزناً غير عادي ، وبدون مقدمات قال :

ــ الباقية في حياتك . آسف أن أكون حامل الأخبار السيئة . استشهد زملاؤنا في الفريق :

وجيه ــ بهير ــ محمد ــ سعيد ..

وراح يعدد الأسماء حتى بلغت سبعة .

خيّل إليّ أن موسيقى جنائزية تتصاعد وتترامى لتملأ ساحة الحرم الجامعي الواسعة . تحاملت على نفسي وأسرعت إلى كلية الهندسة وأنا أصطدم بالطلبة والطالبات بغير وعي . كادت تصدمني سيارة أوتوبيس مسرعة لولا دفعة من يد طالب صرخ كالمجنون في آخر لحظة ..

حين عثرت على شيرين لم يكن قد بقى من أنفاسى إلا ما استطعت أن أفضى به إليها من أسماء زملائنا الشهداء ..

ـ إلى نادية . هتفت شيرين ، وأسرعنا إليها فى معهدها ، لم نجدها هناك ، قررنا الذهاب إلى بيتها .

فى الطريق خرج إلينا من كل شارع شهيد .. غطى عطاؤه أرض مصر التى كانت تترنح بين رحى الفرح بالنصر والحزن على خيرة شبابها .

أمام بيتها داهمنا حزن لم نعرف من أين يأتى وأين يكون الشهيد ؟ .. كنا نخشى عليها من تأثير الصدمة حين تعرف خبر استشهاد زملائنا .. فإذا البيت يشع كله بالألم تلطف منه آيات الله .

اقتربنا ونحن نرتجف ، كل منا تحاول أن تخفى مخاوفها عن زميلتها دون جدوى ، وطلبنا من الله فى صوت واحد ألا يكون ما نفكر فيه قد حدث .

قبل أن ندق الجرس ترامى إلى سمعنا صوت مقرىء يرتل آيات من القرآن . فتحت لنا الأم الباب فى ثياب الحداد . عانقتنا نادية وجلسنا مذهولتين . وجدنا زينب قد سبقتنا إلى العزاء وكانت هى الأخرى بثياب الحداد . وبدت كأنها فرد من الأسرة يقتلها الحزن ويلفّها الصمت .

الوجه الذي لم تستطع نظراتنا أن تصمد أمام حزنه العميق كان وجه والد نادية ..
كان كمن فقد أعزّ أبنائه بل كان كمن فقد ما يربطه بهذه الدنيا من رجاء ..
كان رأسه منكساً طول الوقت كأنه يقرأ كتاباً مفتوحاً في حجره ..

كان بين يدى نادية ظرف ورسالة تقلّبهما فى حجرها ..

مدت إليّ كفها بالرسالة وفي عينيها دموع غزار ..... قرأت وبكيت ......

حبيبتي نادية :

تحية من قلبي الذي تعلم الحب على يديك .

أولاً آسف لتأخير رسائلي طوال هذا الوقت . السبب هو أنني لم أشأ الكتابة إليك إلا بعد نجاح الجراحة التي أجريت لي . وأنا أكتب رسالتي عقب عودتي إلى وحدتي ، بعد قرار الأطباء بذلك .

وقد أرسلت إليك رسالة شفوية مع المجند سالم البنهاوي قبل أيام .

لا أستطيع أن أحكي حكايات الحرب إلا بعد نهايتها ولعلك سمعت بالبطولات ، ولكنني سأحدثك عن شعوري خلال الأيام القليلة التي عشتها في الجبهة قبل اصابتي ..

بصراحة لقد فكرت فيك أكثر من أى إنسان في الوجود واكتشفت أن الحب يلغي من ذهن الإنسان فكرة الموت واحتمال الفناء ، وحتى حين سمعت الطبيب يهمس إلى الممرضة وأنا

أصارع ضباب المخدر بأن النهار إذا طلع وأنا بخير فسوف أعيش ، كنت واثقاً من طلوع النهار رافضاً فكرة طلوع روحى .

إن الحب يجدد في الإنسان فكرة الخلود ، وأشعر انني سأعيش وأتعارك مع العدو ، وأتعامل معه بما يستحق ، ودائماً سأنجو بإعجوبة ، فإن الحب تميمة يا نادية .. صدقيني ..

وأرجو الاحتفاظ بهذه الرسالة فى حرز حريز لأنها تذكار وأحب أن يقرأها أحفادي وأنا عجوز بالمعاش ليعلموا انني كنت ضمن القوات المصرية التي حطمت أسطورة جيش اسرائيل الذي لا يقهر ..

تحياتي إلى عمي والوالدة ويسرية وماجد وصديقاتك السابحات الفاتنات ، وأتمنى لهن الخروج من قمقم الكابتن فكري ، وآسف إذا كنت عاجزاً عن إرسال هدية إليك من هنا . وأقترح بديلاً مؤقتاً هو أن تتمتعي بنزهتنا المفضلة في فلوكة بالنيل تصحبين فيها صديقاتك وذلك على حسابي والدفع في أقرب فرصة .

م . أول

مهندس عبد الله رافع

ملحوظة :
مع الاعتذار للرقيب العسكري عن الاطالة .

مررت الرسالة إلى شيرين وزينب .

٤

ومضى الشتاء وجاء الصيف ..

كان الشتاء قد مر والنشاط الرياضي في حالة ركود بسبب ظروف الحرب .

وكنا نكتفي بالتدريب الأسبوعي ، ثم ننفصل عن النادي ، ونسبح في العالم الجديد الذي فتحت لنا الجامعة أبوابه ..

عادت الألفة بين الثيران الأربعة ، غير أن نادية ظلت على موقفها من مقاطعة الحمام .

ولكن إجازة الصيف أعادتنا بكل قوة الشوق إلى الماء لنجد النشاط قد سبقنا إليه .

مدرسة السباحة في قمة النشاط ، والكابتن فكري تساعده زينب ، يشرف على كل صغيرة وكبيرة كما لو كان يستعد لدخول معركة فاصلة في حياته .

استقبل عودتنا الصيفية بترحاب مبالغ فيه ، وسألنا عن نادية وأخبارها ، وأعرب عن رغبته في أن تعود ، وعقد لنا اجتماعاً طويلاً تقمص فيه شخصية قادة الجيوش قبل المعارك الكبرى ..

رسم أمامنا صورة تفصيلية عن الاستعداد لمسابقات المنطقة ، وجدّد تعليماته التي تخص بناء العضلات من تغذية وراحة وتدريب شاق واختصار لتفاهات الحياة التى تبدد الوقت والجهد ، وحدد لنا مسئوليتنا فى مدرسة السباحة التى كانت عضويتها قد اتسعت بشكل ملحوظ ..

كانت كلمة النادي الكبير تتردد خلال حديثه ، وفهمنا أن تطور فريق النادي الكبير قد أصبح عقدة العقد وأنه سيدخل بنا معركة حياة أو موت مع فريق النادي الكبير ..

وبغض النظر عن العقدة التى لم تكن تهمنا ، استطاع الكابتن فكري أن يعود بنا إلى حماسة الأيام القديمة ..

كنا نعشق الماء إلى درجة كبيرة تكفل غفران الخطايا ونسيان الحزازات ..

ولكننا كنا نحس بشعور يجمع بيننا هو أننا كبرنا ، ولم نعد مجرد قطع شطرنج . وكان ذلك واضحاً أثناء الاجتماع فلم يعد الكابتن يتدفق بالحديث دون اعتراض من أحد ..

كانت لنا ملاحظاتنا واقتراحاتنا وتحفظاتنا . والغريب أن كابتن فكري استوعب هذا التحول أو على الأقل تصرف كأنه رجل جديد واسع الصدر حليم وديمقراطي ..

أبرز الأفكار التي حملها إلى ذلك الاجتماع كانت إنشاء معسكر تدريب قبل شهر من بدء البطولة يعيش خلاله أعضاء الفريق ليلهم ونهارهم في النادي . حتى يستطيع الفريق أن يحشد كل وقته وجهده لمواجهة المسابقات ..

كان قد فكر في كل شيء ابتداءً من أماكن النوم حتى النفقات النثرية دون أن يكلف النادي غير القليل ..

قرأ علينا جدولاً توزع فيه مسئولية إعداد الوجبات على العائلات ، وكان قد اتفق مع إدارة النادي على أن تتحول غرف الفرق الرياضية التي يتوقف نشاطها في الصيف إلى عنابر نوم لأعضاء الفريق ..

تحدث كأن به مسًا من الجنون ، وأجاب على كل اعتراض بصبر ، ولكنه عجز أمام اعتراض واحد هو اعتذاري انا وشيرين وزينب عن المبيت بالنادي ..

نفسياً كنا قد خرجنا عن القالب الذي يتعامل به كابتن فكري مع مخلوقاته ولكن هذا الموقف لم يحرك المشاعر الانتقامية المعتادة من جانبه . خضع ربما لأول مرة لفكرة تتعارض مع خطته .

كان واضحاً أنه يضع آمالاً كبارا علينا ، وفي نهاية الاجتماع كرر رغبته في أن نفاتح نادية لتعود ويكتمل مربع الثيران الأربعة في المسابقات .

مضت التدريبات وكابتن فكري في نشاط محموم . قطع كل صلة له بالعالم الخارجي . أصبح وأمسى على ظهر الحمام بكل معنى الكلمة .

ثم وقعت حادثة ..

ذات يوم أقبل اثنان من أعضاء فريق النادي الكبير واتخذوا مجلسهما قرب سطح الحمام وظلا كذلك حتى اقترب التدريب من نهايته ثم انسحبا دون كلمة ..

أثارت هذه الواقعة شكوك كابتن فكري . دعا إلى اجتماع عاجل قال فيه : إن عضوى فريق النادي الكبير كانا قرون استشعار للتجسس على استعداد فريق النادي الصغير ..

وعلى عادته القديمة عاد إلى التلميح بأن بين أعضاء فريقنا من ينقل الأخبار إلى النادي الكبير ..

كان يقصدني ، واتجهت كل الأنظار نحوي فى إشفاق على أعصابي من أن تثور .

أحسست لأول مرة أننى أقوى منه ، لم تصل كلماته إلى أعصابى ، نهضت ببرود وانسحبت .

أدركتني شيرين وزينب عند باب النادي الخارجي تلهثان ولما رفضت العودة صحباني إلى البيت ..

في غرفتي بعد أن أغلقنا الباب فجّرت زينب قنبلة ..

قالت : إن الكابتن فكري تقدم بطلب إلى إدارة النادي الكبير يرغب في العمل مدربا به !!.

تكشفت أمامنا كل خطته . تذكرنا قول عبد الله اننا مجرد زانة يقفز بها إلى شرفة أعلى بعمارة البرجوازية ، ثم يتركها تهوى خلفه دون أن يلتفت إليها .

لقد كان النادي الكبير الذي حاول دائماً أن يحشدنا ضده ويزرع فى نفوسنا روح العداء

له ، هو في الحقيقة هدفه وبغيته ومحط أماله .

قالت زينب : إن مروض الوحوش يبدأ معها من الطفولة . يرضعها بنفسه ، يدللها . يربت على شعرها . يقدم لها السكر والتفاح حين تطيع أوامره ولكنه يلسعها بالسوط حين تتمرد عليه .، وبين عقد أواصر الألفة وتوقيع العقاب تنشأ الصلة الحقيقية بين المدرب والوحش . إن الوحش يحب مدربه ويخشاه ويشعر بأن بين يديه الحياة والموت واللذة والألم ، ويتحول العالم الخارجي إلى شيء غريب وغامض وغير مفهوم للوحش ، بينما يشعر أنه يعرف مدربه . يعرف خيره وشره . متى يرضى ومتى يثور . ويكتشف ميزان الثواب والعقاب الذي يحمله مدربه ويسيطر به عليه ويظل الوحش على هذه الحال : حياته رهن برضا مدربه عليه . وإذا حدث مرة وارتدت إلى الوحش غريزته الأولى في الدفاع عن ذاته الحقيقية ، عن طبعه الذي جُبل عليه ، والطبيعة التى تفرق بينه وبين غيره من الكائنات ، فإن ثمنه يكون رصاصة .

ويبقى الهدف عند المدرب واحداً هو العائد المادي من رحلة العذاب هذه ... إن الترويض بالثواب والعقاب هو لعبته ومهنته في وقت واحد ..

تأملنا زينب ونحن بين الشك واليقين ..

ماذا حدث لها على وجه التحديد ؟ وما الذي يجبرها على البقاء تحت تهديد الرصاص . والارتباط واختيار رباط الزوجيّة بالمروض الذي وصفته بصراحة كحد السيف ..

قالت زينب وهى ترد على نظراتنا المتسائلة : إن مأساة الوحش هى أنه لا يعرف إختيار لحظة التخلص من عذابه ، ولكن الإنسان يملك لحظة الاختيار ..

وروت كيف حكى لها الكابتن فكري حكايات أيامه الماضية في النوادي الشعبية ، وكيف انتزع بطولة البحر الأبيض من بين براثن الفقر ، حتى اضطره ضيق الحال إلى الاعتزال واحتراف التدريب ، وكيف كشف لها فى لحظة صراحة عن حقده الدفين على الناس والحياة والأقدار ، وكيف ركبها الرعب منه في تلك اللحظة ..

كان يحتقر الفقراء ويسخر منهم رغم أنه من صلبهم ، ويكره الأغنياء رغم جنونه بدنياهم ورغبته المحمومة في التعلق بأذيالهم .. زالت الغشاوة عن عيني وأدركت أنه سيحملني إلى حياة لا تعرف الحب وتتغذى على البغضاء ..

قالت : كان في عينيه شيء شيطاني جعلنى أتخذ قرارى بالفرار عند اللحظة المناسبة ، فلم تكن المسألة عنده تطلع إلى تحسين ظروفه المادية ، بل كانت عقدة انتقام من الدنيا بأسرها ..

أضافت وهى تضغط على الكلمات :

كنت على يقين من أنه يستطيع أن يجعل مني بطلة عالمية .. وكذلك كنت على يقين من أنه يستطيع حتى لو انتقلت إلى نادٍ آخر ، أن يلاحقني ويسدد إلى حلمي بالبطولة ضربة

قاضية .. إنه يعرف مواطن ضعفى وقوتي ويعرف كيف يخلق بطلة تتكفل بهزيمتى حيثما كنت ..

الآن تزعزع هذا اليقين ..

إن الفريسة تسقط بين فكى الأفعى لا عن رضا ولكن عن رعب .. وبدون الرعب لا تسقط الفريسة ..

الآن .. لا خوف ولا رعب ولا استسلام للسقوط ..

بكت زينب وتركناها تنتحب فقد أحسسنا أنها كانت تودع بالبكاء مرحلة قاسية من حياتها ..

كرهنا البطولة التي تستعبد الإنسان وتسقط به إلى نقيضها ، إلى الهوان والامتهان

عرفنا أن بريق البطولة الذي جعل زينب تسقط في حبائل كابتن فكري لم يكن بريقاً ، ولكن أطراف لهب الجحيم نفسه .

واقتنعنا أن الإنسان إذا فقد احترام ذاته لا ينفعه هتاف الآخرين بحياته ، ولن تزيل أكاليل الغار وصمة الذل عن جبينه ..

عدنا إلى اللقاء فى النادى ، المكان الوحيد الذى نعرفه ونألفه فى العالم . ورغم أن تجربتنا الأخيرة فتحت لنا طاقة رأينا منها بلادنا الحقيقية . إلا أننا لم نستطع إلا العودة إليه ولكن بروح جديدة وفهم أعمق ..

طلب من زينب أن تفاتحني في الاعتذار عن انسحابي من الجلسة ، وبالطبع رفضت . وتقبل الصفعة في هدوء . كل همه كان أن يدشن طلبه بفوز ساحق لفريقنا على فريق النادي الكبير بالذات ، وفي سبيل ذلك كان مستعداً لصنع المستحيل ..

وتمتعنا بتدريب خال من المنغصات ، وعرفنا لأول مرة متعة الحياة الرياضية حين لا تحكمها مرارة المنافسة التى تقطع أنفاس العواطف الطيبة ..

كنا نمارس التدريب العنيف لنتمتع بالسباحة نفسها ، وبالاكتشاف المتجدد لقدرة الإنسان على تطوير طاقته والتفوق على نفسه ..

كان النادي يتفجر حيوية في تلك الأيام وهو يشهد أول معسكر رياضي منذ إنشائه .. وأكثر من أى وقت مضى كان حمام السباحة هو القلب الحي للنادي كله ..

أغلب العائلات كانت مشغولة بأن تكفل للمعسكر كل طلباته وتسهر على راحته ..

كنا نقضى ساعات النهار نشرف على فصول مدرسة السباحة ثم نبدأ تدريبنا الخاص في السادسة مساء وقد خلا الحمام لنا تماماً ، ثم ننسحب مرهقات إلى بيوتنا ـ نحن الثيران الأربعة ـ على موعد في الصباح المبكر لليوم التالي ..

كان الكابتن فكري لا يبخل علينا بنصيحة ولا توجيه ولا تشجيع ، كأنما قرر أن يصب خبرته كلها في شرايين الثيران الأربعة ، ليقدم معجزته في المسابقات ..

وحين اقتربت السباقات كان في أحسن حالاته ، واثقاً من فوزنا مطمئناً إلى نتائج معركة سهر على حساباتها الدقيقة ..

وصباح يوم السباق ، استحسن الفكرة التي طرحناها عليه وهى أن يكون وصول الثيران الأربعة إلى حمام النادي الكبير مفاجأة ، وفي آخر لحظة . يسبقنا أعضاء الفريق ، ويبدأ الهمس حول تخلفنا عن الركب الجماعي ثم نهبط من السماء فجأة ..

كانت المسابقات هى أول مسابقات ما بعد الحرب ، لهذا كنا نتوقع أن يكون الجمهور غفيراً ، وكان الكابتن فكري سعيداً بذلك ..

اتفقنا على لحظة اللقاء عند باب النادي الكبير .. كنا في ثياب المناسبات ما عدا نادية التي وصلت بثوب حداد رقيق ..

حين أشرفنا على موقع الحمام بدأت العيون المستفهمة تلتهمنا ..

لمحنا الكابتن فكرى . حين رآنا تدفق وجهه بالبشر . لقد نجحت الخطة التى اتفقنا معه عليها ونجحت أيضاً خطتنا . وضمن إثارة الجمهور »

استعجلنا بصوت عال وهو يتوثب من نشوة النصر الذي يقترب ..

تحولت التساؤلات إلى ضجة في صفوف الجمهور ، إشرأبت الأعناق وهى تتابعنا بينما كنا نتجه نحو مقاعد المتفرجين ..

ارتفع صوت الكابتن فكري مرة أخرى يستعجل استعدادنا . كان فريقنا يقوم بعملية التسخين في الحمام بالفعل . كان الكابتن يشير إلى عقارب ساعته وقد بدأ وجهه يحمل لمسة خفيفة من القلق ، فقد كان يتوقع أن نصل فجأة ثم نسرع لتغيير ملابسنا ، ثم نقفز إلى الماء ..

جلسنا في هدوء ، وبينما كانت ضجة الجمهور تتصاعد من حولنا كان الكابتن فكري يقبل عدواً ..

استقبلناه وقوفا . تطوعت شيرين بتسديد الضربة إليه :

ــ هناك مانع يمنعنا من الاشتراك ..

قال كالمجنون : ولكن لم يكن هذا المانع موجوداً في الصباح ..

قلت : شاءت الأقدار أن يوجد بعد الظهر ..

قال : كلكن ..

قالت زينب : نعـــم

جذبها من ذراعها وانتحى بها جانباً ..

كان ضجيج الجمهور قد تحول إلى هدير . لم نسمع حوارهما ، ولكننا رأينا كما رأى الحاضرون يد زينب وهى تمتد بعصبية لتنزع خاتم الخطوبة من اصبعها وتدسه في كف كابتن فكري وتطبق أصابعه عليه ثم تعود إلينا في خطوات ثابتة ..

بدأ النداء على المتسابقات .سمعنا اسم شيرين ، ثم راح الجمهور يردد اسمها ، كانت شيرين تهز كتفيها وتضحك من قلبها ..

اختفى الكابتن فكري عن أنظارنا . تحلق حولنا الفضوليون . كان ضغطهم فوق ما نحتمل . اتفقنا على الانسحاب ، وانسحبنا ، وفي أعقابنا ضجة كبرى ..

اتجهنا تلقائياً إلى شاطىء النيل ، لم يكن الزحام على الشاطىء قد بدأ بعد ، ولكن نسمات خفيفة كانت قد بدأت تترامى من النيل بين الفينة والفينة ..

على الكورنيش سرنا ، وقد تشابكت أيدينا . كنا في نشوة لم نشعر بها من قبل ، حتى فى أيام الانتصارات والبطولات . حتى نادية أشرق وجهها لأول مرة منذ استشهاد عبد الله ، وترنمت بأغنية مرحة ، وسرت العدوى إلى صديقاتي ، وقررنا أن نقترب من النيل أكثر ، وانحدرنا بمرح من الكورنيش إلى الشاطىء حتى اقتربت أقدامنا من المياه ..

غمرتنى نشوة الإنسلاخ من عالم احببته ، تعودته وتمنيت الهروب منه دون جدوى . عرفت فرحة خروج الفراشة من الشرنقة إلى الحياة . تتابعت فى مخيلتى صور سريعة لى وأنا أتعلق بحافة الحلقة ، وأنا اغرق عند نزولى مياه الحمام لأول مرة ، وأنا انتظر نهاية النقاش بين أبى وجدى الذى حسم لصالح بقائى فى القاهرة ، ووقوفى على منصة الفوز . تذكرت وجوه .. عم أحمد مدربى الأول وقدامى السباحين . امسكت بيد زينب وتشبثت بها حين رأيت فى خيالى عيون رأفت وجلال تحدق بى . وعرفت كيف تتكون أنّة الألم داخلنا من كل نبضة حزن نعيشها ، حتى يصبح النغم الحزين مصاحبا للفرح فى دنيانا .

كادت شيرين تقع وهى تركض نحو النهر ، أمسكنا بها ونحن نضحك ، تذكرت الرمال الناعمة فى البحر ، وضربات الأمواج فوق جسدى ، والصخور التى جرحتنى ، وأيمن وطلال ، تمنيت أن أعود لصيد القواقع فى مياه أبى قير ، وأن تزغرد عيناى باللعب بأشعة الشمس والأسماك الملونة فى قاع البحر . شعرت بطعم الملح فى حلقى وابتسمت لأحلام مراهقتى وحيدة فوق سطح الماء . تذكرت الإرهاق بعد التدريب ، وفرحة الركض إلى النادى فى الصباح وعطر كلمات الحب الأولى التى سمعتها من راضى ، وفرحة التحكم فى النفس ورفض كل حب ، حتى أصل لسن النضج . وكيف سرق القلق ليالى البطولات . وشعورى بالرضى وأنا أتذوق حلاوة النصر . تذكرت محمود وكمال وهاشم ، وعنبر العظام . اختفت من أذنى ضجة المدرجات ، حاولت أن استرجع أصوات الجمهور وهى تهتف بى .. هربت .. ضاعت منى .. لم أشعر أننى سمعتها يوما .. كان علىّ أن أبدأ من جديد طريقى الذى تنسمت خطاه .. أن أكتب ..

نادى مراكبي علينا وهو يسرع بمجدافيه ، يقترب حيث توقفنا نتطلع إلى النيل ونغني ..

قالت نادية : فكرة من السماء . هل تذكرن الدعوة التي سجلها عبد الله في رسالته الأخيرة . إنني أدعوكن نيابة عنه إلى نزهتنا المفضلة ..

لوحنا إلى المراكبي فأعمل ذراعيه بنشاط واقترب أكثر ، وثبنا إلى القارب غير عابئات برشاش الماء على ثيابنا .

اتخذنا مجلسنا واندفع القارب إلى العمق ، إلى الصدر الرحيب للنيل ..

كانت شمس الأصيل تستعرض جمالها ، وترخي جدائل الأرجوان المذهبة على صدر النيل ..

وكان النيل يرد على عناق الوداع اليومي للشمس بأعطاف ترقص من النشوة ..

قالت شيرين : الآن أفهم لماذا عبد أجدادنا الشمس والنيل .. إن الحب عبادة ..

عدنا إلى أغنيتنا . ومضى بنا القارب على مهل في اتجاه الجنوب . كانت ضجة المدينة تخفت ونسيم الأصيل يملأ صدورنا . رحنا نداعب الماء . ونبلل أقدامنا به ، تذكرنا عجائز المدربين وحكاياتهم عن النيل وأنه أصل السباحة ..

وقالت نادية :-في الجنوب ولد عبد الله . أحس الآن أنني أتجه إليه .

تحولنا إلى دفقات من ماء النيل تتداخل في موجة متماسكة .. تندفع بحيوية ، تلتحم بما قبلها وما بعدها من موجات .. تغوص وتصعد وتفور وتتدفق إلى مالا نهاية ..

انتهت

١٩٨٠/٦/٢٢

صدر للمؤلفة ..

- حكايات من الخالصة ....(١٩٧٦) بغداد .
- فلاح مصرى فى أرض العراق ...(١٩٨٠) بغداد .
- المرأة العراقية ....(١٩٨٠) بغداد .

تحت الطبـع

● **الغد :**

العدد الرابع

● **الرحـــلة :**

الجـزء الثــانى

رواية فكرى الخولى ..

● **مقاطع من أغنية قديمة :**

قصــص قصـــيرة

أسامة أنور عكاشــة ..

● **حـــدوتة فى الشمـــس :**

قصــص قصـــيرة

جار النبــى الحلـــو ..

● **دبرنـــا ياوزيـــر :**

صـــلاح حـــافظ ..

● **مـــوال البـــرج :**

للشـــاعر الكبيـــر : فؤاد حـــداد ..

كتاب الغد

يصـدر عـن :

دار الغـد للنشـر والدعاية والاعلان

٥٦ شارع ٢٦ يوليو ـ القاهرة

ت : ٧٧٢٧٩٤

● المدير المسئول :

محمد كمال عبد الحليم

●

الكتاب الثـامن

الطبعة الأولى

جمادى الأولى ١٤٠٨ ـ يناير ١٩٨٨

AL - GHAD Publishing House
56, 26 th July st. Cairo, Egypt
Tel : 772794

●



هالة البدرى ..

- عملت مراسلة صحفية لمجلة « روز اليوسف » فى بغداد .
- تعمل صحفية بمجلة « الإذاعة والتليفزيون »
- حاصلة على بكالوريوس التجارة ودبلوم الصحافة جامعة القاهرة .
- أحرزت بطولة الجمهورية فى سباحة الفراشة والمتنوّع لعدة أعوام متتالية .
- تكتب الشعر والقصة القصيرة وتنشر المجلات المصرية والعربية .
- من مواليد القاهرة (١٩٥٤) .

دار الغد للنشر والدعاية والاعلان